من روائع الأدب الأمريكي المعاصر

أنا معكم إلى الأبد

فريد تشابل

ترجمة وتقديم:

د. نهاد صليحة

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون : ٥٧٨٦٠٨٣ - تلكس : ٩٢٠٠٢ يوان

المحتـويـات

الصفحة

مقدمـــــــة

تنتمى رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » إلى أدب الجنوب الأمريكى ـ تلك المنطقة التى تمتد عبر الولايات المتحدة عرضا من ولاية فرجينيا فى الشرق إلى ولاية كاليفورنيا فى الغرب ، ويطلق عليها اسم « الحزام المشمس » أو « حزام الشمس » . وتعد هذه المنطقة أخصب مناطق الإبداع الأدبى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بل إن البعض يذهب إلى القول بأننا حين نتحدث عن الأدب الأمريكى ، فإننا فى الواقع نتحدث ـ بالدرجة الأولى ـ عن أدب الجنوب . وربما كانوا على حق فى هذا ، ففى الجنوب كانت البداية .

وكانت البداية فى الكتابات التى دونها الرحالة الأُوَل الذين عبروا المحيط تحدوهم رياح الأمل ، وحين رست سفنهم على شواطىء الأرض المجهولة ، تبدّت لهم وكأنها الجنة الموعودة . ومن أوائل هذه الكتابات وصف مفصل لهذه الأرض كتبه آرثر بارلو عام ١٥٨٤ ، حين أرسله السير والتر رالى مع بعثة استكشافية قبل أن يشرع فى أول محاولة لإنشاء مستعمرة دائمة على القارة الجديدة عام ١٥٨٥ .

وفى الوصف الذى تركه لنا آرثر بارلو ـ والذى يورده ج . أ . ليو فى دراسته عن « بدايات الأدب الأمريكى فى الجنوب » ـ ولدت فكرة « أمريكا الحلم » ، فالأرض كما يصفها بارلو تموج بالخيرات التى لا يحتاج المرء لبذل الجهد المضنى لاستخراجها ، والسكان الأصليون ـ رغم بعض الاشتباكات هنا وهناك مع الرحالة ـ يتسمون عامة بالرقة والدماثة ، وبالإخلاص والصراحة ، وبالصدق والوفاء ، فكأنهم من أهل العصر الذهبى المندثر .

لا عجب إذن أن استخدم السير والتر رالى هذا الوصف فى الدعاية لأول بعثة من المهاجرين أرسلها عام ١٥٨٥ ، والتى أعقبتها ثلاث بعثات أخرى كانت آخرها عام ١٥٩٠ . لكن الحلم ما لبث أن تكسر على أرض الواقع . لم تكن الأرض الجديدة هى الجنة التى تعيد الإنسان طفلا بريئا يلهو على شواطئها ، بل كانت صراعا شاقا مريراً مخضباً بالدماء . ويبدو أن الأرض قد تشربت شيئا من صدمة القادمين الجدد فأنبتت فى وجدان سكانها الجدد ، وكل من أتى من بعدهم ، وعيا آسيا بالهوة بين الحلم وبين الواقع ، بين البراءة وبين التجربة . وهكذا ، اكتسب الجنوب الأمريكى - حتى قبل ميلاد هويته ووعيه بوجوده - صورة أدبية قوامها الصراع بين حلم العودة إلى جنة البراءة والطبيعة ، وبين الوعى بالواقع القاسى الذى يفرضه التاريخ .

وفى روايتنا هذه - « **أنا معكم إلى الأبد** » - سيلمس القارىء هذا الصراع ، وسيجده يلح على وعى الرواية وإن اختلف الزمان . فالمكان الذى تنبلج فيه أحداثها مزرعة ترقد وادعة بين الجبال فى ولاية نورث كارولينا الجنوبية ، تشبه الجنة فى براءتها وعزلتها ، لكنها رغم ذلك ليست بالجنة ، فهى تتطلب عملاً شاقاً تكفى ثماره أهلها بالكاد . ويلح المؤلف مرات ومرات على حجم العمل الذى تتطلبه المزرعة ، ويجعل منه الدافع لاستقدام الفتى جونسون جيبس من الملجأ ليساعد فى إنجازه - وهو الفتى الذى سيلعب موته دوراً محورياً فى الرواية فيما بعد . أضف إلى ذلك أن عزلة المكان لا تكفل له الأمان الذى ينعم به أهل الجنة ، إذ سرعان ما تقتحم أصداء الحرب العالمية الثانية ، التى تدور رحاها فى أوروبا البعيدة ، أسوار المزرعة آتية إليها عبر قمم الجبال الشاهقة . بل ان غزو العالم الخارجى والتاريخ لهذه البقعة الخضراء المنعزلة سرعان ما يتجسد فى صورة فجيعة تحل بالأسرة الصغيرة التى تسكنها ، وهى الفجيعة التى يتردد صداها - عاليا أو خافتا - فى أرجاء النص كله فيلون جَوّه النفسى ونسيجه الشعورى ، ويسهم فى إنشاء دلالته الكلية .

لكن غزو الواقع الخارجى للجنة الوهمية المنعزلة لا يتمثل فقط فى صور الحرب وأصدائها ، بل يحمل أيضا صوراً وأصداء من عوالم أخرى -

عالم الفن ، وعالم رعاة البقر ، وعالم الأدب الشعبى الشفاهى ، وعالم الكتب ، وأيضا عالم الموتى . فالمزرعة يتوافد عليها الزوار واحداً تلو الآخر ، ومع كل زيارة تتسع دلالة المكان إذ يمتص شيئا من تجاربهم ورؤاهم قبل رحيلهم . فالمكان هنا ليس محيطاً مادياً فقط ، بل هو تجسيد لوعى الصبى / الراوى فى مراحل تطوره ونموه ، فالرواية فى مجموعها تمثل رحلة نمو لوعى راويها وهو يوشك أن يخرج من جنة الطفولة البريئة ليلج عالم التجربة .

والرواية بهذا المعنى تنتمى إلى النوع المعروف بروايات النمو [Bildungsroman] الذى يؤرخ لبدايته بمجموعة روايات « **فيلهلم مايستر** » التى كتبها جيته بدءا من عام ١٧٩٥ - وهو النمط الروائى الذى طوره تشارلز ديكنز وغيره فيما بعد ، حتى وصل إلى ذروته فى رواية « **صورة الفنان كشاب** » لجيمس جويس .

وإذا كانت رواية فريد تشابل تفصح عن وعى كاتبها بالتراث الأدبى الأوروبى ، إلا أنها تنهل بصورة أعمق من التراث الجنوبى الأصيل الذى خلفه مارك توين . لقد نجح مارك توين فى وضع أدب الجنوب الأمريكى على الخريطة الأدبية للعالم بروايتيه « **توم سوير** » و « **هكلبرى فن** » ، رغم أن بطليهما ليسا سوى صبيين مثل الصبى جيس بطل « **أنا معكم إلى الأبد** » .

لقد تأثر تشابل بمارك توين تأثراً عميقاً دون شك ، بل إن الناقدة الأدبية بتسى فانشر تمضى إلى أبعد من ذلك فتؤكد فى عرض لرواية « **أنا معكم إلى الأبد** » نشر بصحيفة « سانت بيترسبرج تايمز » : « إذا كان من الضرورى أن نقارن تشابل بكاتب آخر ... فلا نملك إلا أن نقارنه بمارك توين ، فهو يكاد يكون أخاه بالدم » .

وتحمل ملحوظة بتسى فانشر درجة كبيرة من الصدق لا يملك القارىء لرواية « **أنا معكم إلى الأبد** » إلا أن يعترف بها . فالمؤلف يطرح الأحداث فيها من وجهة نظر صبى يتأملها بينما يشارك فيها ، كما تتخذ الرواية شكل الحلقات المنفصلة التى تمثل كل واحدة منها وحدة قائمة بذاتها ، ورغم ذلك ترتبط بالحلقات الأخرى ارتباطا وثيقا من خلال الشخصيات المتكررة ،

والتيمات الممتدة بطول العمل والمنبثة فى ثناياه . هذا بالإضافة إلى عنصر الفكاهة المتألق الذى يصبغ مساحات عديدة من العمل ، رغم الحادثة المأساوية التى تمثل مركزه الدلالى والشعورى وهى موت جونسون جيبس العبثى أثناء تدريبه العسكرى بقذيفة عشوائية عشية سفره إلى أوروبا للاشتراك فى الحرب .

فإذا كان مارك توين قد مزج الفكاهة بالنقد الاجتماعى اللاذع فى رواياته ، وجعل منها وسيلة لكشف جوانب الطبيعة البشرية ، فإن فريد تشابل يحيلها إلى معارك لسطح الحياة البراق العابر ، الذى يلتمع بضوء الشمس لكنه لا ينجح فى أن يخفى عنا تماما ما يكمن تحته من أحزان وجودية تتعلق بالرحيل والموت والفقدان . قد تصطخب الفكاهة أحياناً وتتقافز أمواجها فتنثر رذاذاً يدغدغنا فلا نملك إزاءه سوى الانفجار فى الضحك ، لكنها سرعان ما تسكن تماماً ، وكأن الريح قد ماتت فجأة ، وغابت الشمس ، فإذا بالسطح الفكاهى البراق يشف ويفقد لمعته لتتراءى لنا الأعماق المظلمة الحزينة .

ولعل عبقرية تشابل تتجلى أكثر ما تتجلى فى قدرته على تحقيق هذا المزيج الرائع بين الفكاهة المتوثبة الصاخبة والحزن الرقيق الشجى ، وفى توظيف الممارسات اليومية العادية والأحداث العابرة التافهة لطرح تأملات عميقة حول الموت والحياة ، وحول علاقة الإنسان بالله والكون والآخرين . ولعل هذا ما دفع الناقد الأدبى تشاك ساليفان إلى الكتابة عن الرواية فى صحيفة « تشارلوت أوبزرفر » قائلا :

« إن هذه الرواية تجعلنا نرى الحياة العميقة المتوهجة التى ترقد تحت سطح الحياة اليومية العادية . فاللغة هنا تتغنى بكل الأشياء القديمة ، المضيئة والمظلمة ، التى تشترك فيها الإنسانية جمعاء ، وتطرحها تحت أسماء جديدة لن ننساها أبدا » .

لكن الأحداث اليومية العادية فى هذه الرواية تتمتع بخصوصية واضحة تفرضها طبيعة المكان الذى تدور فيه والذى يستحيل أن نفصلها عنه ، ذلك

أنها فى الحقيقة التجسيد الحى المتحرك لطبيعة المكان وهويته من خلال الأشخاص الذين يضمهم محيطه .

إن المكان يحتل فى رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » نفس الأهمية التى يتمتع بها فى روايات مارك توين الذى كان من أوائل من أرسوا دعامة ما أصبح يعرف فيما بعد « بالرواية الإقليمية » [Regional Novel] - وهى الرواية التى تتخذ مادتها إقليما بعينه ، بكل ما يحفل به من سمات طبيعية ، جغرافية وتاريخية ، وتراث شعبى ، ونماذج بشرية ، وأنماط وممارسات اجتماعية وعقائد دينية ومعتقدات وراثية . ولقد تميز الإنتاج الأدبى للجنوب الأمريكى فى هذا المجال كما وكيفاً ، فبرزت أسماء وليام فوكنر (١٨٩٧ - ١٩٦٤) ، إلين جلاسجو (١٨٧٤ - ١٩٤٥) ، فلانارى أوكانار (١٩٢٥ - ١٩٦٤) ومن بعدهم إيودورا ويلتى ، وإيرسكين كالدول ، و روبرت بن وارين وغيرهم .

وينتمى تشابل بعمق إلى هذا التراث الروائى الجنوبى ، وإلى هذه الكوكبة من الروائيين المبدعين . فها هو الناقد الأدبى جورج كور يؤكد بثقة فى مقال نشر فى ملحق « عالم الكتب » لصحيفة « واشنطن بوست » أن رواية **أنا معكم إلى الأبد** « رواية جديرة بأن توضع جنبا إلى جنب مع روايات مارك توين ، ووليام فوكنر ، وإيودورا ويلتى » . وها هو الناقد توماس كارلسون يؤكد فى مجلة « ساذرن ماجازين » أن تشابل « يتمتع بمساحة شعورية ولغوية لا يضاهيها أحد من كتاب الجنوب الأحياء سوى إيودورا ويلتى » .

وتنقسم تجليات المكان فى رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » إلى نوعين : نوع يتصل اتصالاً حميما بالواقع ، يتجسد المكان فيه من خلال الوصف الواقعى التفصيلى الدقيق لأعمال المزرعة ، والأعمال المنزلية ، والمأكل وأنواع الأطعمة ومذاقها ، والملبس ، ووسائل الترفيه ، من رحلات صيد ، ونزهات فى الخلاء ، ومباريات فى لعبة البيسبول ، وأعياد ، وزيارات ، كما يتجسد أيضا فى وصف المكان - الحقول والجبال ، السهل والنهر والمدينة

المجاورة ، ودور العبادة ، وحانوت البقالة الذى يمد سكان المزرعة بما يحتاجون إليه ... إلخ . وفى ضوء هذا الوصف الحميمى المفصل للمكان تتبدى المدن البعيدة التى يرد ذكرها أحياناً ـ مثل لوس انجلوس أو سانت لويس ـ وكأنها مدن خرافية ، تفصلها عن المزرعة سنوات ضوئية ، فكأنها من خيال الرواة والشعراء .

أما النوع الثانى من تجليات المكان فيتجسد من خلال أهله ـ أى تلك الشخصيات الغريبة التى تنتثر فى أرجائه ، وتعبر مسار السرد سريعاً أحياناً ، لكنها لا تلبث أن تعود لتعترضه فيتوقف عندها ويدور حولها فتغدو موضوعه الآنى . فهناك فيرجيل كامبل ، صاحب حانوت البقالة ، والواعظ كانارى ، والحكيم البيطرى الدكتور ماكجريفى ، وفريق البيسبول التابع لكنيسة قوس قزح المعمدانية النورانية ، وصديقات الجدة ، والجدة نفسها ، وجون كلينشلى الذى يؤجر قوارب الصيد ، والفتاة لورى لى وأبوها المطحون . وتتسم هذه الشخصيات فى مجموعها بالطرافة ، وتحمل جميعها مسحة كاريكاتورية تتفاوت حدة وخفوتا ، وتشكل فيما بينها النسيج الشعورى واللغوى النابض للمكان ، وهو نسيج يتميز بالثراء والتنوع الشديدين ، فيجمع بين الفشل والإحباط ، اليأس والعزلة ، التفاهة والسطحية ، الأنانية وضيق الأفق ، القسوة والخشونة ، والتشدد الأخلاقى والتعصب الدينى .

ووسط هذا النسيج تبدو العلاقات الشعورية التى تربط أفراد عائلة الصبى / الراوى جيس فى المزرعة المنعزلة وكأنها واحة حب وسماحة وسط صحراء قاسية جافة ، أو كأنها تلك الدمعة البراقة التى تنحدر على خد الأم فى الفاصل التمهيدى المعنون « حين فاض الجدول » ، والتى يخال للصبى أنها تتسع لتصبح كرة شفافة دافئة تحتويهم جميعا داخلها .

وإلى جانب ساكنى المكان توجد مجموعة الزوار ، وهم من أقارب العائلة الذين يقطنون بعيدا فى تلك الأمكنة التى تبدو للصبى وكأنها تنتمى إلى عالم الحلم والخرافة . فهناك الخال لودن ، زئر النساء والسكير المغامر الذى يتسم بالكرم الدافق والتسامح ودفء المشاعر ، وهناك العم جيرتون النهم

الصامت ، صاحب اللحية الخرافية التى تغرق أمواج شعرها المكان ويخرج منها الحوت الأبيض ، وعروس البحر ، وأسماك القرش ، إلى جانب قارب من قوارب الهنود الحمر . وهناك العم رانكين الذى أفنى حياته فى صنع تابوت جميل ، فهو يعشق الموت ويهيم به ويعد لاستقباله وكأنه يستعد لزفافه ، بل إن نزهته المفضلة هى زيارة المقابر وقراءة شواهدها ، كما أن برنامجه الإذاعى المفضل هو برنامج دينى كئيب يدور حول الموت والفناء . وهناك أيضا العم زينو الذى يتدفق منه سيل من الحكايات يقصها بطريقة غريبة ، فقد يبدأها فى الوسط أو قرب النهاية ، ثم يعود إلى البداية ، وقد يتوقف فجأة دون سبب ويستأنف بعد ذلك أيضا فجأة ودون سبب . كما أنه لا يتورع عن الخروج من حكاية والدخول إلى أخرى ، أو التفرع فى روافد ومتاهات جانبية . ويكاد العم زينو أن يتحول فى نظر الصبى إلى صوت مجرد لا يحكى عما عرفه وخبره بنفسه ، بل ينطق بما تهمس به فى أذنيه أصوات خفية . وأخيراً هناك العمة سامانثا بيرفوت ـ المغنية الشعبية التى تعرف كيف تتقبل فواجع الحياة ، وتنجح فى الاحتفاظ بروحها المرحة وبراءتها ودفء مشاعرها رغم ما تعانيه من آلام .

ولا يكتفى تشابل بهذا الحفل المنوع من الشخصيات الغريبة ، بل يضيف إليها شخصيات من عالم الحيوان ، تقوم بدور البطولة فى قصص فرعية مثل الحصان الأسود الرهيب « إبليس » والكلب العجيب « إلمر » ، كما نلتقى أيضا فى مجرى السرد بشخصيات من عالم الأدب ترد فى شكل تيمات مساعدة مثل شخصية الشاعر اليونانى هوميروس ، وأبطال الإلياذة ـ هيلين وباريس وأجاممنون .

ولابد للقارىء أن يعجب الآن كيف يمكن لروائى أن يجمع كل هذه المادة فى عمل واحد ، وأن ينظمها فى تشكيل فنى يحقق درجة من الترابط العضوى والوحدة الفنية ! وللقارىء حقا أن يعجب ، فالمهمة تبدو صعبة ، بل مستحيلة ، لكن تشابل حققها بنجاح باهر ، فجاءت روايته تحمل طابع البساطة والتلقائية والعفوية ، رغم ما أسبغه عليها من عناية فى التشكيل .

ولقد كان تشابل حكيماً حين استلهم تشكيلة الفنى من روح مادته نفسها ، وهى المكان الذى ينتمى إليه ككاتب ، والذى اختاره بطلا لروايته - وهو ولاية نورث كارولينا . وتتميز هذه الولاية الجنوبية التى تقع بين نيويورك وفلوريدا على الساحل الشرقى بسلسلة من الجبال تحدها من الغرب . وتمثل هذه الجبال موطن أكبر تجمع للهنود الحمر فى أمريكا شرق نهر المسيسبى ، كما تمتلك ثقافة شعبية حية وارفة .

ولما كانت المزرعة التى تدور حولها الأحداث تقع وسط هذه الجبال ، فقد كان من الطبيعى أن يستلهم المؤلف ثقافتها الشعبية فى بحثه عن شكل ينتظم مادته . ولقد وجد تشابل فى نمط السرد الشعبى الشفاهى وملامحه ضالته المنشودة فتبناه فى عمله ، فإذا بنا أمام رواية تبدو للوهلة الأولى وكأنها مجموعة من القصص القصيرة ، لا يربطها بعضها بالبعض سوى صوت الراوى الواحد والشخصيات المتكررة . لكننا لا نلبث أن نكتشف أن الشكل الفنى هنا أكثر تعقيداً وتركيباً من هذا .

إن نسق السرد هنا يختلف عن نسق السرد الواقعى الذى يعتمد على الترابط السببى والتطور المنطقى والتوالى الزمنى فيسير فى خط مستقيم يحمل الحبكة من البداية إلى الوسط إلى النهاية وفق منطق السببية ، ومن خلال شخصيات واقعية لها دوافع مفهومة ومقبولة واقعيا . أما نسق السرد الشعبى فيعتمد على تحقيق التراكم الدلالى والشعورى من خلال التفرع والتكرار والقطع والوصل . ونلمس هذا الشكل الفنى السردى فى « **ألف ليلة وليلة** » التى استلهمها كاتبنا العظيم نجيب محفوظ فى بعض تجاربه الروائية فى المرحلة الأخيرة من تطوره مثل « **حكايات حارتنا** » ، التى تشبهها رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » فى نهجها السردى إلى حد كبير رغم اختلاف طبيعة المكان والمادة البشرية المستخدمة . وفى هذا النوع من السرد الذى يستلهم نمط الحكى الشعبى ، تتحقق الوحدة الفنية من خلال وعى الراوى فى تطوره ، ومن خلال العزف المتكرر على تيمات معينة ترد فى تنويعات مختلفة وسياقات سردية مختلفة داخل العمل فتحقق فيما بينها ما يشبه رجع الصدى . وقد تكون

هذه التيمات شخصيات أو أمكنة أو أحداثا أو كائنات غير آدمية أو خيالية أو صورا فنية .. إلى غير ذلك .

وتتبنى رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » هذا النمط السردى الشعبى الأصيل الذى نجده فى الأدب الشفاهى ، وتجعل الراوى صبيا مما يضفى على الرواية دلالة الرحلة المعرفية . أضف إلى ذلك أن اختيار وعى صبى صغير كمحيط للسرد يناسب تماما طبيعة المادة المختارة هنا ، خاصة إذا كان هذا الصبى يتمتع - مثل راوينا هنا - بالخيال الخصب ، وحب الاستطلاع والمغامرة والنهم إلى القراءة . فالمادة التى اختارها تشابل هى مكان يتميز بثقافة شعبية حية ، والأدب الشعبى - كما نعلم جميعا - يطرح صورة للعالم تشترك مع رؤية الطفل له فى جوانب عديدة ، ربما كان أهمها هو عدم وضوح الحدود الفاصلة بين الخيال وبين الواقع ، بين عالم الإنسان وبين عوالم الكائنات الأخرى المرئية أو غير المرئية . ففى عالم الطفل وعالم الحدوتة الشعبية يحيا الإنس جنبا إلى جنب مع الجن والملائكة ، والسحرة والمردة ، والطيور والحيوانات ، والأسماك وعرائس البحر . وفى عالم الطفل وعالم الحدوتة الشعبية تتواصل هذه الكائنات فى مجال واحد ، عبر لغة واحدة ، بل وقد تذوب بعضها فى البعض ، فيذوب الإنسان فى السمكة أو قد يتحول إلى ضفدعة أو طائر ، كما قد تنمو للحصان أجنحة .

وتتبنى « **أنا معكم إلى الأبد** » هذه الرؤية الطفولية الشعبية للعالم دون حرج أو تردد ، فنجد السرد يتحول فجأة عن مساره الواقعى لينحرف إلى مسار خرافى فيتضخم الواقع وتتغير ملامحه وأبعاده ، دون أن يعنى الكاتب بالتمييز بين الوهم والحقيقة . ففى الفصل المعنون « حين تغير القلب » يتعرض الصبى / الراوى مع أبيه ورفيقهما جونسون لعاصفة هائلة لا تلبث أن تنبلج من ثناياها رؤيا ، وذلك حين تشق سهام البرق الحادة بطن السماء فتمزق حجب الغيب وتكشف وجه الله . ولا يترك المؤلف القارىء وحده أمام التجربة ليختار أن يصدقها أم يعتبرها خيالات صبى أرعبته العاصفة ، بل يسهم فى إذكاء حيرته من خلال بعض التفاصيل الصغيرة الماكرة ، وذلك حتى يدفعه إلى اعتناق منظور الأدب الشعبى والمنظور الطفولى اللذين يمزجان الواقع

بالخيال . ومنطق الكاتب فى هذا هو : إذا كنا سنرى العالم من خلال عيون طفل ، فعلينا أن ننسى منطقنا الواقعى ، ونتبنى منطقه الخاص الذى يقترب كثيرا من منطق الحدوتة الشعبية . ويتكرر نفس الشىء فى الفصل المعنون « اللحية » ، فالطفل يرى اللحية تتحول إلى كيان خرافى وهو فى صحبة أبيه ، بل ويسمع (ونسمع معه) أباه يعترف بأنه يرى ما يراه . وحين يهربان من مطاردة اللحية الهادرة إلى خارج الدار ، يفاجآن بالجدة تقف وحيدة فى الفناء المكشوف . وحين تعاتبهما على التعدى على حرمة اللحية وقدسيتها يضع تشابل فجأة على لسان الأب رداً فكاهيا يجعلنا فى حيرة من أمرنا - أكانت الحادثة وهما أم حقيقة ؟

وأمام هذه الحيرة ، بل ومن باطنها ، يتولد البعد الرمزى للعمل . فالقارىء يلجأ إلى التفسير الرمزى حين يفشل التفسير الواقعى ، وحين يفشل فى التعامل مع المادة المطروحة باعتبارها واقعاً خالصاً أو خيالاً خالصاً . وهكذا تتحول الفانتازيا إلى طاقة رمزية .

ولعل أبرز مثال على هذا التحول يرد فى الفاصل المعنون « البرقية » ، إذ نجد هنا وصفاً تفصيلياً واقعياً دقيقاً لمحاولات كل فرد من أفراد الأسرة التخلص من البرقية اللعينة التى تحمل نبأ موت جونسون . لكن كل محاولة تبوء بالفشل وتنتهى بعودة البرقية سليمة معافاة إلى مكانها وسط مائدة الطعام ، وكأن أحداً لم يمسسها . ويفضى هذا التناقض بين الوصف الواقعى الدقيق للأحداث ، وبين نتائجها الخرافية ، إلى حل التناقض على مستوى الرمز الذى يصبح المستوى الوحيد الممكن للفهم والتفسير . ولعلنى لم أقرأ من قبل - على كثرة ما قرأت - تجسيدا لهول مشاعر الفقدان أشد وطأة على القلب من فاصل « البرقية » هذا .

ولقد أطلق النقاد على أسلوب مزج الواقع بالخرافة فى رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » وصف « الواقعية السحرية » الذى ظهر على الساحة النقدية حديثاً تحت تأثير بعض كتاب أمريكا اللاتينية ، وعلى رأسهم جارثيا ماركيز (وإن كان المخرج المسرحى الروسى فاختانجوف قد استخدم مصطلح « الواقعية

الخيالية » فى وصف أسلوبه قبل ذلك بسنوات طويلة) . ففى مقال نشرته مجلة « نيوزويك » تقول الناقدة الأدبية جين لايونز :

« لقد أبدع تشابل ضرباً من الواقعية السحرية ، ثم قام بعزفه على أوتار الكمان ، فجاءت ألحانه فكهة حينا ، آسية حينا ، تمتلىء بالتحولات والمفاجآت على طول الرواية » . ويردد الناقد الأدبى لصحيفة « بابليشرز ويكلى » نفس الرأى فى عبارة أكثر بساطة حين يصف تشابل بأنه :

« راو ماهر يتمتع بموهبة اختلاق حكايات تتأرجح فى أحيان كثيرة على حافة الأكاذيب والاختلاقات التى لا تصدق ، فكأنه قد اتخذ طبيعة التأليف الروائى نفسها موضوعه ، وانخرط فى تأملها أمامنا لاختبار حدود قدرة القارىء على التصديق » .

ويعلق توماس كارلسون فى مجلة « ساذرن ماجازين » على هذا الملمح أيضا قائلاً : « إن رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » تقيم توازنا دقيقاً حساساً بين الحقائق المادية والمبالغات الخيالية العنيفة » .

لكن الواقع والخيال فى الرواية يلتقيان دائما ، ويتصالحان حين يوضعان فى سياق تأمل علاقة الموت بالحياة ، وهى العلاقة المحورية فى العمل ، التى تنظم جزئياته . فالرواية تجسد لنا ، فى سلسلة متفرعة متداخلة ، صوراً من الحياة تتنوع ما بين الفكاهة والشجن ، والغرابة والألفة ، والسمة الغنائية والسمة الدرامية . لكن هذه الصور تبدو وكأنها تدور فى دوامة على السطح تتوسط مركزها فى القاع مأساة الموت المنتظر - التى تتجسد هنا فى موت جونسون الذى يظل يلح علينا مهما توالت الصور وتعاقبت .

إن جدلية الواقع / الخيال التى يتولد منها نسيج السرد وبناؤه هى الوجه الآخر لجدلية الحياة / الموت التى يتولد منها معناه الكلى . وتتوحد الجدليتان فى ثنائية أو مفارقة الحضور / الغياب . ففى الحياة حضور وغياب ، وكذلك فى الموت ، وفى الخيال حضور وغياب ، وكذلك فى الواقع . ومع هذه المفارقة المؤلمة المحيرة علينا أن نحيا نحن البشر .

لا عجب إذن أن تنتهى الرواية برؤيا غامضة رمزية نشاهد فيها جونسون الذى مات يقف على باب كوخ من أكواخ الصيد أعلى الجبال ، بينما يجلس الصبى / الراوى جيس داخله - ويطلب جونسون من الصبى الخروج ليكون معهم . وخارج الكوخ يلتهب الجليد تحت الشمس الساطعة . وحين يرفع الصبى عينيه فى ظلال الكوخ يرى جونسون وقد حوله الضوء خلفه إلى سيلويت - إلى ظل أسود تلمع وسطه عيناه الزرقاوان وقد توهجتا . أيدعو جونسون صديقه الصغير إلى الموت أم إلى الحياة ؟ إلى الشمس أم الجليد ؟ أم أن الموت والحياة ليسا سوى وجهين لعملة واحدة ؟

تكثر الأسئلة وتتوالى ولا تبقى من إجابة سوى المفارقة التى علينا أن نحيا معها .

وإذا كان هذا هو قدر الإنسان وشجنه الدائم ، أليس هذا أدعى إلى التسامح والغفران بين البشر ؟ ألا يدعونا هذا إلى أن ننعم بدفء الصحبة مادامت قبل أن يدهمنا الفقدان بكل ما يحمله من ألم غياب الملموس وشجن حضور الذكرى ؟

إن هذه المفارقة الوجودية التى يتولد منها النص وتتجسد فى نهج الواقعية السحرية قد تفسر لنا غلالة الشجن الشفافة الحنونة التى تلف هذه الرواية ، رغم فكاهتها الصاخبة أحياناً ، الهادئة أحياناً ، بل وقد تفسر لنا عنوانها أيضا الذى يمثل بمنطق الواقع قولاً مستحيلاً . فمن ذا الذى يستطيع أن يعد أحبابه بأن يكون معهم إلى الأبد ؟

ويتجلى استلهام فريد تشابل للأدب الشعبى فى أوضح صورة فى سمة « الشفاهية » التى تطبع الرواية كلها . فالسرد هنا يتقلص إلى درجة كبيرة ليحل محله الصوت المسموع - أى الأصوات التى تأتينا مباشرة من أفواه أصحابها حاملة قاموسها اللغوى الخاص ، وطريقتها فى نطق الكلمات ، ونبرتها المتفردة ، ولهجتها المحلية ، فترسم لنا بوضوح يعجز عنه الوصف السردى ملامح أصحابها النفسية ، وثقافتهم ، ودرجة حساسيتهم ونوعيتها ، وتحمل آثارا من خبرتهم وتاريخهم ، بل والأمكنة التى يحيون فيها .

ولا تقتصر الأصوات المسموعة هنا على الشخصيات التى يحكى عنها الراوى . بل إن الراوى نفسه لا يتخفى وراء نسيجه السردى ، بل يطرح نفسه كصوت وسط « كورس » من الأصوات من خلال صيغة ضمير المتكلم ، ويشتبك فى حوارات مع الشخصيات ، ويطرح أمامنا الأحداث بصورة حية مباشرة دون وساطة أو تدخل منه إلا فى أضيق الحدود . وحين تشرع شخصية فى الحديث يلزم الصمت ليشاركنا الاستماع .

ولعلنى لا أبالغ إذا قلت إننا فى حالة « **أنا معكم إلى الأبد** » لا نكاد نقرأ رواية - رغم الصفحات المطبوعة - بل نستمع إلى أصوات تحدثنا وكأنها حاضرة بيننا ، أو كأننا نحن قد دلفنا إلى داخل الرواية ، مما يكسب الرواية طابعا دراميا مسرحيا واضحا ، ويجعل الأحداث والشخصيات تتميز بالحضور القوى المجسم . ولعل ما يسهم فى خلق هذا الانطباع هو اختلاف لغة كل شخصية عن غيرها بحيث يستطيع القارىء أن يميز شخصية المتحدث حين يقرأ كلامه - أو يسمعه بمعنى أحرى - حتى وإن أخفينا اسم المتحدث عنه .

ولعل تكنيك السرد هذا عبر أصوات منوعة هو السبب الرئيسى فيما تتمتع به الرواية من تركيز وكثافة واقتصاد لغوى . فحديث الشخصية إلينا يغنى المؤلف عن وصفها إلا فى لمسات سريعة قليلة ، كما يغنيه أيضاً عن محاولة تفسير مشاعرها - مما يوفر مساحات لغوية شاسعة . وربما لهذا السبب جاءت شخصية العم جيرتون الصامتة أكثر الشخصيات غموضاً فى الرواية . فالصوت فى هذه الرواية هو مدخلنا إلى الشخصية ، بل ومدخل الراوى أيضا . فالراوى صبى يستكشف العالم والبشر من حوله عن طريق عينيه وأذنيه ، وهو يشركنا فى كل ما يرى ويسمع . فإذا رفضت إحدى الشخصيات الحديث باتت بالنسبة له ولنا سراً ملغزاً . لكن صمت العم جيرتون مقصود هنا . فهو شخصية تنتمى إلى عالم الفانتازيا والأسطورة أكثر مما تنتمى إلى عالم الواقع ، كما أن صمته يلفه بهالة من الغموض تمهد دراميا لمفاجأة اكتشاف اللحية العجيبة . ولا يفوتنا هنا أن نلحظ التقابل الممتع الدال بين شخصية العم جيرتون الصامتة وبين شخصية العم زينو التى لا تكف عن سرد

الحكايات . ولكن التناقض الظاهرى الحاد بينهما يخفى خلفه تشابها عميقا يجعلهما وجهين لعملة واحدة . فكلاهما يكاد ألا يمتلك وجودا ماديا محسوسا إلا فى جانب واحد فقط : اللحية فى حالة العم جيرتون ، والصوت فى حالة العم زينو . فالعم جيرتون يكاد يتلاشى فى لحيته ، والعم زينو يكاد يذوب فى صوته حتى لا يكاد الصبى يتذكر منه شيئاً - كما يقول - سوى أسورة قميصه المهترئة . ولعلنا لا نجانب الصواب إذا رأينا فى لحية العم جيرتون تجسيدا استعاريا لصوت العم زينو الذى لا ينقطع عن السرد . فاللحية حين تتمدد ، وتصعد أمواج شعرها الهائلة إلى سقف الحجرة ، تكشف صوراً ومشاهد من حكايات قديمة لا تقل غرابة عن حكايات العم زينو ، مما يجعلها أشبه بالراوى ، أو بنهر الحكايات الشعبية الممتدة عبر التاريخ ، وهى إذ تتلوى وتتفرع ثم تتجمع إنما تجسد لنا فى حركتها نمط السرد الشفاهى الشعبى الذى يحاكيه العم زينو . ومن التفاصيل الصغيرة الدالة التى تؤكد هذا التفسير أن الهنود الحمر الوحيدين الذين نراهم فى هذه الرواية يردون عبر حكاية العم زينو ، وفى صورة اثنين منهما يركبان قاربا يسبح فوق أمواج لحية العم جيرتون .

وإذا كان النسيج الشعورى للرواية يمتد ما بين قطبين ، أحدهما المأساة الموجعة ، والآخر الملهاة الفاقعة ، فإن اللغة أيضاً تجمع فى سهولة ويسر بين اللغة الشعرية الحساسة ، التى تنبض بالصور وبدفقات من الموسيقى تعبر عما يجيش بالنفس من أحاسيس مفهومة ومشاعر غامضة من ناحية ، وبين اللغة الغارقة فى المحلية ، التى نكاد نسمعها لفرط واقعيتها من ناحية أخرى . وعن طريق هذا الجمع بين مستويات لغوية متباينة تمكن الكاتب من تحقيق أسلوب « الواقعية السحرية » دون أن يضحى بصدق الشخصيات وواقعيتها المقنعة .

ولقد لفتت قدرة تشابل على تجسيد الشخصيات الروائية تجسيدا باهرا ، رغم اقتصاده اللغوى ، انتباه النقاد ، فوجدنا دافيد جاى يعلن فى ملحق الكتب لصحيفة « نيويورك تايمز » أن « تشابل يكتب باقتصاد مذهل ، ويجرى على ألسنة شخصياته حوارا واقعيا صادقا تماما من حيث النبرة واللهجة والمفردات ، ويصفها بوضوح رائع ودقة متناهية » . ويؤمن ناقد صحيفة

« سوانى ريفيو » على هذا الرأى إذ يقول : « تمضى أحداث الرواية وفق إيقاع متناسق جميل ، وتمثل سمة الاقتصاد اللغوى إحدى فضائلها العديدة . وينجح المؤلف فى إعطاء كل شخصية صوتها المتفرد ، فاللغة هنا ، وخاصة الكلمة المنطوقة ، تتجلى فى أبهى صورها . إن رواية « **أنا معكم إلى الأبد** » رواية لا يكتفى القارىء بمطالعتها مرة واحدة ، بل يعود إليها بعد الانتهاء منها ليستمتع بفكاهاتها الصاخبة ، وطاقتها الشعرية ، وتناولها الدقيق الناعم لموضوع الولوج إلى عالم التجربة ، ولقدرتها الفذة على استحضار المكان » .

لقد خلد فريد تشابل ولاية نورث كارولينا حيث ولد ونما ، وعمل مدرساً للأدب الانجليزى بجامعتها فى مدينة جرينزبارا سنوات طويلة . وفيها ازدهرت موهبته الأدبية فأبدع خمس روايات - إلى جانب روايتنا هذه - ومجموعة من القصص القصيرة ، وعدداً كبيراً من الدواوين الشعرية التى نال عنها جائزة بولينجن فى الشعر ، كما حصل على جائزة الإبداع الأدبى من المعهد القومى للفنون والآداب .

ويطول الحديث عن فريد تشابل وإبداعه ، لكن المجال يضيق . فليستمتع القارىء إذن بحديث تشابل نفسه ، وحديث شخصياته التى أظن أنها سوف تبقى معنا إلى الأبد .

نهـــاد صليحـــة
القاهرة ١٩٩٤



حين فاض الجدول

وحدث مرة أن انتقلنا لفترة وجيزة من بيت جدتى الكبير ، المبنى بالطوب الأحمر ، لنعيش فى بيت صغير بديع من طابقين ، لونه أبيض وتزينه بلاطات صغيرة من الخشب الأخضر ، ويقع فى المنخفض أسفل التل الذى يعلوه بيت جدتى .

كان يبدو من طابقين إذا نظرت إليه من المدخل الأمامى . أما من الخلف فكان يبدو من ثلاثة طوابق ، إذ كان يظهر من هذه الزاوية طابقه الأرضى ، وكان عبارة عن جراج مستطيل منخفض عن سطح الأرض .

كانت التلال تحيط بالمنزل شمالا وشرقا وجنوبا ، وتطل عليه من أعلى مباشرة مزرعة العائلة ومعها بيت الجدة . وخلف التل الجنوبى بميلين تقع مدينة تبتون حيث مصانع شركة تشالنجر للورق ، ومصانع مؤسسة فايبر للألياف الصناعية ، وكانت هذه المصانع تنفث دخانها دون توقف ، وتنشره فى غلالة سوداء تلف جبل كارولينا وتطمس ملامحه لعدة أميال .

وفى الفضاء المجاور للمنزل ينساب جدول ينبع من التلال الشرقية ، تتحكم فى تدفق مياهه وحجمها مصانع شركة تشالنجر التى بنت خزانا للماء فوق التلال ، وأحكمت ضبط تدفق المياه فى الجدول عن طريق قناة صرف مغطاة تتخلص من الماء الزائد .

فى تلك الفترة كانت أمى فى زيارة لأخيها فى كاليفورنيا ، فقد كان خالى لودن يمر بواحدة من أزماته العديدة مع النساء ، وكانت ورطته هذه المرة مع

إمرأة مختلفة تماما عن سابقاتها . ربما استطاعت أمي مساعدته ، هكذا قال ، ولن يكلفها الأمر سوى رحلة قصيرة تقطع فيها بالقطار خمسة آلاف ميل إيابا وذهابا !

وعلى هذا ، وجدنا أنفسنا ، أنا وأبى ، مضطرين إلى تدبير شئوننا بقدر ما نستطيع ، وإلى الاعتماد على أنفسنا رغم قلة خبرتنا بهذه الأمور .

كانت تجربة مثيرة رغم المهمات والأعمال الإضافية .. توطدت أواصر الصداقة بيننا ونحت منحى جديدا جعلنا أشبه بشريكين فى مؤامرة لا تحمل أخطارا جسيمة . نما بيننا قاموس من الإشارات الخاصة ، والتقينا على أرض محايدة جديدة تقع فى منتصف الطريق ما بين صباى الغض ، وروح الصبا الكامنة فيه .. أحسست وقتها بنشوة أدارت رأسى ، وكأننى ارتقيت فجأة إلى مرتبة أعلى .. لم نكن ماهرين فى إدارة شئون المنزل ، وكم من أحداث مؤسفة عارضة مرت بنا ، وكان تعليقنا المتكرر عليها ، الذى توصلنا إليه بعد فترة قصيرة ، هو : « لا داعى لأن نخبر ماما بهذا الأمر » . كم أحببت هذه الفكرة !

كان أبى يفكر طوال الوقت فى مشاريع من شأنها أن تدخل السرور على قلب أمى ، وأثناء غيابها خطرت له فكرة شديدة الطموح .

كان على الجانب الآخر من الجدول ، الذى تحف شاطئيه صفوف من أشجار الصفصاف العالية ، نصف فدان من الأرض البور ، يعدها الجميع غير صالحة للزراعة بسبب كثرة المستنقعات فيها ، وكتلة متشابكة من عروش التوت الأسود تقبع فى ركنها الجنوبى .. خطر لأبى آنذاك أن يحيل هذه البقعة إلى حديقة ، وأن يغرس زروعها قبل عودة أمى .

كان كفاحا بطوليا .. وكم أشعر بالمتعة الآن حين أتذكر تدمير دغل التوت العنيد ، وشق قناة الصرف التى حرصنا أن تجىء مستقيمة مشذبة الحواف وسط الحقل . كانت التربة شديدة الرخاوة فكان يكفى أن نغرس فيها الجاروف لنخرج بكتل مربعة من الطين العميق الزرقة ، نرصها جنبا إلى

جنب . كانت تبرق فى الضوء ، وكأنها مربعات من البلاط اللامع .. استغرق حفر قناة الصرف ثلاثة عصارى ، وحين انتهينا منها، أحضر أبى منجله الضخم الثقيل ، وأخذ فى شحذ نصله حتى كدت أسمعه يئز أزيزا حادا حين أجراه على إبهامه ليختبر حدته . بعدها خطا إلى داخل الدغل الشوكى الملتف ومضى يضرب فروعه بالمنجل يمينا ويسارا . مر وقت طويل دون أن يحدث شىء ، ولكن أخيرا بدأ الدغل يتهاوى تحت وطأة الضربات المتلاحقة ، واشتبكت العروش المتساقطة على الأرض فى تكوينات ملتفة معقدة أشبه ما تكون بحروف كتبت بخط بدائى ، وانهمكت أنا فى تحريك هذه الكتل المتداخلة بالشوكة ، وزحزحتها لأجمعها فى كومة . أما أمتع اللحظات فكانت لحظة إضرام النار فى الكومة .. ارتفعت ألسنة اللهب الصفراء صافية ، وأزت الفروع والأشواك وطقطقت .. وارتفعت سحب خفيفة من الدخان الأسود فوق أشجار الصفصاف التى اكتست خضرة جديدة زاهية ، وتعبق الجو برائحة لذيذة رائعة .. ما كان أحلاها .

بعد ذلك أعددنا الأرض بالطريقة المعتادة وغرسنا البذور ، وحين انتهينا وقفنا على حافة حديقتنا الجديدة وقد فاض بنا الزهو والتعب ، نتأمل بإعجاب وفخر الخطوط المستقيمة التى حفرناها ، وأكوام التربة التى صففناها .

لم يكن إعداد الحديقة رغم العناء والمشقة سوى جزء من المشروع الذى دبره أبى ، فقد كانت مجرد حديقة لزراعة الخضر مثل الحديقة التى اعتدنا زراعتها كل عام . كان أبى يريد شيئا آخر .. شيئا جميلا أنيقا فى تصميمه : شيئا لابد وأن يدخل السرور إلى نفس أية امرأة رقيقة مهذبة .

استمر الجو صحوا فاستأنفنا العمل فى اليوم التالى ، وأحضرنا من أحد الأجران حملين من الأخشاب القديمة .. وانهمك أبى فى أخذ مقاييسها ونشرها وتنعيمها ، وهو يغمغم ويصفر ألحانا ، بينما قضيت أنا معظم الوقت أحملق فيه إلا حين كان يطلب منى أن أحمل شيئا ، أو أحضر شيئا فأندفع هنا وهناك ملبيا طلباته . كنت فى حيرة من الأمر فقد رفض أبى تماما ـ كما توقعت ـ أن يخبرنى بسر ما يبنيه .

اتضح الأمر فى اليوم التالى . كنا بصدد بناء جسر - جسر صغير معقد التفاصيل لنضعه فوق الجدول الصغير الذى يفصل الفناء المجاور لمنزلنا عن الحديقة التى زرعناها - فوق ذلك الجدول الضيق الذى يمكن لطفل مثلى أن يعبره بخطوة واحدة دون أن يضطر لمد ساقيه أكثر من المعتاد ! كان التصميم طموحا ، فقد صمم أبى جسرا منحنيا على شكل القوس ، يحفه سور على الجانبين ، ويزينه على الجانب المفضى إلى الحديقة قوس شبكى تتوسطه بوابة من الأعمدة الخشبية الرفيعة .

كان أبى ولاشك ماهرا فى النجارة ، فقد بدا لى الجسر حين اكتمل رائعا حقا .. كنا قد حفرنا عميقا على جانبى الجدول لإرساء دعامات الجسر المصنوعة من خشب شجر الخروب ، وحين انتهينا بدا القوس المعلق فوق الجدول ، على انخفاضه ، وكأنه قوس قزح . حين ذرعته جيئة وذهابا سمعت وقع خطواتى ، وأحسست بها وكأنها دقات طبول تبعث الرضا فى النفس ، وأصدرت سقاطة البوابة الصغيرة وهى تنزلق فى موضعها صوتا قويا مطمئنا ، كما جعلنى القوس الذى يعلوها - والمكون من شرائط رفيعة قديمة من الجبس والخشب ثبتت معا - جعلنى هذا القوس أشعر وكأننى بعبورى للجسر قد دلفت إلى عالم مختلف تماما ، وليس إلى مجرد حديقة .

أما أبى فكان لديه المزيد من الخطط لتزيين القوس الشبكى . قال : « هنا ، وهنا أيضا سأزرع شجيرات من الورد الأصفر والوردى الذى له رائحة الشاى ، وسوف تتسلق الورود النسيج الخشبى وتلتف حوله . حينئذ ، ستدرك ما أعنيه » .

طلينا الجسر بالجير المائى ثلاث مرات ، فاكتسى الخشب الخام لمعة وضاءة .. مشينا أعلى الجدول نحو المنبع إلى الطريق الذى يطل على فناء منزلنا الجانبى وتأملنا الجسر من هذه الناحية ، ثم مشينا فى اتجاه تدفق المجرى إلى حافة الحديقة وتأملناه من الناحية الأخرى . وفى كل من الحالتين كان كل ما رأيناه يملؤنا بالزهو والفخار .

انطلق أبى بسيارته البونتياك القديمة ، وعاد بعد نصف ساعة .. أوقف

السيارة فى الممر أمام الباب وخرج ـ نادانى : « تعال هنا » ـ جلسنا معا وسط الحشائش التى تعلو كتف قناة الصرف على حافة الطريق . قال : « ذهبت إلى المتجر » ثم أخرج من جيبه كيسا من الورق البنى وجدت بداخله عشر قطع من الشيكولاتة بالنعناع ، فى شكل وحجم الكستبان ، وهى أحب أنواع الشيكولاتة لدى . ثم أخرج من جيب آخر شريطا ملفوفا من الحرير الأحمر الزاهى .

قلت : « شكرا ، ولكن ما هذا ؟ »

قال : « نحن نريدها أن تعلم أن هذا الجسر هدية . أليس كذلك ؟ لذا علينا أن نربط حوله شريطا . سنضعه فى مكان بارز ، فى منتصف السور بالضبط » .

ثم حل ياردتين من الشريط الملفوف وفصلهما بمطواة جيبه . قال : « يجب أن تكون الفيونكة كبيرة حتى تراها من هنا .. من الطريق » .

مضغت قطعة من الشيكولاتة بالنعناع وأنا أراقب أصابعه الخشنة تحاور الحرير الأحمر .

ولم يكتب للحوار النجاح . كنت مقتنعا تماما بأن أبى يستطيع أن يصمم وأن يبنى أى شىء يريد ـ سواء كان جسر بروكلين أو حتى تاج محل . ورغم ذلك فقد فشل تماما فى صنع فيونكة من هذا الشريط العريض . تكرمش الحرير وتعقد بين أصابعه ، ثم انحل وانزلق .. رفض تماما أن ينصاع لإرادته . زمجر أبى فى نبرات خافتة ، وكأنه دب يحاول أن ينتزع حيوانا بريا من جحره ـ قال : « لقد احترت فى أمر هذا الشىء » .

فجأة دمدم صوت آخر طغى على غمغمته الخافتة ، صوت يشبه انزلاق كومة من الحصى فى بركة عريضة من الماء الساكن . سألته : « ما هذا ؟ »

قال : « ماذا ؟ »

قلت : « هذا الصوت ؟ »

توقف عن إتلاف الشريط وجلس ساكنا دون حراك بينما أخذ الصوت

يعلو . ثم اسود وجهه ونفرت العروق فى جبينه وعنقه وقال ، وقد غدا صوته هادئا خاليا من التعبير : « هؤلاء الملاعين ! أولاد الحرام ! »

قلت : « من ؟ »

قال : « رجال شركة تشالنجر للورق . لقد فتحوا أبواب قناة الصرف » .

هرولنا على عجل إلى قمة كتف قناة الصرف ومنها إلى الطريق . وإذ أخذ الصوت فى العلو والارتفاع تحلل إلى مجموعة من الأصوات المختلفة - أصوات أمواج تلعق الشطآن ، وأصوات بقللة وفوران وأصوات أمواج ترتطم وتفيض وتكتسح وتدمر ، أو تغيض فى دوامات تمتصها إلى الأعماق . ما كدنا نلمح طوفان المياه الرمادية البنية يندفع من تحت أغصان شجرة البرقوق العالية فوق التل حتى شعرنا بالأرض تهتز تحتنا ، إذ اصطدمت المياه بكتف قناة الصرف وقفزت فوقها ثم انحسرت عنها . ومن فوهة قناة الصرف اندفع الماء فى اتجاه فناء المنزل الجانبى ، وكأن خرطوما قد صوب عليه . فى لحظات قليلة أغرقت المياه ضفاف الجدول المنخفضة وفاضت على جانبيه وانسابت بلونها الرمادى المخضر إلى حافة الفناء لتفرش دوائر من الزبد الأبيض حول جذوع أشجار الصفصاف . وعلى سطح الماء طفا الحطام - أغصان ، وأعواد ، وأوراق أشجار ، وحشائش تخضبت باللون الأسود ، وأخذت تلف وتدور حول نفسها ، ومن جوف قناة الصرف انبعثت حشرجة وكأنها تختنق بالزلط المتدحرج داخلها .

تلوث جسرنا الأبيض الوضاء بالطين والحشائش اللزجة .. وارتفع الماء الرمادى المندفع نحوه ذراعا فى الهواء ، ثم هوى فى لطمة قاسية . وقفنا - أبى وأنا - نشاهد تدمير عملنا أمام أعيننا على هذا النحو الفظيع ، وقد وضعنا أيدينا فى جيوبنا . كان لايزال ممسكا بالشريط الأحمر الذى انساب من داخل جيبه على رجل سرواله . ارتعش الجسر الصغير وبدأ يهتز . ثم جاءت لحظة سكن فيها تماما ، وبدا وكأنه استعاد تصميمه واستجمع عزيمته وقرر أن يجابه العدوان .

بعدها رأيناه يقتلع نفسه بعنف من دعائمه الخشبية جهة فناء المنزل ، وحين اندفع هذا الجانب في مجرى المياه انخلع الجانب الآخر أيضا ، وللحظة قصيرة لمحنا الجسر على صفحة الماء وقد أستوى جانباه فبدا كقارب عجيب ، ورأينا أبعد بقعة طالها الفيضان من خلال قوسه المزخرف الذى أحاط بها كإطار صورة . بعد ذلك أخذ الجسر يلف ويدور في المجرى ، واشتبكت أركانه بالضفتين فأنقلب على جنبه رافعا ومبرزا الجانب السفلى العارى لألواحه ، التى بدت كباب جرن صفقته الريح . تجمع الماء في البداية خلف هذا السد الجديد ، لكنه ما لبث أن تدفق من فوقه ومن حوله ، وأخذ يلتهم حواف الحديقة والعشب الأخضر فى الفناء .

ظل أبى يردد : « ملاعين ، ملاعين ، ملاعين . هذا ضد القانون . ليس من حقهم أن يفعلوا هذا » ، ثم لزم الصمت .

لا أدرى كم من الوقت مضى ونحن نحملق فى اتجاه مجرى الجدول قبل أن ننتبه إلى وصول أمى . حين لمحناها كانت قد برحت السيارة الأجرة التى وقفت متكاسلة متلكئة فى الطريق .. بدا مظهر أمى غريبا فى عينى ، فقد كانت ترتدى ثوبا لم أره من قبل ، وارتسم على وجهها للحظة تعبير غريب جمع بين الشعور بالغيظ والشعور بالفكاهة .. نظرت إلينا وكأنها ضبطتنا متلبسين بفعل أحمق لا يليق .

التفت أبى إليها وحاول الكلام فلم تخرج من بين شفتيه سوى كلمة واحدة : « ملاعين » . اختنق صوته واندفع الدم إلى وجهه وعنقه مرة أخرى ، فصبغهما بلون داكن . أشار بيده إلى الجسر الغارق فى الماء والطين ، ورفرف الشريط الأحمر بين أصابعه .

نظرت أمى إلى حيث أشار وأنا أرقبها فرأيت دلائل الفهم تشرق فى وجهها شيئا فشيئا ، وحين استدارت لتواجهنا كان وجهها ينضح بالألم . التمعت دمعة وحيدة على خدها ، بدت كقطرة من الفضة فى الضوء البهيج الذى يصاحب انتصاف العصر واقتراب المغيب .

هوت ذراع أبى إلى جانبه ، ورفرف الشريط الأحمر المتعلق بيده ثم حط وانزلق فوق الطين .

أخذت الدمعة على خد أمى تكبر وتكبر ، ثم انفصلت عن وجهها وتحولت إلى كرة كبيرة شفافة براقة ، ظلت تتسع وتتمدد مثل بالون يمتلىء بالهواء . تعلقت الدمعة فى البداية طافية فى الهواء بينهما لكنها ما لبثت أن تمددت لتحتويهما معا داخلها . تعلقا هناك ساكنين منفصلين ، ثم رأيتهما ينجرفان حثيثا كل نحو الآخر . ثم نظرت أمى إلىّ من فوق كتف أبى ، عبر غشاء الدمعة البراق ، فأخذت الدمعة تتسع وتكبر حتى احتوتنى أنا أيضا فى النهاية .. هناك امتزج الدفء بمذاق الملح ، وما أن تعودت على الضوء الغريب داخلها حتى بدأت أسبح فى تعثر نحوهما .

الأيام الحلوة

حين قابل أبى جونسون جيبس لأول مرة ، اشتبكا فى عراك عنيف وكأنهما ذكران من القطط . كان ذلك عام ١٩٤٠ حين كان أبى لا يزال سريع الانفعال والغضب . كان عمره ثلاثين عاما ، وكان قلقا وربما جامحا بعض الشىء رغم القيود التى كبلته بها أسرة أمى . والحق أنه لم يتزوج أمى فقط ، بل تزوج أيضا جدتى وكذلك الجحش والحصانين المسنين والأبقار والدواجن ، والجرنين المتداعيين ، وكل المزرعة الواقعة على جبل كارولينا والتى تبلغ مساحتها مائة فدان من الأراضى الصخرية .

كان حجم العمل وحده رهيبا . ولنأخذ الذرة على سبيل المثال .. ثلاثة حقول شاسعة تمتد فى الأراضى المنخفضة على جانبى مجرى تريفيت كريك فى اتجاه جبل إمبر ماونتين . كانت تمتد على مرمى البصر دون أن تدرك العين نهايتها ، حتى لو وقف المرء على الطريق المطل عليها أعلى التل .

كانت دلائل العمل الشاق المضنى تنتشر فى كل مكان فى الجرنين : فئوس قديمة تكسرت مقابضها أو بلى خشبها وتشقق ، تشبه نصولها المستديرة الكعكات الصغيرة . جذب أبى واحدة من أحد الأركان ليريها لى .. كان حجم النصل لا يزيد على حجم غطاء برطمان صغير .. قال : « أرأيت هذا ؟ أتظن أن جدتك قد حصلت على عائد من هذا الشىء يساوى ما دفعته فيه ؟ » ثم طوح الفأس جانبا فى اشمئزاز فطارت واصطدمت بأعمدة رفوف التبغ ، وأحدثت جلبة أفزعت العصافير المعششة فى الجزء البارز من سقف الجرن وبعثرتها ..

لكن عزق الأرض الذى كان عبئا يكاد يقتلنا ضجرا لم يكن يمثل شيئا بالنسبة لجدتى . كنا ثلاثتنا نبدأ فى عزق الأرض فى خطوط متوازية جنبا إلى جنب فى نفس الوقت .. كنت فى العاشرة وقتها ، ولذا سرعان ما كانا يتقدماننى .. ولكن خلال عشر دقائق كانت جدتى تسبق والدى ، وبعد نصف ساعة تكون قد أتمت عزق خطها الأول بل ولحقت به عائدة من الناحية الأخرى وهى تعزق خطا جديدا ، وتقوق مثل دجاجة كبيرة وتقول : « يحسن بكما الانتهاء سريعا يا أولاد . من يدرى .. ربما أمطرت بعد قليل » .

كان أبى يحملق فيها غير مصدق ، ثم يستند على فأسه حتى تمضى ، ثم يضرب الأرض بوحشية مطوحا فأسه فى الهواء ، وكأنه فارس وحيد يصد جيشا من الأعداء .

ولكن رغم كل هذا العمل ، ومهما بذلنا من جهد ، كانت المزرعة فوق طاقتنا . ولهذا دخل جونسون جيبس حياتنا .

لا أدرى كيف تم تدبير الأمر ، كان جونسون فى الثامنة عشرة حين جاءنا من أحد الملاجىء ليعيش معنا فى المزرعة ، وربما لم يكن هذا الترتيب قانونيا تماما . كان رأى أبى أن حال جونسون لا يختلف عن حال شخص بيع عبدا فى أرض بعيدة ، وأنه لو كان حكيما لعاد إلى الملجأ وأغلق على نفسه الباب بالقفل والمفتاح حتى لا تصل إليه يد جدتى .

كان جونسون شابا ضخما وسيما ذا وجه أحمر ومزاج متساهل وطبيعة سمحة .. حاضر الابتسامة ، يتورد وجهه الأحمر خجلا بسهولة فيبدو وكأنه اتقد نارا . وكان يمضغ اللبان طوال الوقت وكأن لديه مئونة لا تنفد ، ويمتلك موهبة خاصة فى طرقعته بصوت عال . أدركت أنه قد مال إلىّ حين نكش شعرى وأعطانى قطعة من اللبان ، كان اللبان هو وسيلته فى اكتساب ود الغرباء .. كان شابا تعرض فى طفولته لسوء المعاملة ، فقد علمنا فيما بعد أن أبويه كانا سكيرين ، وأن جونسون وُضع فى الملجأ لحمايته من أذاهما .

سُرّت منه أمى على الفور ، رغم أنها لم تكن تساعدنا فى أعمال

المزرعة ، فقد كانت تدرّس بالمدرسة طوال اليوم . لكنها كانت تحب الصبية ، وربما كان هذا أحد الأسباب الهامة التى جعلتها تتزوج أبى . كانت لتحب أى صبى يتمتع بالهدوء والبشاشة والأدب ، وكان جونسون يتمتع بكل هذه الصفات . أضف إلى ذلك أنه كان جميل الطلعة - حين قُدِّم إليها لأول مرة رفعت يديها بصورة تلقائية لتسوى جونلتها ..

كان لون عينيه يميل إلى الزرقة الفاتحة ، وحين التقى بأبى لأول مرة خفت الزرقة إلى درجة الشفافية . تجمدت الابتسامة على شفتيه فى رد فعل حيوانى سريع .. سينشب الصراع بينهما لا محالة . لكن اللقاء مضى على خير على أية حال .. كان هذا فى أحد أيام الآحاد .

لم ينشب العراك بينهما حتى اليوم التالى . ويبدو أن قانونا ما مبنيا فى نسيج الكون ، قد حتم أن يتصارع هذان الشابان ذات يوم . ولم لا يكون يوم الاثنين إذن ؟ أليس يوما طيبا من أيام الله ؟!

بدأ العراك فى الطريق أمام الجرن ، وحملهما إلى مرعى الأبقار المغطى بالروث ثم فوق السياج ليتدحرجا أسفل التل إلى حقل الذرة ، حيث استمر العنف والهياج حتى انتهى بهما إلى جدول تريفيت كريك الضحل الذى لا تعلو مياهه فوق مستوى الفخذ .. لو حدثت هذه المعركة فى فناء مدرستى لوصفناها بأنها معركة نظيفة ، إذ لم يلجأ فيها أحد الطرفين إلى العض أو فَقْأ العينين أو الكثير من الركل ، بل قامت فى مجموعها على الكلمات الطائشة والمصارعة الحرة المصاحبة بشخير كشخير الخنازير . وقد وصفتها جدتى بأنها اشتباك بين خنزيرين يتمرغان فى الوحل .

وكانت النتيجة المتوقعة للمعركة أن أصبح الاثنان صديقين لا يفترقان ، بعدها جلسا سويا فى المياه بملابسهما الممزقة ، ووجهيهما الداميين ، وجسديهما الملطخين بالطين وروث الأبقار ، وانخرطا فى الضحك سويا وكأنما أصابتهما لوثة . كانا يضحكان ويرشان بعضهما بالماء ، ثم أخذا يغتسلان بماء الجدول المعكر بالطين ، ثم تسلقا ضفة الجدول المنزلقة على أربع وهما يتعثران ويهزان جسديهما لينفضا الماء عنهما تماما كما تفعل صغار

الكلاب . وحين بدأ أبى ينبح بصوت رفيع كأحدها انخرط جونسون فى الضحك من جديد .

راقبت المشهد مع جدتى من الطريق العلوى وتسمرت أعيننا عليهما فى ذهول . قالت : « فليرحمنا الله ! أرأيت ما فعله هذان الصبيان المخبولان ؟! إن أباك يفوق الآخر طيشا . ألا يدرك أنه رجل ناضج ورب أسرة ؟ لكن ها هو يسلك سلوك صبى فاسد لم يقومه والده بالعصا » .

نطقت جدتى حقا آنذاك ، وصدق قولها أيضا فيما بعد . كان أبى يبدو لى فى عمر جونسون ، بل وقريبا منى أنا أيضا فى السن . كنا نشعر نحن الذكور الثلاثة فى العائلة وكأننا فى عمر واحد . ولما كانت النساء فى العائلة يمثلن العقل والسلطة فقد توحد الذكور فى التمرد على هذا الوضع فأصبحنا شلة متماسكة عابثة ، ديدنها اللهو والمرح .. ولم تمض فترة قصيرة حتى غدونا لا نستطيع تبادل النظرات دون أن تنفرج شفاهنا فى ابتسامة خبيثة عريضة .

سألتُ جدتى : « لماذا تشاجرا ؟ »

أجابت : « ليكتشفا من أشدهما حمقا . أما النتيجة فهى التعادل . انظر ! أترى ما عاثاه من فساد وما أحدثاه من دمار ؟! »

كانت المعركة قد أسفرت عن انتزاع جزءين من سياج مرعى الأبقار ، وهرس الأعشاب والزهور البرية على جانبِ التل ، ودهس جزء من حقل الذرة بالأقدام ، فكأنهما شقا ممرا متعرجا عبره ، تفرشه أعواد الذرة المصقولة ، التى كانت تصل إلىَ الركبة من قبل ، ورقدت الآن على الأرض مكسورة تنزف عصائرها .

قالت جدتى : « لهما مخان فى حجم حبوب البازلاء الصغيرة التى تظهر فى شهر يونيو » .

كانا عائدين الآن عبر الحقل ومازالا يضحكان . ترددت خطواتهما حين

وصلا إلى سفح التل ونظرا إلى الطريق أعلاه حيث وقفت جدتى . لم يكن من الصعب تخمين سبب وجلهما .

صاحت : « إنهما يستحقان الضرب .. ليتنى أحضرت معى عصا من أعواد التبغ » .

وصلا إلى حيث كنا ، ووقفا أمامها ينظران إلى الحصى تحت قدميهما ، وهى سادرة فى توبيخهما : « ألا يكفينا ما لدينا من عمل هنا حتى تضيفا إليه مهام جديدة ؟! »

استدار أبى وجال ببصره فوق السياج المحطم ، وحقل الذرة المدهوس ثم تنهد . لكنه ما لبث أن انفرجت أساريره وقال : « سنتمكن من إنجاز كل المهام الآن بعد أن انضم إلينا جونسون » .

ردت : « أرجو من الله ذلك . »

لكن الله لم يحقق رجاءها إلا بمقدار النصف تقريبا . كان جونسون حقا عاملا طيّعا بشوشا ، يقبل على العمل ولا يتذمر ، وكان أيضا قويا كما ينم مظهره ، لكنه كان أيضا سلس القياد ، يمكن صرفه بسهولة بالغة عن العمل . وكان والدى وكأنه قد خلق لهذه المهمة خصيصا . ازدهرت المؤامرات بينهما وترعرعت كما تزدهر الأشواك على سياج من النبات . بعد فترة قصيرة أصبح من الواضح أنهما اتفقا على خطة جديدة للعمل : سيؤديان العمل على أكمل وجه - أجل ، ولكن بطريقتهما ووفق نظام انسيابى يخلصه من العراقيل والتعقيدات الصغيرة التى كانت تسببها نصائح جدتى ووصفاتها ..

ففى حالة الذرة مثلا ، لا داعى لإحاطة كل شجيرة بكومة من التربة بالدقة البالغة التى كانت تفرضها جدتى . وبالنسبة للإصلاحات : إذا احتاج شيء للإصلاح سيأتيان بالأدوات اللازمة ويصلحانه ، ولن يدعا جدتى بعد الآن تسند بابا مخلوعا أو بوابة بتكوينات عجيبة من الصخور وبقايا ألواح الخشب . وحين يحين موعد حلب الأبقار سيسوقانها إلى الحظيرة كيفما اتفق دون اعتبار للبروتوكول التقليدى الذى يحتم أن تدخل البقرتان ريد وديزى أولا ، وبعدهما ليتل وجيرسى وبلوسوم .

ووفق هذا النظام الجديد كانا يؤديان العمل ويؤكدان أنهما قد أتماه بينما تؤكد جدتى أنهما لم يتما سوى نصفه . لكنها الآن وجدت نفسها ، ولأول مرة فى حياتها ، مغلوبة على أمرها ، أمام خصم يفوقها عنادا .. وكان خصماها يرفضان أن تختلق لهما أعمالا إضافية حين يفرغان من العمل الرئيسى ، فقد كان يزعج جدتى ويؤلب عليها ضميرها أن ترى رجلا يجلس مسترخيا ليدخن سيجارة فى هدوء ، فإذا رأت أحدا دون عمل لمدة لحظة أو لحظتين نشط عقلها فى اختراع كشوف وقوائم لا حصر لها من المهمات التافهة الى يقلقها عدم إنجازها ، فترسل هذا البائس مثلا لتزييت مزاليج الأبواب ، أو لينقع مصافى الألبان فى الماء ، أو ليبحث عن دوبارة من طول معين .

كانت تقول لوالدى مثلا : « مادمت جالسا دون عمل ، لم لا تقتل بعض الذباب على الأقل ؟ »

فيرد قائلا : « وما الفائدة ؟ هل تنفع المذبة فى جرن ؟ »

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد بدأ أبى يظهر أشياء ترتبط فى ذهن جدتى بالفراغ الذى يفضى إلى التهلكة . كان قد أقنع والدتى بأن تحضر له من المدرسة الثانوية الى تُدرِّس بها كرة بيسبول وزوجا من القفازات البالية القديمة التى تستخدم فى هذه اللعبة ، وكان يقف مع جونسون فى الطريق ويتقاذفان الكرة بتركيز وقوة وجدية شديدة ، فتئز فى الهواء بينهما كالقذيفة .

ورغم ذلك كانا ينجزان العمل ، فلم تعد الأعشاب الضارة تنافس عيدان الذرة فى طولها .. وأصبح البرسيم ينُقل إلى الأجران قبل مجىء أمطار الصيف حتى لا يتعفن فى مكانه ، كما كان يحدث من قبل .. وأصبح اللبن يُعد فى الوقت المناسب لتجده عربة مصنع ألبان « بت ديرى » جاهزا للجمع حين تصل ، وكانت أوراق التبغ تُنظف من الأعشاب الضارة والديدان وتُجهز فى الموسم المحدد . كانت كل هذه المهمات تُنجز فى وقتها رغم لعبة البيسبول الملعونة ، وغيرها من الألعاب الشيطانية التى كانا يمارسانها .

فى تلك الأيام كان لدينا ما يقرب من دستة من الدجاجات الصغيرة ،

وكنا نجد بيضها الصغير الذى لا يزيد على حجم عقلة الصباع منتثرا وسط الحشائش فى كل مكان .. وقد تفتق ذهن والدى عن وسيلة نستفيد بها من هذا البيض .. كان لجدتى فى بيتها الكبير المبنى من الطوب الأحمر حجرة خاصة تطلق عليها اسم « غرفة الزوار » ، وكانت تمنعنا من دخولها بتاتا وإلا تعرضنا لعظيم غضبها ، ففى تلك الغرفة كانت تستقبل على فترات متباعدة زوارها الرسميين مثل الواعظ الدينى أو زميلاتها فى جماعة دائرة الكتاب المقدس . ولهذا كانت تخفى فى تلك الغرفة - وإن لم يخف ذلك عن والدى طويلا - علبة من الشيكولاتة الفاخرة أهداها لها الخال لودن بعد رحلة إلى إحدى البلدان البعيدة ، ربما كانت سانت لويس أو ممفيس أو آشفيل .

أدخلنا أبى خفية أنا وجونسون إلى غرفة الزوار هذه ، وأرانا علبة الشيكولاتة وقال : « أليست فاخرة حقا ؟ » اصطفت قطع الحلوى لامعة ، كل فى غطاء من ورق اللف المعدنى بألوان مختلفة - الأخضر الزاهى والأحمر والذهبى والبنفسجى - وبدت هانئة آمنة داخل عشها المبطن بالقطيفة . كان الصندوق شبه كامل باستثناء عدد قليل من القطع الناقصة .

قال جونسون : « أجل إنها فاخرة حقا - وتبدو أيضا لذيذة » .

قال أبى : « آه . لكن المظاهر قد تخدع . أعتقد أننا سنسدى معروفا إلى الجدة لو اختبرنا جودة مذاقها » . ثم ناول كلا منا قطعة فضضنا لفافتها والتهمناها فى صمت تملؤه الرهبة . كانت قطعتى محشوة بكريمة مطعمة بسكّر القيقب ، ولا أظن أننى أكلت شيئا أشهى مذاقا منذ تلك اللحظة اللذيذة البعيدة .

قال أبى : « والآن ، أعطيانى اللفافات » ، وحين فعلنا ، أخرج من جيبه ثلاث بيضات هشة من بيض الأفراخ الصغيرة ولفها فى الورق المعدنى الأحمر والأخضر ووضعها فى الصندوق مكان قطع الشيكولاتة ، ثم سألنا : « ما رأيكما ؟ تمام ؟ »

قال جونسون : « لايمكن تمييزها عن القطع الأخرى ولو بمقدار شعرة ضفدعة » .

نظر أبى إلىّ يستطلع رأيى فأومأت وقد جحظت عيناى .. كانت كلمة مؤامرة ترتسم فى الهواء حولى فى كل مكان .

حالفنا الحظ بضعة أسابيع قضينا خلالها على ما يقرب من ثلثى الصندوق ، وكنا دائما نحرص على إبدال القطع الغائبة بالبيض المتنكر فى اللفافات الملونة .. ثم حدث ذات يوم من أيام الآحاد أن جاءت لزيارة جدتى سيدتان ثرثارتان ، ترتديان النظارات ، من جماعة دائرة الكتاب المقدس . وحين اصطحبتهما إلى غرفة الزوار ، أدركنا لحظتها أننا قد وقعنا فى الفخ وأن أمرنا قد انكشف . التقينا ثلاثتنا خلف مخزن الذرة لنتدبر أمرنا فى جدية شديدة ، واقترح جونسون أن نرحل جميعا إلى استراليا ، فقد سمع أن بها العديد من مزارع الماشية لإنتاج الألبان . ونستطيع أن نعمل هناك .

قال أبى : « فلتذهب المزارع كلها إلى الجحيم » .

رد جونسون : « فلنرحل إلى أوروبا إذن حيث نزى النساء الفرنسيات اللائى يتشدق الجميع بسحرهن » .

قال أبى : « ألا تدرى أن الحرب نشبت فى أوروبا ؟ »

أومأ جونسون بجدية شديدة ، فقد كان فى الثامنة عشرة وسمع عن الحرب فى أوروبا . قال : « ماذا سنفعل إذن ؟ »

قال أبى : « سنبقى ونواجه العاصفة . لا أصدق أنك تخاف إمرأة ! »

رد جونسون : « بل أخافها » .

أرسل أبى عينيه إلى قمة شجرة بلوط سوداء وقال : « وأنا أيضا » . ثم انفرجت أساريره وقال : « ولكن ألا تتمنى حقا لو كنت الآن فى الغرفة معهن لترى وجوههن ؟ »

افتر ثغر جونسون عن ابتسامة عريضة وقال : « نعم » .

أرسلنى أبى كى أختلس النظر حول المخزن فى اتجاه المنزل لأرى إن كان أحد فى الطريق إلينا .

عدت قائلاً : « لا أحد . لم أر شيئا » .

لفا بعض السجائر ودخناها ، وتبادلا النظرات بابتسامات صغيرة .. بدا واضحا أنهما يودان الانطلاق فى الضحك لكنهما قررا ألا يفعلا ، فقد يكون الضحك فألا سيئا فى هذا الموقف .

سأل أبى جونسون : « ما رأيك ؟ »

أجاب : « رأيى أننا بلهاء إلى درجة العته لأننا لم نرحل عن هذا البلد » .

قال أبى : « ترى ماذا يحدث بالداخل الآن ؟ »

استرقت النظر خلف المخزن مرة أخرى وأخبرتهما أن جدتى فعلا فى الطريق إلينا .

قال جونسون : « دعنى أنظر » . مد رأسه خارج المخزن ثم سحبها إلى الداخل بسرعة . « أجل إنها قادمة فعلا » .

سأل أبى : « كيف تبدو ؟ هل يبدو عليها الغضب ؟ أعنى .. الغضب الشديد حقا والثورة العاتية ؟ »

أجاب جونسون : « تبدو وكأنها تحمل سلاحا ناريا » .

قال أبى : « إذن لا بأس . لقد نجحنا فى إغضابها بعض الشىء ، وهذا يرضينى » .

سأله جونسون : « فى أى اتجاه ؟؟ »

أغلق أبى عينيه وتدبر الإجابة كما لو كان رئيسا للوزراء يتدبر أمر الدولة وقال :

« نحو الشرق فى رأيى » .

وعند هذه الجملة انطلق الاثنان يعدوان مثل جياد صغيرة أفزعها حريق هائل . قفزا فوق الجدول الصغير أسفل المنحدر ، ثم فوق سور الأسلاك الشائكة على الناحية الأخرى ، ثم انطلقا عبر جانب التل المغطى بالأعشاب البرية فى سرعة مذهلة ..

حين وصلت جدتى إلى مخزن الذرة كانت هادئة تبتسم ، ولم تكن تحمل بندقية بل إحدى عصى المشى السوداء اللامعة التى كانت لجدى . سألتنى : « أين ذهب هذان الصبيان العابثان ؟ »

أجبت : « انطلقا إلى مكانٍ ما » .

قالت : « أجل . توقعت هذا » . ثم نظرت إلىّ فى حب وقالت : « لا أعتقد أنك شاركت فى أفعالهما التافهة الغبية يا جيس . أليس كذلك ؟ »

كنت قد تعلمت الكثير فى الأسابيع الماضية فسألتها : « أية أفعال يا جدتى ؟ »

قالت : « أجل . لم أتصور ذلك » . ثم ربتت على رأسى .

تنبأت جدتى بأنهما سيعودان حين يقرصهما الجوع .. وقد حدث . ولولا الجوع لما استطاعا أن يأكلا الطعام الذى بدأت جدتى تضعه أمامهما . كان طعامنا أنا وأمى وجدتى شهيا حقا ، بل أفضل من أى وقت مضى : خبز طازج من دقيق الذرة وطماطم وبامية مقلية ودجاج وبسكويت مغموس فى مرق شرائح اللحم . أما طعام أبى وجونسون فقد اقتصر على البيض فى الوجبات الثلاث : البيض المقلى والبيض المضروب والبيض المسلوق - البيض بأى طريقة - المهم أنهما كانا يتناولانه فى الإفطار والغداء والعشاء . بل وحين كنا نعمل فى الحقول الخلفية كانت أكياس طعامهما الورقية تحوى سندوتشات بيض تنضح بالدهن .

سأل أبى يوما : « قل لى يا جونسون ، أتشعر هذه الأيام برغبة غريبة جارفة فى نبش الأرض والقيق كالدجاج ؟ »

رد جونسون : « أننى لا أحلم الآن بعارضات الملابس الداخلية فى كتالوج « سيرز » للأزياء . حين أنام فى فراشى لا أرى شيئا سوى كستليتة لحم الخنزير » .

وأخيرا ، ذات مساء ، تناولا كستليتة الخنزير ، فكانت إشارة صلح من جدتى . والأفضل من هذا أنها أعطتنا موجزا لأخبار جمعيتها . قالت : « تشك

كل من إيلين - لويز ومارى فى سلامة وجودة أطقم الأسنان التى ابتاعتاها من المتجر . لذلك تخافان تناول الحلوى الجامدة أو التى تتطلب مضغا ، فقد يتسبب هذا فى خلخلة طقم الأسنان . وهكذا جلستا ذلك اليوم تختبران رخاوة قطع الحلوى بالضغط عليها فتكسر البيض داخل الصندوق ولوث قفازيهما الأبيضين وامتلأ الصندوق بالبيض السائل . وقد فطنت إلى الأمر منذ أول بيضة ، أما هما فقد مضيتا فى اختبار الحلوى . أظن أنهما كسرتا عشرين بيضة على الأقل » .

ثبت جونسون وأبى أعينهما باستماتة على مفرش المائدة ، واصطبغ وجهاهما بحمرة أخذت تزداد عمقا .

أضافت جدتى : « ولقد أدركت أيضا أنكما لم تلتهما كل الشيكولاتة دفعة واحدة فبعض البيض مكث فى الصندوق فترة أطول من البعض الآخر - عدد كبير من البيض كان قد فسد » .

سأل أبى مستفهما : « فسد ؟ » وجاء صوته مخنوقا وكأن زلطة انحشرت فى حلقه .

قالت : « أعنى تعفن » .

سأل : « كانت الرائحة كريهة ؟ »

قالت : « أبشع رائحة فى الوجود » .

عند هذا الحد قفز الاثنان من أمام المائدة فانقلب كرسياهما ، واندفعا خارج المنزل . وترامى إلينا ضحكهما - من الخارج ، من تحت أشجار الجوز .

كان ضحكا عنيفا حادا أشبه بأصوات مصابيح إنارة تنفجر .

جلست جدتى مكانها لكن الدموع أخذت تنهمر فوق خديها .

سألتها أمى إن كانت بخير . فقالت : « أجل . أنا بخير . لكننى قررت ألا أسمح لنفسى بالضحك أمامهما . لو رأيا أنى أضحك ، يعلم الله ماذا

سيفعلان فى المرة القادمة » . ثم مدت يدها وربتت على رأسى مرة أخرى ، وقالت : « احرص ألا تكون مثلهما حين تكبر » . قلت : « لا يا سيدتى » - وأنا أعاهد نفسى على أن أكون مثلهما تماما حين أكبر .

شاركنى جونسون حجرة نومى أعلى السلم فى البيت القديم المبنى بالطوب الأحمر . كان شيئا ممتعا ومثيرا أن يصبح لى شريك فى الحجرة ، شخص أستطيع الحديث إليه فى الظلام حين تحرك الريح أغصان أشجار البلوط ، فتحتك بالنوافذ ، وتتلألأ لأعيننا النجوم خلال الأوراق واحدة تلو الأخرى .. كنت أنام على السرير الحديدى فى الجانب الجنوبى من الحجرة ، وكان جونسون ينام على السرير الخشبى الطويل على الجانب الآخر .

ذات ليلة رقدنا نحدق كل فى الظلام المحيط به ، فسألت جونسون أن يحكى لى حدوتة من حواديت الأشباح . وهل من وقت أفضل من هذا لحكاية من هذا النوع ؟

قال : « لست أجيد حكايات الأشباح . أما قصص الصيد والقنص فهى تخصصى ، فأنا أفضل الحكايات التى تتعلق بمغامرات الرجال » .

قلت : « إذن قص علىّ قصة من قصص الصيد ، تدور أحداثها فى الأدغال » . فاستجاب .. لكنه لم يكن ماهرا فى قصص الأدغال أيضا . كنت وقتها فى العاشرة فقط ، ورغم ذلك كنت أعلم علم اليقين أن النمور لا تفترس حيوان الكنجارو . أضف إلى ذلك أنه كان يتجاهل الكثير من التفاصيل الهامة مما دفعنى إلى مقاطعته مرارا بالأسئلة .

- « انتظر .. انتظر .. كيف تمكن التمساح من الصعود فوق الجسر الهزاز ؟ »

- « كيف ؟ تسلق ضفة النهر زحفا . وهل هناك طريقة أخرى ؟ »

- « كلا . لكنك جعلته لا يستطيع الحراك لأن الحربة التى اخترقت أنفه اخترقت أيضا جذع شجرة فأصبح مثبتا بها . كيف تحرر من الشجرة ؟ »

- « بسيطة .. أخذ يهز رأسه مثل كلب كبير حتى حرر نفسه . اسمع . هل ستدعنى أكمل القصة أم لا ؟ »

- « طبعا . تفضل . كنت فقط أستفسر » .

- « لا بأس . وبعد ذلك ... أين كنت ؟ »

- « فوق جسر المشاة الهزاز تحاصرك غوريللا خسيسة من ناحية ، ويتقدم نحوك التمساح من الناحية الأخرى .. كيف نجوت من هذا المأزق ؟ »

- « قفزت فى النهر » .

- « قفزت فى نهر يمتلىء بالصخور من ارتفاع ألف قدم ؟! لو فعلت هذا لاندقت عظامك وانسحق جسدك كالحشرة ! »

- « ليس بالضرورة . على أى حال حدث فيضان فجأة فامتلأ النهر بالماء ، فلم أضطر إلى القفز أكثر من مائتى قدم على ما أظن » .

- « لقد جاء هذا الفيضان فى الوقت المناسب وبسرعة خارقة ! »

- « أجل . كان أحد تلك الفيضانات الكبيرة العاتية التى تحدث فجأة - تعرفها . ومن حسن حظى أنه حدث ، فقد طفوت على مياهه بسهولة ويسر حتى وصلت إلى حافة صخرية عريضة جافة فتعلقت بها وتسلقت إلى سطحها . لكن برزت مشكلة .. كان على الصخرة ثعبان رهيب يتمدد فى الشمس . كان هائل الحجم من نوع الأصلة العاصرة التى تلتف حول الضحية فتخنقها وتسحق عظامها . كان طوله حوالى عشرين ياردة وجاءت ضربته مثل البرق » .

انقلبت على جنبى ورحت فى النوم وقد غلبنى السأم الشديد .

كانت قصص جونسون الليلية عن الأدغال هزيلة مملة . لكنه عوض هذا النقص بحكاياته النهارية عن لعبة البيسبول . أخبرنى أنه كان أفضل من يقذف الكرة فى فريق الملجأ ، بل وكان يمثل - حسب قوله - ظاهرة مذهلة فريدة فى المنطقة الواقعة على جانبى نهر ماسون - ديكسون .

قال : « كانوا يأتون إلى المباراة وهم يصفرون لحنا مرحا . وينصرفون وهم يجرجرون أذيال الخيبة ويطلقون سيلا من اللعنات المريرة . لم تنج قذيفة منهم من يدى ، وإذا نجت كان هذا باختيارى حتى أعطى بقية أعضاء الفريق شيئا يفعلونه . كنت أراوغهم وأجعلهم ينظرون فى كل مكان ماعدا مكان الكرة . كنت كالمنوم المغناطيسى أفعل بهم ما أشاء فأخدعهم وأثيرهم وأسخر منهم و « أفعكشهم » . كانوا يتضرعون إلى الله أن يهطل المطر حين يعلمون أننى سأكون قذاف الفريق ، وكنت أصلى حتى لا يهطل المطر فتجب صلاتى صلاتهم » .

ورغم رفضى العنيد لكل أفاعى جونسون العاصرة فقد بلعت كل قصص قذائفه الكروية وكأنها غمست فى دهن ساخن .

- « أرنى مرة أخرى هذه الرمية » .

- « أية واحدة ؟ أعرف طرقا كثيرة فى الرمى لا أكاد أتذكر نصفها » .

ضم أطراف أصابعه حتى تقلصت على حافة أحد خطوط الخياطة فى الكرة ، ثم وضع الكرة أسفل بطن راحته وقال :

- « أسمى هذه الرمية رمية السكير ولا سبيل لصدها ، إذ لا يمكن لأحد أن يخمن اتجاهها . كل ما يمكن التكهن به هو أن الكرة ستهبط فى مكان ما على أرض الملعب . وكم من مرة تسببت هذه الرمية فى إصابة لاعبين عتاة بتقلص فى العمود الفقرى حين حاولوا صد الكرة بمضاربهم الخشبية » .

كان لديه حقا مخزون لا ينفد من الرميات التى تستطيع أسماؤها أن تملأ دليل تليفونات كامل. . فإلى جانب « رمية السكير » اشتمل القاموس على « الغواصة المباغتة » ، و « البرق الأزرق » ، و « الضربة الخاطفة » ، و « هزة الثعبان » ، و « ملك التلال » ، و « لذة صائد الرمية القصيرة » ، و « ثقب الجردل » ، و « ابعد يا شاطر » ، و « رمية موسيقى الذقن الخاصة » ، و « رمية مراوغ المضرب المبسطة » ، ومعها « رمية مراوغ المضرب المتقدمة » ، و « الرمية الحلزونية الخفيفة » ، و « بدارة الرجل

الناعم » ، و « الارتحال للصين في سفينة بطيئة » ، و « إلى الخلف واقذف » ، وأخيرا ودائما بالطبع رمية « الصديق الوفي » التي لا تخيب .. وكانت هناك رميات أخرى أيضا ، ولكنني نسيتها ..

حاولت أن أجرب بعض طرقه في القبض على الكرة وقذفها كما أراني ، لكن يبدو أن يدي كانت أصغر مما ينبغي . وكان يدهشني دائما بطرقه الغريبة العديدة في الإمساك بكرتنا القديمة التي تشقق جلدها ولوثته بقع التبغ .

قلت : « لا أتصور كيف تستطيع قذف الكرة وأنت تمسكها هكذا ! »

قال : « السر في الرسغ . رسغي حديدي خاطف مثل فخ الدب . والسر أيضا في الذراع ، فذراعي نصفها فولاذي والآخر مطاطي .. إنها نعمة كبيرة بفضلها أستطيع أن أمارس هذه الرميات مائة عام دون أن يصيب ذراعي أي ضرر » .

كنت أنبهر بكل ما يقول ، وكان أحد أسباب انبهاري أنني لم أكن قد سمعت من قبل أحدا يتفوه بكلمة « يقذف » ولا بكلمة « يفعكش » هذه - التي لم أسمعها بعد ذلك قط . وبلغ بي الانبهار أن حملت قصصه إلى أبي الذي قضى بعض الوقت يمعن النظر فيها قبل أن يتحدث بشأنها إلى جونسون .

قال : « سمعت من جيس أنك قذاف بيسبول ذو باع » .

لم يتراجع جونسون عن ادعاءاته قيد أنملة . قال : « لم أقص عليه سوى نصف الحقيقة . خفت أن يتصور أنني أبالغ أو أتفاخر .. الحقيقة أنني أستطيع أن أقذف كرة البيسبول فأجعلها تخترق جدارا من الطوب أو تمر حوله أو فوقه أو تحته إذا شئت » .

قال أبي : « أنت على حق . أعوذ بالله من التفاخر . سمعت أنه يجعل الرأس تتورم والعيون تجحظ » .

قال جونسون : « أجل سمعت هذا .. يقولون أيضا إنه يضعف الرجل ضعفا شديدا فلا يستطيع رفع روث الخيول بجاروف دون عناء » .

قال أبى : « لا يبدو عليك الضعف والحمد لله . وهذا جميل ، فقد علمت أن أحد فرق البيسبول يحتاج إلى قذاف لمباراة ستقام عصر السبت . هل تعرف فيرجيل كامبل ، صاحب حانوت البقالة هناك بجوار الجسر ؟ لقد جمع نفرا من الشباب وشكل فريقا ليلاعب فريق الكنيسة المعمدانية للإرادة الحرة فى منطقة خليج كافيناس . يقول إن مستوى اللاعبين جيد لكن ينقصه قذاف ماهر » .

قال جونسون : « أنا بغيته ، ولو بحث فى مكان آخر فلن يعثر على أفضل منى » .

قال أبى : « أنت تعلم بالطبع أن اللاعبين مجرد فلاحين وعمال زراعة ، وقد تشعر بالخجل والمهانة إذا تباريت معهم ، فلن يكونوا فى مستواك طبعا » .

ابتسم جونسون ابتسامة تنم عن كرم النفس والشهامة وكأنه الرئيس روزفلت وقال : « سيستفيدون من مشاهدتى .. ستكون المباراة درسا لهم فى لعبة البيسبول » .

قال أبى : « إذن اتفقنا . سأخبر فيرجيل فورا . إنه يتحرق شوقا إلى إعطاء فريق الكنيسة هذا علقة لا ينساها ، فهو لا يطيق المتعصبين الذين ينصبون أنفسهم أوصياء على العباد باسم الله ، أيا كانت عقيدتهم . وسوف يسعده كثيرا أن يفضح مزاعمهم » .

قال جونسون : « سأكون هناك وأحصدهم حصدا وأذروهم فى الرياح » .

ظللت قلقا ومضطربا مثل برغوث من يوم الأربعاء إلى يوم السبت ، ترى كيف ستمضى المباراة بين جونسون وبين الفريق المعمدانى ، فريق قوس قزح النورانى الصادق ؟ كانت لهم شهرة لا يستهان بها فى المنطقة ، وكنت قد شاهدت إحدى مبارياتهم من قبل ووجدتهم فتيانا أشداء خشنين فى لعبهم ، يجيدون تطويح المضرب بطول الذراع . أما جونسون فلم يبدر منه ما ينم عن

القلق أو التوتر ، ولم يشر إلى المباراة من قريب أو بعيد ، بل ولم يلمس كرة البيسبول إلا حين حان وقت الذهاب إلى المباراة . نكش شعرى مداعبا وقال : « ما كل هذا التوتر يا جيس ؟ إنك تبدو متهيجا مثل ضفدعة فى موسم التناسل ! »

حملتنا السيارة إلى خليج كافيناس ، وتوقفنا أمام بقعة فى مرعى للأبقار ، وتحملنا المقدمات الطويلة والمراسم الافتتاحية المملة ، ثم بدأت المباراة .

لن أحاول أن أسجل هنا وصفا تفصيليا لتلك المباراة .. فهى لم ترق بكل تأكيد إلى مرتبة الملاحم .. في البداية كانت المضارب من نصيب فريق قوس قزح ، وكان من المفروض أن نتوقع المتاعب حين تدحرجت الكرة من بين أطراف أصابع جونسون فى الرمية الأولى وسقطت بصوت مكتوم على حافة الربوة حيث يقف . أضاع على فريقه ثلاث نقط قبل أن ينجح فى تسديد الكرة قرب الهدف ، وليته ما فعل ، إذ ما أن اقتربت الكرة من هدفها حتى تلقفها حامل المضرب من فتيان الكنيسة المعمدانية وأرسلها فى الفضاء بعيدا وسط اللاعبين . تكرر الحال حتى بدا وكأن عاصفة ثلجية قد هبت على الملعب وأهالت عليه وابلا من كرات البيسبول .

كان فتيان قوس قزح النورانى ينتظرون أدوارهم فى صد الكرة ويتسلون بمراقبة جونسون وهو « يسخن » ويستجمع قواه قبل إطلاق القذيفة . وفى كل مرة كانوا يتبادلون الابتسامات ويغمغمون بكلمات غير مسموعة وأظن أنهم كانوا يرددون : « المجد لك يايسوع . لقد أغدقت علينا هباتك فما أعمق امتناننا ! »

والحق أن منظر جونسون وهو يستجمع قواه لقذف الكرة كان شيئا لا يستهان به . كان يبدأ بحالة من التركيز الجاد ، فيرفع الكرة إلى مستوى عينيه بتأن ثم ينزلها ببطء مميت إلى مستوى سرته . لحظتها يغلق عينيه ويتقلص وجهه فى تعبير مخيف ينم عن الألم الشديد . بعدها يرفع كتفه اليسرى عاليا ، ويشرع فى أرجحة جسمه ملقيا إياه إلى الخلف أكثر فى كل مرة ،

ولا يكف حتى تكاد أصابعه القابضة على الكرة أن تحتك بالأرض . عند هذا ، يتوقف ويثبت على وضعه دون حراك ، وقد لامست يده الحشائش خلفه وارتفعت ساقه اليسرى عاليا فى الهواء - بزاوية - وكأنه كلب يصوب بوله نحو سحابة فى السماء . كان يبدو لحظتها كتمثال ينتمى إلى نوع من فن النحت الكابوسى . ثم فجأة ينقض على الهدف وكأنه يلقى بنفسه فى أتون معركة طاحنة فتتطاير ذراعاه وساقاه ورأسه وجسده فى كل اتجاه ، ويبدو جسده وكأنه انفجر إلى نثار من الأوراق الملونة .

أصابتنى طريقته فى تسديد الكرة بالصدمة والذهول ، لكنها لم تسبب أى ارتباك لحاملى المضارب من فتيان قوس قزح النورانى . كانوا يراقبون هذه الزوبعة الثلجية فى صبر وتفكه ، وينتظرون ظهور الكرة وسط تلك الدوامة العارمة ، وحين تطفو بعيدا فى الهواء يتلقفونها بمضاربهم ويرسلونها إلى عنان السماء حيث تسكن الملائكة ، ولسان حالهم يقول « مبارك اسم الرب » وأشياء من هذا القبيل .

فى منتصف الشوط الثالث كانت النتيجة ٢٣ - ٢ لصالح الفريق الآخر . تشاور أبى مع هذا الرجل الغريب الأطوار الذى يدعى فيرجيل كامبل ، ثم توجها معا إلى مدرب فريق قوس قزح وسلما بالهزيمة وطلبا وقف المباراة . أخبرنى أبى بعدها أنه لو استطاع لأنهاها قبل ذلك بكثير .

قال : « لكنى لم أقدر . حين بدأ جونسون « التسخين » أول مرة أصابتنى نوبة هستيرية من الضحك الخافت ، ولكن حين سدد الكرة - أعنى حين سقطت من يده على أصابع قدمه - لم أتمالك نفسى وانفجرت فى ضحك عنيف حتى وقعت على ركبتى ولم أتمكن من النهوض . وكلما توالت ضرباته اشتد ضحكى . ربما استطعت أن أكف عن الضحك لو حولت بصرى عنه . لكن منظره كان لا يقاوم . وصل بى الحال فى النهاية أن وجدت نفسى أتمرغ على الأرض من شدة الضحك ، وكأننى أتلوى من مغص فى البطن وتنهمر الدموع من عينى بغزارة وكأنها ماء فى منخل . من حسن حظى أننى ابتعدت عن السور السلكى الشائك . لو لم أفعل ذلك لتمزق جسدى شرائح وغدا كلحاف عجيب من فضلات الأقمشة » .

كان على حق ، ورغم حبى الشديد لجونسون لم أملك إلا أن أعترف بهذا . تحيرت كيف أعامل جونسون فى الأيام القليلة التالية للمباراة . هل أواسيه أم أتجاهل المباراة تماما ؟ خلصت إلى أن جونسون لابد وأنه يشعر بالاكتئاب ولذا على أن أحاول التسرية عنه ، خاصة وأن الرجل الذى يستطيع قذف الكرة بمثل تهوره قد يقدم على تدمير نفسه ولن يعدم الوسائل .

لكن جونسون أخذ المباراة ببساطة وروح مرحة قائلا : « كلنا معرضون للفشل أحيانا . فى بعض الأيام لا أجد ذراعى الحديدية . هذا كل ما فى الأمر . وفى أيام أخرى لا يستطيع أعتى اللاعبين الوقوف أمامى » .

ـ « لست حزينا إذن على النتيجة ؟ »

ـ « هزيمة واحدة وسط انتصارات عديدة . ماذا تهم ؟ »

ـ « لا أظن أنك عانيت هزائم كهذه حين كنت تلعب فى فريق الملجأ » .

ـ « أى فريق ؟ لقد كان الملجأ مفلسا . لم يكن به مال يكفى لشراء أقمطة تكفى كل الأطفال الرضع . كيف يمكن إذن أن يكون به فريق للبيسبول ؟! لم أبصر كرة واحدة خلال السنوات التى قضيتها هناك » .

ـ « وماذا عن تلك المباريات التى لعبتها وبنت شهرتك ؟ »

قال جونسون فى نبرة جادة : « اسمع . أنا لا أحب الكذب . إنه يدمر سمعة الإنسان بصورة فظيعة . إذا تعود الناس الكذب منك فلن يصدقوا كلمة واحدة تتفوه بها ، وكيف يكون الحال آنذاك ؟ ولكن ... ».

ـ « ولكن ماذا ؟ »

ـ « كنت قد عقدت العزم على أن ألعب دور القذاف يوما ما ولو فى مباراة واحدة ، فقد شاهدت اللعبة وقرأت عنها حتى امتلأ رأسى بها . وحين سنحت الفرصة لتحقيق حلمى اقتنصتها بلهفة . هل تظن أنهم كانوا ليمنحونى الفرصة لو اعترفت لهم بأننى لم ألعب مباراة واحدة فى حياتى ؟ كان الحل الوحيد أن أدعى أننى أفضل قذاف ظهر منذ وولتر جونسون . حينئذٍ سينتبهون لوجودى وقد يمنحوننى الفرصة » .

- « والآن وقد أخذت الفرصة ، ما رأيك ؟ »

قال : « رأيى أننى أحتاج إلى بعض التدريب وربما التمرين على مجموعة جديدة من الرميات . لن أدع الهزيمة تصيبنى بالإحباط » .

قلت : « هذا جميل » .

نكش شعرى مداعبا وقال : « لا يمكن لرجل واحد أن يتفوق فى كل شىء . إن الشىء الذى أجيده حقا هو صيد الأسماك النهرية وخاصة أسماك التروتة . أعطنى طعما وسنارة وسوف أخرج لك الأسماك من الرمال والصخور الجافة . إنها قدرة فريدة . حين أصطاد تسعى إلىّ الأسماك جماعات وفرادى كما تسعى الأطفال إلى أمهاتها .

* * *

ومثل الأسماك الصغيرة ، مرقت الأيام الحلوة المشرقة حولنا وعبرت . انتظمت أحوال المزرعة وسارت سيرا حسنا . استمر الجو صحوا وجافا وترعرعت أعواد البرسيم والذرة طرية خضراء . انتهينا من إعداد محصول التبغ وتنظيف جرن حلب الأبقار ، وتشذيب سياج النباتات وإصلاح أسلاكه . ورغم كل هذا العمل ، كلما تذكرت تلك الأيام بدت لى ضحكا ولهوا متواصلا .

كنا نُرضى نساء المنزل وأحيانا نثير حنقهن وغيظهن أيضا . كان أبى يقول : « لا ينبغى أن نشعرهن بالاطمئنان التام إلى سير العمل وإلا استأجرن مزرعة أخرى لنظل نعمل طوال الوقت » .

تراكم لدينا على مر الأيام مخزون من النكات المتبادلة والمعابثات المرحة وكلمات السر والإشارات الخاصة التى لا يفهمها غيرنا . بل وجاء وقت لم نعد نحتاج فيه للكلمات فكان يكفى أن ينظر أبى إلى جونسون بتعبير خاص ليدفع الدم إلى وجهه أو الضحك إلى شفتيه . وكانت لجونسون طريقة فريدة فى تحريك كتفيه لا أستطيع أمامها مقاومة الضحك . ولو رآنا غريب من بعيد فى تلك الأيام لأرسلنا فوراً إلى مصحة الإقليم للأمراض العقلية .

ورغم تلك الألفة اصطفانى جونسون ذات يوم ليخبرنى بسر يختلف عن أسرارنا المرحة المعتادة . طلب منى فى جدية شديدة أن أعده بالكتمان وجعلنى أقسم على ذلك . قال : « حين يعلم أهلك بهذا الخبر ستصيبهم نوبة عصبية . وسيحدث هذا عما قريب . لا داعى لأن نزعجهم الآن ولنوفر عليهم القلق حتى يحين الوقت . لكنى سأنفجر إذا لم أخبر أحداً » .

- « قل لى إذن » .

قال فى نبرة جادة : « لقد تطوعت . ذهبت إلى مكتب البريد وتطوعت » .

- « تطوعت فى ماذا ؟ »

قال : « تطوعت فى الجيش . إياك أن تخبر أحدا بهذا يا جيس ، أتفهم ؟ »

قلت : « لا تقلق . لن أفشى سرك أبدا » . ورغم وعدى لم أفهم سبب كل هذا التكتم الشديد . كنت أعرف أن جونسون التحق بالجيش ليذهب إلى أوروبا ويضرب هتلر علقة ساخنة ويجلد مؤخرته ، وليس فى هذا ما يشين ، فأبى يردد دائما أن هذا ما يجب أن يحدث تماما ، وهاهو جونسون قد تطوع فى الجيش ليقوم بالمهمة . بدا تصرف جونسون منطقيا سليما ، بشرط ألا يفكر فى تحدى هتلر للنزال فى مباراة بيسبول . لكن من المؤكد أن الجيش سيدربه على تصويب الكرة بصورة أفضل ، فقد اشتهر عن الجيش أنه يدرب رجاله .

قال جونسون : « حسن . ها قد أفشيت لك سرى واسترحت وأرجو ألا تبوح به » .

- « قلت لك لن أفعل وأعدك الآن ثانية » . وقد كان واحترمت كلمتى .

أهدى والداى إلى جونسون فى عيد ميلاده سنارة صيد فاخرة وبكرة خيط وصندوقا من الحشرات الصناعية الملونة .. كانت عدة صيد من الدرجة الأولى ، وما أن وقع بصرى عليها حتى فقدت قناعتى بسنارتى الخيزرانية القديمة التى خدمتنى بكفاءة تامة على مدى عامين . حملق جونسون فى هديته

بعينين بللتهما الدموع وقال بصوت تخنقه العبرات : « إنها تحفة فنية » ، ثم وضعها فوق أحد المقاعد وانسحب من غرفة المعيشة إلى الصالة ليختلى بنفسه ويجفف دموعه . قال حين عاد : « لم أر مثلها من قبل إلا فى المجلات المصورة ولم أتخيل أبدا ... » وهنا غادر الغرفة مرة أخرى وقد ازدادت حمرة وجهه عن أى وقت مضى .

وقف أبى وأمى بجوار المدفأة يحتضن كل منهما الآخر ، وحين عاد جونسون قال أبى له : « لا يستحق الأمر كل هذا » .

قال جونسون : « بل يستحق وأكثر .. أنت لا تعلم ... »

قال أبى : « لا بأس . لا تقل شيئا . أفضل من الكلام أن تعد نفسك أنت وجيس للعيد وسأحملكما بالسيارة إلى وست فورك بيجين لتعودا لنا بوليمة من السمك . سيكون هذا أفضل من أى شيء تقوله . أجل . أفضل من كلمات الشكر » .

قلت : « أنا جاهز » وقال جونسون إنه سيكون جاهزا فى لحظة .

* * *

كان الغدير الذى حملنا إليه أبى ضيقا لا يزيد عرضه على عرض منضدة المطبخ . لكن مجراه كان سريعا متدفقا ، وكنا نعرف أننا سنجد تجمعات ومساحات مائية عريضة هادئة فى اتجاه المنبع . سلكنا هذا السبيل ونحن نتجنب أحراش « الليلك » ، ونتسلق الصخور العالية حتى وصلنا إلى مسطح مائى معتم هادىء باستثناء جزئه البعيد حيث كان الماء يفور وينثر بخاره البارد تحت شلال يسقط من ارتفاع ثمانى أقدام .

قال جونسون : « يبدو هذا الجزء صالحا . دعنى أختبره أولا بسنارتى وطعمى الصناعى بعض الوقت ثم تبدأ أنت فى الصيد بسنارتك الخيزرانية وطعمك الطبيعى . لقد جرت العادة أن يبدأ أصحاب الطعم الصناعى أولاً كما تعلم . هل توافق ؟ »

سألته : « بأى نوع ستبدأ ؟ »

قال : « بهذا النوع . يسمونه فيميل آدمز » . وأرانى كرة صغيرة وبرية ، لونها رمادى ممتزج بالبنى ، وتطوقها من ناحية حلقة من الزغب الرمادى المنفوش . لم أجد فيها ما يبهرنى ، ثم قال : « حسنا . فلنبدأ » .

وقف عند منفذ البركة وقد غاصت قدماه فى المياه حتى الكاحل وطوح السنارة فوق الماء . فى أول مرة اشتبكت ببعض أغصان أشجار اللبان المتهدلة خلف كتفه اليسرى . وفى المرة الثانية تعلقت بصخرة غطاها الطحلب فى منتصف البركة . أدار وجهه إلىّ وقال بابتسامة عريضة : « توتر الصياد عند اقتراب الفريسة » .

جلست على شاطىء البركة أنتظر دورى .

اشتبك الشص بكم قميصه القطنى الأزرق وحين شرع فى تخليصه التف خيط السنارة حول القصبة . وما أن تحرر الشص من الكم حتى اشتبك بالياقة حيث لا يراه فاضطر إلى خلع القميص وأسند القصبة على إحدى الصخور . وحين تحرر الخطاف من الياقة كادت السنارة أن تقفز إلى الماء فأسرع بالقبض عليها بكلتا يديه ، فسقط القميص فى الماء وطفا نحوى فالتقطته بطرف سنارتى ورفعته والماء يقطر منه .

قال : « انشره فوق هذه الشجيرة . سيجف فى لحظة » .

قلت : « يبدو أنك ستحتاج لوقت طويل حتى تتعود على العدة الجديدة » .. وأردت أن أقول المزيد لكنى خشيت غضبه .

ارتسم الشرود على وجهه وشخصت عيناه فى تصميم حاد ، ثم قال : « لا أعتقد أن هذا الجزء يصلح للصيد بهذا النوع من السنانير » .

كدت أن أصرخ فيه : وكيف تعرف هذا وأنت لم تضع الشص فى الماء بعد ! لكنى لم أتكلم .

- « سأذهب إلى مكان آخر أعلى الغدير وأترك هذا الجزء لك ، فهو يبدو مناسبا تماما للصيد بالطعم الطبيعى . إلحق بى حين تأخذ كفايتك » .

مضى . وحين كان يلف حول بقعة من الورد الجبلى الشائك لينطلق شرقا كنت أثبت بأسنانى قطعتين من الرصاص حول خيط سنارتى ثم شبكت فى الشص يرقة بيضاء سمينة ، وحرصت أن أشبكها من الرأس حتى يظل الجسم سليما . انتظرت حتى سكنت حركة المياه ثم طوحت الشص إلى بقعة لزجة تتماوج وسط البركة . بعد لحظة واحدة اهتزت السنارة فى يدى بشدة وكأننى تلقيت لكمة مباغتة على كتفى . تمالكت نفسى وسحبتها فى هدوء فإذا بى أجد سمكة سوداء مبرقشة من سمك التروتة ، طولها تسع بوصات تقريبا . خلصتها من الشص وضربت رأسها على صخرة ، ثم أحضرت غصنا بفرعين ، وضعت أحدهما فى فمها ، والآخر فى الخياشيم ، ثم غرست الغصن فى الطين على حافة البركة بحيث تتدلى السمكة فى الماء لتظل طازجة ،

كانت الشمس وقتها تكاد تتوسط السماء وتعلو قمم الأشجار ، وحين انتهيت من اقتناص ثلاث سمكات كبيرة أخرى كانت قد انحدرت إلى الأفق وتسلطت على كتفى اليسرى قوية دافئة . قررت ساعتها أن أكتفى بما اصطدت من سمك وأن أبدأ فى تنظيفه ، وشرعت فى الإعداد للّحاق بجونسون لأقترض منه مطواة جيبه .

علقت صيدى على غصن رفيع من الصفصاف لففته حول حزامى وأخذت طريقى .

وجدت جونسون على بعد نصف ميل ناحية المنبع ، مستلقيا فى الشمس فوق صخرة كبيرة ، وقد تخلص من كل ملابسه باستثناء سرواله الداخلى . كان سرواله الخارجى النحاسى اللون مفرودا بجواره وقد ابتل تماما . وكان هو يرقد ساكنا دون حراك وكأنه جسد فارقته الحياة .

- « ماذا حدث لك ؟ »

انتفض جالسا وصاح : « اصطدت سمكة » . ثم استرخى وأضاف فى

صوت أقل حدة : « كانت فى طول ساقى ، أقسم بالله يا جيس . والله العظيم . لكننى كنت أقف فوق الصخور ففقدت توازنى وسقطت فى الماء » .

- « وهربت السمكة ؟ »

أجاب وهو يومىء برأسه فى تصميم جاد : « لن تهرب منى طويلا . سنعود وفى المرة القادمة سأقبض عليها حتما » . ثم استلقى مرة أخرى على ظهره وأغلق عينيه .

- « أين سنارتك ؟ »

- « هناك . أليست جميلة حقا ؟ تعال واجلس بجوارى لحظة . أود أن أخبرك بشىء » .

أطعته وجلست : « ماذا ؟ »

فتح عينيه وتحدث وكأنه يدلى بأسراره إلى السماء الزرقاء فوقه . قال : « لم أجرب صيد الأسماك من قبل قط . هذه هى المرة الأولى . لكنى فكرت فى الصيد وتخيلته طويلا » .

- « هل تعنى أنك لم تجرب الصيد بهذا النوع من السنانير من قبل ؟ »

- « ولا بأى نوع آخر . وأين كان طفل يتيم مثلى سيصطاد ؟؟ »

- « لم يخطر هذا ببالى » .

- « لم أجرب شيئا رائعا كهذا من قبل . هذه أسعد أيام حياتى » .

جلست أنصت إلى خرير المياه فى الغدير واندفاعها وخيل إلىّ أنها تصطخب بآلاف الأصوات .

قال : « لقد وصلت إلى قمة السعادة ، ومن الآن فصاعدا سيبدأ التدهور نحو السفح » . ثم جلس واحتضن ركبتيه وقال : « أراهن أن اليوم هو نهاية أسعد أيام حياتى » .

ساد الصمت بيننا وجلسنا ننصت إلى همس الغدير وحفيف الشجر .

توقفت أعيننا فى تجوالها عند شجرتين عاليتين من أشجار الحَوْر على ضفتى مجرى الغدير تحتنا . تعانقت أغصانهما فتحول الفضاء بينهما إلى نافذة واسعة تطل على السماء . وبينما نتأملها مرق طائر عبرها سريعا ، سابحا من ظلال إلى ظلال . لم أتبين نوعه ، فقد حوله النور إلى ظل لا ملامح له .

كتيبة حماة الفضيلة

وصلنا خبر زيارة الخال لودن المزمعة فى صورة بطاقة بريدية مقتضبة أرسلها إلينا من مدينة رينو فى ولاية نيفادا . قالت حروفه الأرجوانية الفضفاضة : « أعدوا كمية كبيرة من خبز الذرة اللذيذ . سأصل فى القريب العاجل » . وشفع هذا باسمه الثنائى لودن سوريلز .

رفضت جدتى أن تسمح لى برؤية البطاقة فقد كانت تحمل صورة فوتوغرافية لبعض الراقصات فى ملابس كاشفة . لكن جونسون جيبس اختلسها وأحضرها لى خفية ، وقضينا معا وقتا طويلا نتأملها خلف مخزن الذرة . ورغم ذلك فقد أحسست بخيبة الأمل . كانت لقطة بعيدة لصف طويل من الراقصات لا توضح أيا من التفاصيل الهامة . قلت متذمرا : « لا أرى شيئا من التفاصيل » . ابتسم جونسون قائلا : « وهل تعرف حقا التفاصيل التى تبحث عنها ؟ »

ورغم خيبة أملى فى الصورة كان الخبر الذى حملته البطاقة رائعا حقا .

لكز أبى جونسون فى مرفقه قائلا : « سنأكل طعاما شهيا منذ الآن ، فالخال لودن هو الابن الضال فى هذه الأسرة وحين يعود تنحر من أجله كل العجول المسمنة ، خاصة وأن أيامه على ظهر الأرض أصبحت معدودة » .

سأله جونسون : « ماذا تعنى بأنه الابن الضال ؟ »

قال أبى : « مثل الابن الضال فى الكتاب المقدس . فالخال لودن لا يتورع عن مضاجعة خنزيرة إذا أعوزه الأمر ، أو أى شىء آخر فى متناول يده » .

كان عمل المزرعة الذى هزمنا قبل مجيء جونسون هو السبب فى رحيل الخال لودن فى بداية حياته ، فرغم أنه شقيق أمى ، فقد كان يفتقر إلى قدرتها البشوشة على التحمل ، وصبرها الطويل على الشدائد . بدأت مغامراته حين عثر ذات يوم على عربة قديمة متداعية من عربات نقل التبن ، فقام بإصلاحها وطلائها حتى بدت متينة مصقولة وكأنها جديدة . وفى يوم عيد ميلاده السادس عشر نجح فى بيع العربة إلى أحد الجيران السذج ، واشترى بثمنها دراجة بخارية وانطلق إلى كاليفورنيا وسط سحابة من الحصى المتطاير ، وعاصفة من المسامير المفككة التى انتثرت وانهالت مثل حبات البرد .

وهناك فى أرض الفرص الذهبية نجح فى الحصول على عمل يدر مالا حقيقيا فى صورة دولارات . تلك الدولارات الخضراء التى كانت فى ندرة حيوان الكنجارو فى مزرعتنا الجبلية الفقيرة . وكان يرسل إلى جدتى بين الحين والآخر شيكا بمبلغ يمثل عددا من تلك الكائنات الخرافية ، إلى جانب بعض الهدايا الأخرى . فأرسل لى مرة على سبيل المثال مسدس صوت بالكبسولات ، كما أرسل لجدتى علبة الحلوى الفاخرة التى وصفتها يوما بعبارة « بذخ البلهاء » .

علق جونسون قائلا : « يبدو رجلا مرحا كريما » .

قال أبى : « إن الكرم طبيعة متأصلة فيه ، وأظنه لن يفقدها أبدا إلا إذا خطر له بالطبع أن يمتنع عن الشراب » .

ثم أضاف : « لكنى لا أظن ذلك » .

ـ « آه . إنه يهوى الشراب إذن ؟! »

ـ « أجل . لكنه سكير من نوع خاص يختلف تماما عن الآخرين . والحق أن الخال لودن رجل فريد فى نوعه . سترى بنفسك يا جونسون . انتظر حتى تراه يتشمم الهواء ويمضغ شاربه العتيق ويحوم فى دورية دائمة يتفقد أحوال النساء » .

ـ « آه . إنه يهوى النساء أيضا ؟! »

- « وأى هوى ! »

قال جونسون : « لقد شوقتنى لرؤيته . سيصل خلال يوم أو يومين فيما يبدو » .

قال أبى : « سيصل حين نراه فهولا يلتزم بمواعيد محددة » .

سألت أبى : « ترى هل سيحضر مسدسه ؟ »

قال : « أعتقد أنه سيحضر كل وسائل الفساد والشقاوة التى يستطيع أن يحملها على دراجته البخارية » .

سأل جونسون : « أيحمل مسدسا إذن ؟ آمل ألا يكون من الأشقياء الخطرين » .

قال أبى : « بالضبط . حين يمشى الخال لودن فى الطريق ترتعد فرائص الرجال الأشداء فرقا ، وتتعالى صرخات النساء . إذا كنت تشعر بالخوف فأنصحك بالاختباء فى الغابات حتى يرحل » .

- « كلا يا عزيزى . لابد أن أرى هذا السيد . إننى أفضل رؤيته عن رؤية سانتا كلوز » .

* * *

مضى أسبوع قبل أن يصل ، وبدلا من دراجته البخارية المعتادة كان يقود شاحنة طويلة حمراء مقفلة جهزها للمبيت والإقامة أثناء رحلته الطويلة من مدينة لوس أنجلوس إلى مسقط رأسه .. كان مسكنه المؤقت داخل عربة النقل ضيقا معتما لكنه يحوى العديد من المفاجآت والروائح المثيرة . ورغم ذلك شعرت بخيبة الأمل لأنه لم يأت على دراجة بخارية تندفع داخل الفناء صاخبة هادرة . كنت أود أن أتدرب على ركوبها حتى إذا حان الوقت تيسر لى الفرار أنا أيضا إلى كاليفورنيا . أعتلى الدراجة وأديرها بقدمى ، وأنطلق كسحابة بخار فى الشمس الغاربة .

وصل الخال لودن فى ميعاد العشاء بالضبط وترك عربته فى الطريق

العام أسفل فناء المنزل . قفز أبى من مكانه وأطفأ أنوار غرفة الطعام وقبعنا فى الظلام ننتظر .. شاع فى الغرفة جو غامض من الترقب يشبه أجواء عيد الميلاد ، رغم أننا كنا فى آخر فصل الربيع ، وكان الغسق فى الخارج ينبض بنقيق الضفادع المنتظم .

قال أبى : « تعال يا جونسون . أريدك أن تشاهد هذا » .

كان مقعد السائق على الجانب الآخر من العربة لا نراه ، لكننا سمعناه ينفتح ، وبعد برهة طويلة - أو هكذا بدت لنا - سمعناه ينغلق . بلغ بنا الصمت والسكون مداه حتى أننا سمعنا أنفاسنا تتردد ، وكذلك تكات ساعة الحائط فى غرفة الجلوس المجاورة ، بل لم يحاول أحد منا أن يكمل مضغ ما فى فمه من طعام أو يلوكه . وأخيرا ظهر رأس الخال لودن فوق غطاء محرك الشاحنة . كان قصير القامة فلم يظهر منه سوى رأسه الذى أخذ يتحرك حثيثا إلى الأمام وكأنه محمول على طبق . مشى متمهلا إلى مقدمة العربة ووقف يتفحصها ، ثم أخرج من جيبه الخلفى منديلا كبيرا أزرق ، به نقط بيضاء ، وشرع فى تلميع الحلية التى تزين غطاء المحرك ، ثم نفخ على المنديل بأنفاسه ومسحها بحب للمرة الأخيرة ، بعدها طوى المنديل بعناية فى مربع دقيق وأعاده إلى جيبه واستدار ليواجه الحقول والسماء .

همس أبى : « والآن راقبه جيدا يا جونسون . سوف يتشمم الهواء ليتحقق من وجود الويسكى فى مقاطعة أوسجود » .

رفع الخال لودن وجهه إلى السماء ، وأخذ أنفاسا عميقة أتبعها بأنفاس قصيرة متلاحقة تشبه نفثات الدخان التى تصدر من مدخنة قاطرة بخارية تستعد للسير . وأخيرا ملأ رئتيه بالهواء فى نفس عميق . استدار ناحية الغرب وكرر هذه الدورة ثم ناحية الشمال وأخيرا الشرق .

سأل أبى جونسون : « هل يذكرك هذا بشىء ؟ »

قال جونسون : « بالسنجاب . يبدو أن نصفه سنجاب » .

طرقعت جدتى بلسانها فى استنكار ، لكنها لم تقل شيئا .

قال أبى : « نصفه سنجاب والنصف الآخر بغل . هل رأيت فى حياتك بغلا يأكل الشوك ؟ ستراه الآن .. انظر » .

شرع الخال لودن فى مضغ شاربه .. فى البداية أخذ يقرض الشعر أسفل أنفه ، لكن يبدو أن ذلك لم يشبعه تماما ، فجذب الجانب الأيسر من شفته العلوية إلى أسفل ، وأخذ يجرى أسنان فكه السفلى فوق الشعيرات الخشنة النافرة التى امتزج سوادها بالرمادى وكأنه يجزها بمقص مشرشر . ثم فعل نفس الشىء مع الجانب الأيمن ، ثم أعاد الكرّة مع الجانبين . لم يتبق من الشارب سوى الأطراف الشاردة فالتقطها ودسها بإبهميه فى ركنى فمه وأخذ يقضمها ويمضغها ويمصها ، وكأنه يعالج عقلة من قصب السكر .

كنت أدرك جيدا أن أى إنسان نراقبه دون علمه قد يبدو غريبا فى سلوكه ، بل ومثيرا للسخرية . ومن منا يحب أن يشعر بأن أحدا يراقبه معظم ساعات اليوم ؟! لكن غرابة سلوك الخال لودن كانت تفوق أى شىء رأيته من قبل . بل إننى أحسست أننى أراقب شخصا يختلف عنى تماما وكأنه حيوان قارض ، أو كائن من نوع آخر لا أستطيع تفسير سلوكه وعاداته الصغيرة ، أو فهم دوافعها . لقد كان فعلا ـ كما وصفه والدى ـ حيوانا من فصيلة مختلفة ، وإلا لماذا أخذ الآن يتفحص شاحنته من الأمام إلى الخلف بهذه الدقة المتناهية ، ويركل الإطارات ويطرق الهيكل المعدنى بمفصلات أصابعه ؟!

قال أبى : « لقد قاد تلك الشاحنة مسافة ثلاثة آلاف ميل ، ويود أن يتأكد أنها نفس العربة التى بدأ بها الرحلة » .

قالت جدتى : « هذا يكفى يا أولاد . لقد سخرتم من الخال لودن بما فيه الكفاية . والآن أنزل إليه يا جيس بسرعة ورحب به » .

جريت خارج الباب وعبر الفناء وكأننى عدّاء تلقى إشارة بدء السباق ، وفجأة ألقت الأشجار بظلالها وانطلق ظلى يعدو أمامى . كانوا قد أضاءوا مصابيح المنزل . رفع الخال لودن وجهه إلى وهج الأنوار ، وقد ارتسمت

عليه المفاجأة وكأنه سنجاب بوغت وهو ينظف نفسه . لكن سرعان ما انفرجت أساريره فى ابتسامة واسعة .

* * *

تنبأ أبى بأن طعامنا سيكون شهيا وسخيا أثناء زيارة الخال لودن ، وصدقت نبوءته . كانت الكميات سخية على غير العادة ورأينا على المائدة - لأول مرة منذ عيد القيامة - أطباقا دسمة وطعاما حقيقيا لذيذا إلى جانب حبات الخوخ المخللة . بل إن جدتى صنعت كعكة بالشيكولاتة ، وإن جاءت منبعجة وفى لون القار ..

قال أبى : « يبدو أن حكاية الابن الضال هذه لعبة رابحة . علينا أن نجربها يوما أنا وأنت » .

قال جونسون : « بكل سرور . لقد بدأ بدراجة بخارية ، وأصبح الآن يمتلك شاحنة .. ومن يدرى ؟ ربما جاء فى المرة القادمة راكبا سيارة كاديلاك » .

ولم يكن الطعام هو الشيء الوحيد الذى تغير فى حياتنا . لم يكن جرس التليفون يدق فى العادة ثلاث مرات فى الشهر على أحسن تقدير . لكنه الآن بات لا ينقطع . كان رنينه يجلجل فى البيت كل ساعة ليلا ونهارا ، وكأن روحا شيطانية قد تلبسته . كانت المكالمات دائما للخال لودن ، وكان المتكلمون دائما من النساء - نساء يتحدثن بأصوات ملهوفة نسمعها عبر الغرفة .

كانت أمى تأتى إليه وتقول : « مكالمة لك يا أخى » فينظر إلينا واحدا تلو الآخر فى ترقب ، ثم يوجه إلينا إبتسامة جماعية فرحة وغمزة عين ، وينهض متمهلا من كرسيه ويمشى متبخترا نحو التليفون . كان يبدأ المحادثة دائما بقوله : « كيف حالك الآن يا حبوبة ؟ أين يقام الحفل ؟؟ » ولا أظن أن هذه الكلمات كانت لتتغير حتى لو كان المتحدث إليه على الخط هو ونستون تشرشل شخصيا .

سأل جونسون : « كيف علمن بوجوده هنا ؟ لقد وصل لتوه ! »

رد أبى : « بالغريزة . كان رأيى دائما أن الخال لودن يصدر رائحة ما ، تشبه رائحة المسك ، لا يتبينها الرجال » .

- « ولكن أين تختبىء كل هؤلاء النساء ؟ حين أبحث عن فتاة أخرج معها لا أجد سوى قلة معدودة فى الإقليم كله » .

- « هؤلاء النسوة لا يصلحن لك .. مازلت صغيرا ولا تمتلك بعد الخبرة اللازمة للتعامل مع هذا النوع من الإناث » .

قال جونسون : « أنت مخطىء فى هذا ولا تستطيع أن تتخيل مدى استعدادى وخبرتى » .

ذات يوم كنت وحدى فى البيت حين دق جرس التليفون .. كان الخال لودن قد ذهب مع بقية أفراد الأسرة لتفحص عش دبابير فى إحدى أشجار الخروب ، وكنت قد تلكأت فى اصطحابهم لأختلس رجل دجاجة من الثلاجة .

حين رفعت السماعة جاءنى صوت امرأة بالطبع . كان صوتا مخمليا ضاحكا . قالت : « أريد أن أتحدث إلى هذا الولد الشقى الشرير لودن سوريلز الآن .. فورا » .

قلت : « لقد خرج » .

قالت : « إلى أين ؟ »

قلت : « ليفحص عشا للدبابير » .

صمتت لحظة ثم قالت : « أخبره أن « سو السريعة » تجلس الآن هى أيضا فوق عش للدبابير ، ومن مصلحته أن يتصل بها فور عودته » .

- « سو السريعة ؟! »

- « قل له فقط إن صديقة قديمة حبوبة تعرفها تدعى « سو السريعة » قد اتصلت وسوف يفهم » .

حين عادوا أخبرته بالرسالة التليفونية الغامضة وأن صديقة قديمة حبوبة تدعى « سو السريعة » تجلس الآن فوق عش للدبابير تنتظر مكالمته التليفونية .

غمغم ومضى يمضغ شاربه حتى أبلاه . وأخيرا قال : « سو السريعة ؟ لا أنكر واحدة بهذا الاسم . أختاه هل تذكرين امرأة تدعى « سو السريعة ؟ »

قالت : « إننى على ثقة تامة يا لودن أننى لا أعرف واحدة بهذا الاسم » .

غمغم مرة أخرى . وفكر برهة . ثم استغاث بأبى . قال : « فكر معى يا جو روبرت . من تكون سو السريعة هذه ؟ »

رد أبى : « لو كنت أعرفها لما اعترفت بهذا فى هذه الظروف » .

غمغم مرة أخرى وسألنى بغمزة طويلة من عينه : « وأنت يا جيس ؟ »

قلت : « لا أعرف أحدا بهذا الاسم . لكن لماذا تجلس فوق عش للدبابير ؟ »

قال : « كل منا لديه همومه الخاصة التى يحملها يا جيس . ليتنى أتذكرها » .

قال أبى : « لماذا لا تتصل بها على أى حال ؟ هذا أفضل . ربما كانت حقا صديقة قديمة » .

غمغم وقال : « كلما ازداد عدد الأصدقاء الأقرباء عظمت سعادة الإنسان . كانت لى صديقة حميمة حقا فى كولورادو ذات يوم ، لكنها ماتت » .

سألته : « وما سبب موتها ؟ »

قال : « النكد . أصابها بسل الكلاب » .

* * *

أحضر لنا الخال لودن بعض الهدايا من ذلك العالم الغريب الذى يقع خلف الجبال ويقصر الخيال عن تصوره . أهدى جدتى شالا ذا وبر ناعم ، وأمى شالا أسود من الدانتيلا من النوع المكسيكى الذى يصنع يدويا ، وتلقى

جونسون مسدسا عيار ٢٢ ، وأبى مسدسا من ماركة مارلن عيار ٣٠ ـ ٣٠ ، له مخزن طلقات من خشب الجوز . أما أنا فكان من نصيبى سلسلة من الهدايا بدأت بشارة حقيقية لمخبر شرطة ، وانتهت بصندوق مجهز بعدستين إذا نظرت داخله توالت أمام عينيك صور جذابة لدستة أو أكثر من النساء العاريات .

استخدم أبى سلطته الأبوية وصادر هذه الهدية الأخيرة ، ووعدنى بأن يردها إلىّ حين أكبر قليلا ثم أردف قائلا : « هذا طبعا إذا لم تبل من كثرة استخدامى لها » .

قال جونسون : « دعنى ألق نظرة .. ما أجمل الخال لودن وما أظرفه ! »

قال أبى : « أجل . قلب من ذهب . يستطيع أن يتجول فى هذه التلال أينما شاء ، وفى كل مكان سيجد من يرحب به ضيفا فى بيته ولكن ليوم أو يومين فقط » .

ـ « لماذا ؟ أيستنفد طاقتهم بهذه السرعة ؟ »

ـ « إذا رصدت مكالماته التليفونية فستجد أن المتحدثين فى الأسبوع الأول هم صديق أو صديقان من ندمائه القدامى ، إلى جانب أعداد لا تحصى من النساء . بعد ذلك تتغير الأصوات تدريجيا وتغدو أكثر عمقا وخشونة وعلوا وغضبا ـ فهى أصوات أزواج الصديقات وآبائهن وأصدقائهن ، وحين يخفت آخر صوت نسائى ويختفى يبدأ الخال لودن فى الحنين إلى الغرب الذهبى العظيم مرة أخرى » .

قال جونسون : « من الأفضل أن يهدىء اللعب قليلا . خير له أن يتزوج » .

قال أبى : « أرجو ألا يفعل ذلك ، فلديه وفق علمى ثلاث زوجات حتى الآن ! »

ـ « ثلاث زوجات ؟! هل ينتمى إلى طائفة دينية تبيح تعدد الزوجات ؟ »

ـ « إنه لا يأخذ الدين مأخذ الجد . أخبرنى أنه حاول مرة أن يطالع الكتاب المقدس واكتشف أنه لا يستطيع نطق الأسماء التى ترد فيه » .

ـ « هل تظن أن أحد الأزواج قد يطلق عليه الرصاص ذات يوم ؟ »

ـ « لقد حالفه الحظ حتى الآن .. لكن الخطر قائم .. وهذا يوحى إلَىّ بفكرة قد تتبلور إلى خطة ننفذها معا » .

ـ « خطة من أى نوع ؟ »

ـ « سأخبرك فيما بعد » .

رفع جونسون الصندوق إلى ضوء الشمس ونظر داخله ، وأطلق صفيرا حادا ثم قال : « هل رأيت حمراء الشعر هذه يا جو روبرت ؟ »

ـ « ذات العينين الخضراوين ؟ »

ـ « ألها عينان أيضا ؟ »

قلت : « دعنى أنظر مرة واحدة » .

قال جونسون : « لابد أن تنتظر حتى تكبر وتدرك هذه الأمور » .

نكست رأسى ونظرت إلى « بوز » حذائى البالى وأنا أقول لنفسى أن هذا سيظل قدرى دائما ، فمهما كبرت وحتى لو أصبح عمرى فى عمر جبل إمبر ماونتين العتيق سيظلون يخبئون عنى الأسرار الهامة . وحين أبلغ من العمر التاسعة والتسعين وأجلس فى مقعدى الهزاز فى الشرفة ، أمشط لحيتى البيضاء الطويلة ، قد يأتى إلى طفل أشقر صغير ويسألنى : « ماذا يقصدون يا جدى بحقائق الحياة ؟ » وساعتها سأنحنى إلى الأمام فى جلستى ، وأبصق لعابى الملوث بالتبغ فى علبة معدنية صدئة ، وأقول : « لا أعرف والله يا بنى ، فقد رفض الأوغاد أن يخبرونى بها » .

* * *

ولما كان للخال لودن شهرة ملكية فى شرب الخمر ، فقد كنا فى أشد الشوق لرؤيته وهو مخمور . لم نتصور أنه سوف يترنح أو يتقيأ مثل

الآخرين ، وخطر لنا أنه ربما وزع الأموال على الحاضرين فى نشوته ـ أو هكذا راودنا الأمل سرا . أو ربما كان مثل فيرجيل كامبل حين يشرب فيكتفى بمراقبة السحب العابرة ، والصفير والغناء حتى غروب الشمس .

كان يهيأ لنا أحيانا أنه تناول كأسا أو كأسين ، لكننا لا نستطيع القطع بذلك ، فلم يكن يطرأ على سلوكه تغيير ملحوظ . كان صوته يغدو أكثر عمقا وتشوبه بعض الحشرجة ، وكانت خطواته المتبخترة تبطىء بعض الشىء . هذا كل ما فى الأمر . لم يكن هذا ما توقعناه وأصبنا بخيبة أمل .

ولكن ذات صباح رأيناه مخمورا بصورة واضحة لا لبس فيها . كان قد أمضى الليلة كلها بالخارج « يزور بعض الأصدقاء » كما قال ، وعاد فى الصباح يقود شاحنته بسرعة خمسة أميال فى الساعة . زحفت العربة على الطريق ثم انحرفت وتوقفت ، وقد تعلقت عجلتاها الأماميتان فى الهواء فوق حافة الهوة .

كنت مع جونسون فى شرفة البيت الأمامية نشحذ نصال الفئوس والمناجل التى سنحتاجها فيما بعد خلال هذا الفصل من العام .

راقب جونسون الشاحنة تقترب ، وحين استقرت فى وضعها الخطر على حافة الطريق غمغم فى دهشة وتعجب وأومأ برأسه إلىّ إيماءة ذات مغزى .

لم يحدث شىء لفترة طويلة .. ثم انفتح الباب وعافر الخال لودن حتى خرج بصعوبة من باب المقعد المجاور لمقعد السائق . وقف فى الطريق يسحب أنفاسا عميقة ويجول بعينيه فى المكان وكأنه لم ير هذه البقعة من الولايات المتحدة من قبل . ثم اتجه إلى خلفية الشاحنة وفتح بابها واختفى داخلها .. وبدا أن هذه المناورة استغرقت وقتا طويلا ..

قال جونسون : « ياه ! أستطيع أن أشم رائحة الويسكى المنبعثة منه من مكانى هنا . هل تشمها يا جيس ؟ »

أومأت برأسى رغم أننى لم أشم شيئا بالطبع .

تأرجحت الشاحنة على الحافة صعودا وهبوطا من جراء حركة الخال لودن الصاخبة ، فقد بدا وكأنه يبحث عن شيء ، وترامى إلى أسماعنا صوته من الداخل مكتوما فلم نميز هل كان يغنى أم يكلم نفسه . ثم سكنت حركة الشاحنة فترة فاعتقدنا أنه قد زحف إلى سريره داخلها واستغرق فى النوم . لكنه لم يلبث أن فتح الباب الخلفى مرة أخرى وخطا إلى الطريق ودار حول نفسه بتمهل ثلاث دورات وكأنه يستعرض نفسه أمام العالم أجمع كى يراه . كان يرتدى قبعة من قبعات رعاة البقر ذات قمة غائرة على طريقة أبطال الأفلام ، وعلى صدره حزام من ماركة سام براون ويتدلى فوق فخذيه ـ فى جرابين من الجلد المزخرف ـ مسدسان شرسان ، من عيار ٥٤ . توقف عن الدوران ورفع عينيه إلى قمة السماء الزرقاء ، وهمس فى صوت رتيب حزين : « يا للروعة ! »

قال جونسون : « يا الله ! إنه يبدو كأحد أبطال الأفلام ! لقد صنع من نفسه « جين أوترى » آخر . ترى ماذا سيفعل بعد ذلك ؟ »

ـ قلت : « لا أدرى » .

فجأة جاءنا صوت جدتى . قالت :

ـ « أما أنا فأعرف مع الأسف الشديد » .. كانت نبرتها حزينة كأعمق ما يكون الحزن . كانت مراقبة الخال لودن قد استغرقتنا تماما فلم نسمعها تقترب ولم ننتبه لوجودها . نظرت إلى ابنها هناك أسفل المنزل ، وارتسم على وجهها تعبير موجع امتزج فيه الأسى العميق بالحنان ، فلم أتحمل النظر إليها وحولت عينى عنها .

اتجه الخال لودن إلى الباب الخلفى للشاحنة مرة أخرى ، وعاد بصندوق من الكرتون حمله إلى قمة التل ووضعه إلى جوار السياج الخشبى الذى يحيط بمرعى الخنازير القديم ، ثم بدأ يلتقط من الصندوق ، واحدة تلو الأخرى ، عددا من العرائس الصغيرة ذات العيون المرسومة والفساتين المصنوعة من الجص وبقايا الأقمشة ـ أى من ذلك النوع الرخيص الذى يباع فى متاجر الخردوات ـ ويرصها جنبا إلى جنب فوق السياج . كان يفعل ذلك بتمهل شديد

وعناية فائقة ، لكن الأمر لم يخل من سقوط دمية هنا ودمية هناك ، فاستغرق إنجاز المهمة وقتا لا يستهان به . لكنه أنجزها فى النهاية على أى حال واصطفت العرائس الاثنتا عشرة فوق السياج ، فرجع إلى الوراء بضع خطوات ليتأمل نتيجة عمله .

قال جونسون : « يا له من مشهد غريب حقا ! »

تصورت أولا أنه يشير إلى زى رعاة البقر الذى يرتديه الخال لودن . لكنه كان يعنى مشهد العرائس التى اصطفت فى ملابسها الغريبة ، فوق السور الخشن المعوج ، فبدت بائسة وحيدة وشاذة فى المكان .

مشى الخال لودن مبتعدا عن السياج حتى وصل إلى الطريق ، ثم استدار ليواجه الدمى على بعد خمس عشرة ياردة.

قال جونسون : « إذا كان يتصور أنه يستطيع أن يصيب هذه الدمى بمسدسه فسيعرف أن الأمر ليس بهذه السهولة . إنه مسطول إلى حد لا يستطيع معه أن يصيب هدفا فى حجم تل متوسط » .

لكنه لم يخطىء الهدف مرة . سحب المسدس من جرابه الأيمن بتمرس ونعومة ، وأصاب الدمية الجصَّية الأولى فى الصف فتهشمت وتحولت إلى كومة من التراب . ثم قال فى صوت ثابت حازم واضح جلى النبرات : « لقد اعترفنا بعجزنا عن مقاومة إغراء الخمر ، وأن حياتنا قد تعثرت لهذا السبب » .

سأل جونسون : « ماذا يقصد ؟ »

قالت جدتى : « اسكت يا جونسون » .

رفع الخال لودن مسدسه ثانية وهشم الدمية التالية بطلقة واحدة ، دون أن يبذل عناية فى التصويب ، أو هكذا بدا الأمر لنا . بعدها قال : « وقد آمنا بأن خلاصنا وشفاءنا من الجنون لن يتحقق إلا على يدى قوة أقوى منا وأعظم » .

وهكذا استمر يطلق الرصاص حتى نهاية صف الدمى دون أن تفلت واحدة ، وكان يتبع كل طلقة بجملة محددة . علمت فيما بعد أن كل جملة من هذه الجمل هى إحدى الخطوات الاثنتى عشرة التى تدعو إليها جمعية مدمنى الخمر المجهولين وتستخدمها كخطوات للشفاء من الإدمان . وحين فرغ المسدس الأول من الطلقات انتقل إلى مسدسه الثانى وأثبت براعة فى التصويب باليد اليسرى تماثل براعة اليد اليمنى .

بعد أن تهشمت آخر دمية وقف لحظة يتأمل السياج الخالى ، ثم استدار وتقدم نحونا . توقعت أن أجده مزهوا ببراعته فى فن الرماية ، ولكنه حين اقترب كانت شفتاه مزمومتين فى تعبير صارم حزين ، وعكست عيناه تحت حافة قبعته الكبيرة الثقيلة إحساس رجل يعانى من هم عظيم يكاد يفقده وعيه . عَبَر الشرفة فى صمت دون كلمة إلىّ أو إلى جونسون . فقط وجه نظرة دامعة قصيرة إلى جدتى وغمغم : « سامحينى يا أمى » .

مسحت على كتفه بلمسة خفيفة من ظهر يدها وقالت : « اذهب واسترح الآن . وبعد قليل سأعد لك شيئا من الطعام » .

فتح باب المطبخ وأغلقه وراءه فى هدوء .

صاح جونسون : « بعد الذى رأيته كل ما أتمناه ألا يغضب منى أبدا . أرأيتما ماذا فعل ؟! »

ردت جدتى : « إنه لا يغضب من أحد أبدا إلا نفسه » . لاحظت على أنفها آثار دمعة انفلتت من عينيها وتسربت إلى حافة نظارتها .

* * *

جرت الأمور على عادتها بعد ذلك دون أدنى تغيير وكأن حادثة العرائس والمسدسات هذه لم تكن إلا حلما تراءى لنا أنا وجونسون . لم نتحدث عنها قط ، واستأنف الخال لودن أنشطته العديدة التى لم يكن يشركنا فيها .

ورغم ذلك ، فقد أشركنا فى قراءة خطاباته ـ تلك الخطابات التى بدأت

تصله تباعا إلى جانب المكالمات التليفونية . كانت الخطابات تصل فى أظرف بيضاء عادية لا تحمل عنوان الراسل ، وتحمل رسائل مكتوبة على ورق رخيص بحروف كبيرة منفّرة . قالت الأولى :

« اعرف ماذا تفعل . خذ الحذر » .

بعد ذلك توالت الرسائل بمعدل اثنتين أو ثلاث يوميا ، وازدادت نبرة التهديد حدة وصراحة . ففى إحدى رسائل المرحلة التالية من التهديد مثلا جاء التحذير التالى : « دع نساءنا وشأنهن وإلا قصفنا عمرك » . لم تكن الرسائل كلها بنفس الخط فبدا لنا وكأن قبيلة كاملة من الرجال الغلاظ الأفظاظ يعيشون فى التلال ولا يعجزهم الحصول على أقلام الرصاص ، أو الوصول إلى صناديق البريد .

فى البداية كان يرينا الخطابات وهو يبتسم نصف ابتسامة بلهاء ، وقد بدت عليه الحيرة . ولكن بمرور الأيام حلت علامات القلق مكان الحيرة . سألنا : « من تظنون يرسل هذه الخطابات ؟ »

أجاب أبى : « لا أدرى ، ولكن ربما كان شخصا يريدك ألا تخرج من البيت ليلا . لو تلقيت خطابا مثل هذا مثلا لترددت وفكرت فى الأمر مليا » . ثم دفع بأطراف أصابعه خطابا إلى خالى عبر مفرش المائدة . قالت الرسالة : « إذا أردت أن تنقذ حياتك فكف عن حل أزرار سروالك » .

قال الخال لودن : « إننى لا أوذى أحدا ، ولا أذهب إلى مكان لا أجد فيه ترحيبا » .

– « ربما كان الترحيب العظيم الذى تلقاه هو الدافع وراء هذه الخطابات » .

– « إنها لا تخيفنى . ولن أغير مشروعاتى أو أسلوب حياتى » .

قال أبى : « لو كنت مكانك لخفت » .

* * *

وكان أحد هذه المشروعات نزهة خلوية اعتزم القيام بها معنا . قال إنه يعشق النزهات الخلوية والطعام فى الهواء الطلق وأنه منذ أن غادر مدينة رينو يحلم بوليمة من أرجل الدجاج المحمرة وفطيرة نبات الراوند على قمة جبل إمبرماونتين .. انهمك فى الإعداد للنزهة بتأن عظيم ودقة بالغة شملت كل جوانبها وتفاصيلها . قال إنه يريد أن يستوفى كافة التفاصيل وينسقها فاستغرق إنجاز المهمة ثلاثة أيام كاملة . وأخيرا جاءت ليلة الجمعة فطلب منا جميعا أن نستيقظ مبكرا فى الغد ، ونكون على أهبة الاستعداد لننطلق إلى بقعة أعلى الجبل تدعى ليكس كيليت جاب ، وهناك نستمتع فى الخلاء بوليمة عائلية من الطراز القديم .

قالت أمى : « أجل وليمة عائلية . ما أجملها من فكرة يا أخى » . كانت ترحب بأى نزهة أو مناسبة تجمع شمل العائلة كلها ، ولو كانت مصارعة ديوك فى الجحيم - طالما ذهبت الأسرة بأكملها .

ولكن حين طلب منا الخال لودن أن نستيقظ مبكرا لم يكن يعنى بهذا أن ننهض عند شروق الشمس ، ففى الساعة الثالثة والنصف صباحا أفزعنا صوت مفاجىء أيقظنا من سباتنا ، وكان يشبه صوت جبل ينهار . كان الخال لودن قد أطلق بعض الألعاب النارية داخل إناء معدنى كبير من آنية الألبان - سعته عشرة جالونات - وضعه فى بئر السلم . اهتزت نوافذ البيت وصلصلت وارتعدت الألواح الخشبية وخفقت .

صاح فى الألعاب النارية : « هيا أيقظوهم من النوم . من يريد أن يصحب لودن سوريلز فى نزهة خلوية فلينهض على الفور » .

تدحرج جونسون من سريره الخشبى الطويل من وقع الصدمة وسقط على الأرض وهو بملابسه الداخلية ، وقد وقف شعره مثل أسنان معدنية مدببة . نظر إلىّ فى فزع وهلع وقال : « يا إلهى ! ماذا حدث ؟ هل جاء هتلر أخيرا بقنابله ؟! »

تواثبت على سريرى فى فرح وقلت : « بل الخال لودن . إنه يوقظنا من أجل الرحلة » .

فجأة سمعنا طلقات مسدس فهرعنا إلى النوافذ الضيقة فى السطح الجملونى لنستطلع الأمر . وما أن نظرنا خلالها حتى اندفع إلى السماء أمامنا بسرعة البرق شريط وردى / برتقالى من النار يصدر أزيزا ويسعى نحو النجوم . غاب عن الأنظار لحظة ، ثم انفجر وانتثر على شكل زهرة من نور - زهرة هائلة من نوع « دانتيللا الملكة آن » اختلط فيها الأزرق الشفاف بالأخضر اللامع والذهبى البراق . ثم سمعنا أصوات انفجارات بعيدة مكتومة .

سألت : « ما هذا ؟ »

أجاب جونسون : «صاروخ نارى . يالجماله ! » لمعت عيناه وكأنهما قطعتان من الزجاج بلله الماء ، ثم قال : « لا أدرى لماذا يحرص خالك على إحاطة النزهة بكل هذه السرية ؟ كان من الممكن ألا نستيقظ فى الوقت المناسب وأن تفوتنا » .

كان الخال لودن قد عاد إلى المنزل بعد إطلاق صاروخه ، وبدأ يحثنا على الاسراع ويسوقنا إلى الخارج كأحد رعاة البقر وهو يصيح : « اغسلوا ملابسكم وارتدوا آذانكم ! »

اصطحب الخال لودن جونسون معه فى الشاحنة وتبعناهما أنا وأبى وأمى وجدتى فى عربتنا « البونتياك » المتهالكة . جلست جدتى إلى جوارى على المقعد الخلفى المغطى باللباد المضلع ، وتساءلت فى نفسى ترى ماذا يدور برأسها ؟ لم أتمكن من رؤية وجهها لأعرف الإجابة . خيم الصمت علينا فى العربة ربما لأننا لم نعتد الخروج فى هذه الساعة المبكرة ، وربما أيضا لأن ثمة شعورا - حرت فى تعريفه - قد داهمنا .. بدا كل شىء غريبا حولنا وبدونا كعنصر غريب وسط الطبيعة .

كانت المناظر تفر من أمامنا وتختفى فلم يبق لنا من رفيق سوى النجوم . توالت أمام أعيننا الحقول الندية ، والأسلاك الشائكة ، والأبقار المسترخية ، والأجران والبيوت النائمة - توالت سريعا وفرت مثل صفحات كتاب تطوى . عبرنا مدينة تبتون . بدت إشارات الوقوف الحمراء الأربع التى تقطع شوارعها الموحشة وحيدة مهجورة ، بينما تصاعد الدخان وهدير الآلات

من مصنع تشالنجر للورق حتى فى هذه الساعة المبكرة . حملتنا العربة إلى قمم مرتفعة وهوت بنا إلى سفوح يلفها الضباب ، ثم انطلقت كالسهم تعبر وادى نهر بيجون العلوى ، وتنهب الطريق المستقيم بحذاء النهر الذى ظللته أشجار البلوط العالية . مضيئا خلف شاحنة خالى ، تقودنا أنوارها الخلفية الحمراء وتجذبنا مسافات ومسافات حتى خيل لى أننا لا نسعى إلى مكان على الأرض بل إلى بقعة وسط النجوم .

أخيرا وصلنا إلى الجبل وانعطفت الشاحنة حول منحنى فى الطريق وغابت أنوارها الخلفية عن عيوننا . أحاطت بنا الأشجار الآن عن كثب ، وتعانقت فروعها الكثيفة فوقنا فغدا الطريق أشبه بنفق مظلم متعرج . سطعت أنوار السيارة الأمامية على الأشجار فأقلقت نومها الأزلى القديم . كان الطريق يزداد انحدارا كلما تقدمنا ، وجاهدت سيارتنا القديمة لتحملنا إلى القمة .

لحقنا بعربة الخال لودن قريبا من القمة ، وانعطفنا خلفه داخل غابة على جانب الطريق . تهادت السيارة على أرضها الرخوة التى غطتها أوراق الأشجار المبتلة ، وأشواك أشجار الصنوبر حتى وصلنا إلى مكان فسيح .. قفزنا خارج العربات وشرع أبى على الفور فى إشعال نار للطهو بمساعدة جونسون . وقف الخال لودن يراقبهما عن قرب بشغف شديد لكن دون أن يتدخل . حين ارتفعت ألسنة اللهب وصبغت وجوهنا بضوئها البرتقالى مشى إلى الجانب الآخر من الساحة ليتحدث إلى جدتى . قال : « فى هذا المكان كان صديقى القديم جورج - الذى كنا نلقبه بالديك الرومى - يقضى الليل حين يقوم برحلات الصيد » .

حدقت فى الظلام كى تراه وقالت : « لهذا بدا مألوفا .. أحسست أننى رأيت هذا المكان من قبل . أظن أن هذا الشيطان الصغير جورج كان فى هذه النواحى ، فى مكان لا يبعد عن هنا كثيرا ، حين لدغه الثعبان واضطروا إلى النزول به من الجبل محمولا على الأكتاف » .

انخرطا فى الحديث عن الأيام الخوالى فابتعدت وذهبت إلى حيث كان جونسون يشعل نارا صغيرة أخرى لصنع القهوة ووقفت أراقبه . لم أشعر

برغبة فى الاستماع إلى حكايات الماضى بكل مآسيها التافهة وفواجعها الصدئة .. كان أبطال تلك القصص القديمة دائما من ساكنى الجبال ، وكنت أشعر أنهم غرباء عنى تماما كما لو كانوا من سكان سيبريا .. كانت جدتى تحدثنى عن الأيام الخوالى وكأنها تقول لى صراحة : إننى لو عشت فى تلك الأيام لما بقيت طويلا على قيد الحياة .

وضع جونسون شبكة معدنية قديمة فوق النار وفوقها إبريق معدنى . طلب منى أبى أن أساعده فى قلى شرائح من لحم الخنزير المعالج بالطريقة الريفية على النار الكبيرة ، وحذرنى ألا أطهوه مدة طويلة حتى لا تجف عصائره . قال : « حين يتورد لون اللحم ويصفر الشريط الدهنى قليلا أعرف أنه نضج وارفعه من على النار » .

كانت أمى قد انتهت من قلى البيض ، فتوجهت إلى النار الصغيرة حيث ألقت بقبضة من قشر البيض داخل إبريق القهوة حتى تستقر الحبيبات الصغيرة الخشنة فى قاعه ، ثم صاحت فى صوت مرح : « استعدوا لتناول الإفطار » .

قال الخال لودن : « لا . ليس بعد » . ثم اتجه إلى عربته وعاد يحمل زجاجة حمراء طويلة يغطى فوهتها ورق معدنى ذهبى . « لابد أن نشرب جميعا أولا شيئا من هذا النبيذ الفاخر الذى صنع فى كاليفورنيا ، لقد أحضرته من سونوما » . نزع سدادة القنينة الفلينية بمفتاح لولبى معلق فى مطواة جيبه الأنيقة ، وصب قليلا من النبيذ فى كل قدح من الأقداح المعدة لشرب القهوة .

كانت أول خمر من أى نوع ذقتها فى حياتى ، وقد بقيت ذكرى طعمها عالقة فى ذهنى على مر السنين . فكلما احتسيت الخمر الآن امتزج طعمها فى فمى بعطر غابات الأرز على قمم الجبال ، وبرائحة يوم ربيعى دافىء قبل بزوغ الفجر . أما كلمة سونوما ذات الوقع الأسبانى فظلت تحتفظ بسحر خاص متفرد وكأنها نفحة من بلاد بعيدة غريبة .

بعد ذلك انهمكنا فى تناول الطعام . كان يتكون من بسكويت طازج خبز بالأمس فقط ، ورصّ فى علبته المعدنية إلى جوار النار يتفصد منه الماء

كحبات العرق ، وكان هناك البيض المقلى الجامد ، وشرائح لحم الخنزير المقدد ، وحبات البطاطس المسلوقة ، وأعدنا قلى كل هذا مرارا فى الدهن المتبقى من تحمير شرائح الخنزير . أما القهوة فكانت سوداء بها شوائب خشنة ومحلاة بالعسل الأسود . أكلنا واقفين أو جالسين القرفصاء حول النار ، وكنا بين الحين والآخر ندور حول أنفسنا بتمهل لنعرض أجسادنا لدفء النار جانبا تلو الآخر .

قضينا ما تبقى من الليل فى التهام الطعام حتى بزغ الفجر . شحبت السماء حتى غدت رمادية وقاومت النجوم زحف النور فترة ثم استسلمت وفرت الواحدة إثر الأخرى . بدأت خطوط الأشجار تتضح تدريجيا وبدأنا نميز ملامح الصخور والأحراش حولنا .

انفصل الخال لودن عن المجموعة المتحلقة حول النار وابتعد متمهلا يحمل فى إحدى يديه قدحا معدنيا من القهوة ، وفى الأخرى شطيرة من لحم الخنزير . خرج من دائرة النور التى فرشها اللهب ووقف فى الظلام على حافتها يتأملنا بتمعن وتأن ، وكأنه يلتقط صورة فوتوغرافية للذكرى . عكست عيناه البنيتان الصغيرتان مزيجا من السعادة والجدية العميقة ، وأخذ يمضغ البسكويت وشاربه معا دون تمييز .

لكز أبى جونسون وقال : « حين يموت هذا الرجل ، ويفتحون بطنه سيجدون كرة من الشعر فى حجم حبة من حبات القرع العسلى » .

حين انتهى من البسكويت والقهوة وجدناه يحدق فينا أنا وجونسون بينما يحك أنفه المكور المنتفخ بإصبع لوثته الدهون .

قال : « لقد أخذت من الطعام كفايتى وزيادة . وأنتما ؟ »

صدقنا على كلامه وقلنا إننا شبعنا تماما . كنت أشعر بالدفء والامتلاء وكأننى موقد انتفخت معدته وبرزت .

قال : « إذن فلنمش معا قليلا فى هذا الطريق . هناك منظر يستحق المشاهدة » .

غادر الساحة فتبعناه ، وسلكنا طريقا صاعدا ملتويا تغطيه جذور النباتات وتلتف حوله شجيرات الغار الكثيفة وأشجار الأرز الشامخة . كان يمشى بهمة ونشاط ويصعد الطريق بسهولة مدهشة دون أن يلهث ولو مرة واحدة ، وتكبدنا أنا وجونسون مشقة بالغة حتى لا نتخلف عنه . وفجأة بدا وكأن الطريق قد انتهى أو ضاع وسط متاهة من أحراش التوت الكثيفة ، والأشواك البرية الملتفة المتشابكة . تمكن بشىء من الجهد أن يفتح لنا منفذا خلالها فتقدمنا وإذا بنا فجأة على حافة صخرية عالية تطل على وادٍ ممتد .

لمست خيوط النور الأولى هامات الجبال الشرقية فتجلت حادة واضحة فى الأفق ، بينما غرقت جوانبها وسفوحها المنحدرة نحونا فى ظلال كثيفة صبغتها فى البداية بالسواد فضاعت ملامحها وتبددت ثنياتها ونتوءاتها فى الظلام . اتشح الوادى تحتنا بلون الصقيع رغم تقدم الصباح وانحسار الصقيع ، وحين ارتفعت الشمس قليلا فى السماء تغيرت ألوان منحدرات الجبال وسفوحها فذاب السواد فى لون بنفسجى قاتم مالبث أن تحول إلى الأرجوانى ، ثم إلى غلالة شاحبة من الأزرق الرمادى ، وأخذت خضرة الوادى تنجلى وتبين شيئا فشيئا ، وتعلقت فوقها رقع متناثرة من الضباب وبخار الماء ارتفع من إحداها خيط دخان فضى انبعث من مدخنة مطبخ بيت ريفى فى مزرعة منعزلة . وحين أوشكت الشمس أن تعتلى قمم الجبال البعيدة غمر النور حوافها المتعرجة فكللها بهالات من الضوء الباهر ، وتدفق نحونا أمواجا من الفضة الملتهبة . سرت رجفة الحياة فى الصخور حولنا فاختلجت وغمغمت بأصوات مبهمة وانبعثت من الأشجار الكثيفة الملتفة خشخشة الطيور وهى تستعد لاستقبال الصباح . لم تتحمل عيناى الضوء الباهر الذى حول السماء والجبال إلى أتون يفيض باللهب فأرسلتهما إلى الوادى ، ورأيت الحشائش والأشجار هناك تزداد اخضرارا كل لحظة ، بينما انسحب الضباب إلى المنخفضات وخلجان النهر فغدت مثل حفر امتلأت ببلورات حجر الفلوريت المضيئة الزرقاء .

وحين فرت الشمس أخيرا من حصار قمم الجبال البعيدة واعتلتها ، وغمرت أشعتها الخال لودن الذى أخذ يحدق فيها بعينين شاخصتين .. حينئذٍ

بسط الرجل ذراعيه على الجانبين وكأنه غراب ماء فرد جناحيه ليجفف ريشهما . غمغم بلحن صغير لم أتبينه لكننى أحسست به يتشرب ضوء الشمس والهواء الأزرق من حولنا ، وكل روعة الشروق وجلاله . تشرب جسده الممتلىء المترهل كل هذا فى نهم شديد وكأنه أرض رملية عطشى .

وبعد فترة هوت ذراعاه إلى جانبيه وأغمض عينيه وفتحهما سريعا ثلاث مرات متوالية ، ثم تبين الممر الصغير وسط الأدغال واتخذ طريقه إليه . تبعناه عائدين وانحدرنا خلفه على الطريق عبر الغابات الحانية الودودة فى صمت تام . لم ينطق أى منا حرفا حتى أوشكنا على بلوغ الساحة ، حينئذ توقف معترضا طريقنا وقال : « لديهم جبال رائعة فى كاليفورنيا أيضا . حبذا لو قمتما بزيارتها لو أتيحت الفرصة . لكن متعة الجبال هنا لا يعدلها شىء » . ثم استأنف السير لعدة ياردات قبل أن يتوقف مرة أخرى ويعلن : « لا أدرى لماذا ولكن متعة الجبال هنا لا يعدلها شىء » .

* * *

عدنا من نزهتنا الخلوية فى حوالى التاسعة والنصف ـ أى بعد ساعات من الموعد المعتاد لحلب الأبقار . وحين مررنا بها فى مرعاها بدا لى وكأنها تحدق فينا بنظرة ملؤها الأسى والعتاب . انصرفنا أنا وأبى وجونسون على الفور إلى أعمالنا المعتادة ، أما الخال لودن فلم يمكث فى المنزل سوى دقائق قليلة بدل خلالها قميصه قبل أن ينطلق مرة أخرى سعيا وراء مغامرات جديدة .

قال أبى : « يقولون ' اللبيب بالإشارة يفهم ' ، لكنه لا يفهم ولا يتعظ . لو تلقيت خطابات كالتى تصله لما خطوت خطوة واحدة بعيدا عن هذه المزرعة . قطعت فى اختراع هذه الرسائل وقتا طويلا » .

قال جونسون : « الليلة هى الليلة الموعودة » . لكن أبى أشار إليه بالسكوت .

سألت : « ماذا سيحدث الليلة ؟ »

رد جونسون : « أبدا . لا شيء » .
استدرت إلى أبى وسألته : « ماذا سيحدث الليلة ؟ »
ابتسم وقال : « الجرار الصغيرة لها آذان كبيرة » .

كنت قد سمعت هذا القول من قبل ورغم ذلك وجدتنى أتلمس أذنى رغما عنى لأتأكد من حجمهما ، وهل تضخمتا حقا ، ثم ندت عنى صيحة ألم .

فى عصر ذلك اليوم هبت رِيح غربية وتلبدت السماء بالسحب . توعدنا المطر فتركنا حقل الذرة الكبير وعدنا إلى الجرن لننتهى من مهامنا المسائية قبل هطوله . لم يعد الخال لودن للعشاء ، وتناولنا الوجبة فى صمت غير عادى ، وكأننا نترقب وصول العاصفة ، ونرهف الآذان انتظارا لانفجار معزوفتها .

حين جاء ميعاد النوم صعدت مع جونسون إلى غرفتنا . وفى الظلام سألته مرة أخرى : « ماذا سيحدث الليلة ؟ » لكنه لم يجب .

قلت : « لن يحدث شيء على الإطلاق ولذا سأنام » .

قال : « فكرة رائعة » .

قلت : « لكنى واثق أن شيئا ما سيحدث ، وأريد أن أعرف ما هو » .
ومرة أخرى لم يجب فعقدت العزم على أن أكتشف الأمر بنفسى حتى لو اضطررت للسهر طول الليل .. لابد أن أعرف السر الذى يخفيانه مهما كلفنى الأمر .. وبينما كنت أتدبر خطتى هذه رحت فى نوم عميق .

صحوت فى أولى ساعات الصباح . كانت العاصفة تصطخب فى الخارج وتطلق قذائف برقها ورعدها فوق أشجار البلوط ، وتضرب النوافذ المجاورة لفراشى بسياط حادة من المطر ، فيرتعد زجاجها وتجلجل أناته . فى وهج البرق الأزرق رأيت جونسون جالسا على فراشه وقد شرع فى ارتداء ملابسه .

- « لماذا ترتدى ثيابك ؟ »
قال : « لابد أن أخرج الآن » .

- « تخرج ؟! فى هذه العاصفة المرعبة ؟! »

- « سمعت الخال لودن يصعد السلم من برهة ولابد أنه استغرق فى النوم الآن . إذا لزمت الصمت والهدوء ستعرف كل شيء فى أوانه » . قال ذلك ثم هب واقفا ، وعدل من ثيابه ، وعبر الغرفة إلى الباب ، ثم ابتلعه الظلام .

بدت كلماته غريبة لا يصدقها عقل . تخيلت الخال لودن مستكينا فى فراشه الدافيء ، يغط فى نوم مخمور ويطلق شخيرا عاليا ، ثم تخيلت جونسون يتجول فى الخارج فى ظلام السيول المنهمرة ، ولم أفهم العلاقة بينهما . قلت لنفسى لقد جن الجميع ولاريب إلا إذا كان الأمر ينطوى على سر لم يطلعانى عليه . أجل . هذا هو التفسير الأرجح ، داهمنى شعور بالمرارة وأنا أفكر مرة أخرى فى سياسة الكتمان التى يتبعها الجميع نحوى .

بعد ذلك سمعت خطوات تتردد فى الردهة أسفل .. كانت خطوات أبى التى لا تخطئها الأذن . توقف أسفل السلم ليضيء الأنوار ، ثم صعده جريا وهو يدق الدرجات دقا ثقيلا عاليا على غير عادته ، ويتعثر فى عجلته أكثر مما ينبغى .. ارتديت سروالى على عجل وهرعت إلى ردهة الدور العلوى فوجدته هناك أمام غرفة نوم الخال لودن يقرع بابها بكلتا قبضتيه ويصيح بأعلى صوته : « انهض يا لودن . لقد جاءوا » ..

سألته : « من ؟ »

أدار رأسه نحوى وغمز بعينه ، ووضع سبابته على شفتيه مشيرا إلىّ بالسكوت ، ثم استأنف طرق الباب بعنف وهو يصيح : « أسرع يالودن بحق الله . إنهم يجدون فى إثرك ويضمرون لك الشر » .

سألت : « من هم ؟ »

لم يجب ومضى يقرع الباب بطرقات كفرقعات الرعد فى العاصفة .. وأخيرا بعد فترة بدت كساعات طويلة - فتح الخال لودن باب الحجرة . كان يرتدى قميص نوم طويلا من الفانلة الرمادية ، ويغطى رأسه بقلنسوة صغيرة غريبة المظهر ، تشبه طواقى الطحانين ، وتغطيها بقع قديمة من زيوت الشعر

يعود عهدها إلى عشرات السنين . كان الاضطراب باديا على وجهه المتورد ، وكانت عيناه فى لون الدم وكأنهما جمرتان متقدتان .. وحين تكلم جاء صوته متحشرجا غير واضح النبرات . قال : « ماذا هناك يا جو روبرت ؟ لقد كنت فى نوم عميق » .

ـ « أتى جماعة من الرجال يبحثون عنك ، والله وحده يعلم ماذا يضمرون » .

سمعنا بابا يصفق فى الطابق السفلى وقعقعة أقدام تهرول بصورة مبالغ فيها . ثم صاح صوت عميق صارم : « أين ابن عرس الحقير هذا الذى يدعى لودن سوريلز ؟ أين هذا الحقير الذى يطارد امرأتى ؟ » كان صوت جونسون . فطنت إلى هذا رغم محاولته إخفاءه وجعله أجوف عميقا .

قال أبى : « يا إلهى . إنهم فى المنزل الآن » .

أشرق وجه الخال لودن وقال : « سأحضر غدارتى . سنصطادهم واحدا واحدا ، وهم يصعدون السلم » .

قال أبى : « دعك من هذه الغدارات . لن تنفعنا فهم كتيبة كبيرة لا قبل لنا بهم . ليس أمامنا سوى أن نخفيك » . ثم قبض على كتفى الخال لودن وجذبه خارج الحجرة .

ـ « هيا يا جيس . أسرع . ساعدنى لندخله إلى غرفتك » .

فتحت باب الغرفة فدفع الخال لودن داخلها . وحين تحسست الحائط بحثا عن مفتاح النور صاح : « لا تضىء النور . هل جننت ؟ أغلق الباب » .

قلت : « لن يجد مكانا هنا يختبىء فيه » .

قال : « حقا ؟ » وكان صوته ينم عن خيبة الأمل .

قلت : « أجل » . كنت واثقا من هذا ، فطالما حاولت أن أختبىء من جدتى فى هذه الحجرة لأهرب من المهمات التى تكلفنى بها ، وكانت تجدنى فى كل مرة .

أتانا الصوت ثانية من أسفل السلم ، لكنه لم يكن واضحا هذه المرة ، فقد طمس الباب المغلق معالمه ، وجعله غريبا غير مألوف . قال : « أين هذا المدعو لودن سوريلز ؟ سأفرمه فرما » .

قال أبي : « هيا إلى النافذة يا لودن . سنخفيك فوق السطح » . ثم جذبه إلى النافذة وفتحها على مصراعيها ، فإذا بالبرق يومض ومضة وحشية تشق قلب السماء ، وإذا بالرعد يدوى كقصف المدافع ، وإذا بفروع شجرة البلوط تهوى على النافذة كالسياط . قال الخال لودن : « إنها تمطر . لن أخرج فى هذا الجو » .

رد أبي : « الماء أفضل من رصاصة تافهة ، هيا . أسرع . إننى أسمع وقع أقدامهم على السلم » .

ـ « أحضر لى غدارتى وسوف أحصدهم جميعا » .

ـ « وهل تفعل هذا وجيس معنا ؟ أتود أن تعرضه للخطر ؟ هيا . تسلل من النافذة إلى السطح وتسلقه إلى المدخنة . لن يخطر لأحد أن ينظر خارج النافذة » .

فى تلك اللحظة بدأ الطرق على باب غرفة النوم وصاح صوت خارجها : « سأعلم هذا المدعو لودن سوريلز ألا يطارد النساء بعد الآن » .

وقف لحظة فى تردد وحيرة عارمة ، ثم تسلق خارج النافذة فجأة بخفة ومهارة ، صفقها أبى خلفه وأوصدها بالمزلاج ، ثم رأينا وجهه وقد التصق تماما بالزجاج وغدا مفلطحا كالفطيرة . كان يبدو مثل وجه سمكة صلُّور كبيرة مخدرة وتحركت شفتاه بكلمة لم نسمعها ،وإن خمنتها ، فقد كنت أعرفها عن ظهر قلب . كانت صيحته المعهودة « يا هووه » . أشار إليه أبى بأن يختفى سريعا من النافذة ويتسلق إلى قمة السطح ، فلوى عضلات وجهه فى تعبير مضحك وكأنه أصيب بجلطة فى المخ واختفى .

اتجه أبى ليفتح الباب للطارق فدخل جونسون وقد تقلص وجهه فى أعرض ابتسامة خبيثة عرفها الوجود وسأل : « هل نجحت الخطة ؟ »

قال أبى : « بدقّة كالساعة . . »

- « هل خرج من النافذة؟ »

- « أجل . »

- « وهو الآن على قمة السطح ؟ »

- « أجل . »

- « فى هذه العاصفة الممطرة ؟ »

- « أجل . »

عند هذا انفجر جونسون فى الضحك أخيرا ، واندفعت الدماء الحارة إلى وجهه المتورد بالطبيعة فاكتسى لونا قرمزيا لا ينتمى إلى الآدميين . طفرت الدموع من عينيه الزرقاوين وانحنى يحتضن بطنه ثم استند إلى الحائط ، وانزلق جالسا على الأرض وقد فرد ساقيه أمامه . كان جسده يهتز بعنف من شدة الضحك وكأنه يتلقى صدمة كهربائية ، وانتهى به الأمر راقدا على ظهره فى الردهة يشهق ويسعل بالضحك وهو يضرب الأرض بكعبيه .

أما أبى فلم يضحك بل وابتسم بالكاد . كان مبهورا بدقة الخطة وتنفيذها المحكم وأخذ يردد : « سارت بدقة كالساعة . جرت بسرعة وليونة مثل ابن عرس غطى جسمه بالشحم » . جمد مكانه وقد غلبه الإحساس بالرهبة أمام ذكائه العبقرى .

سألته : « هل ستتركانه فوق السطح ؟ »

أجاب : « لا . سننزله بعد قليل . ولكن ينبغى أولا أن نحسم أمرا هاما . هل سنطلعه على الخدعة أم سنتركه يعتقد أن كتيبة من الأزواج الغيورين كانت تطارده حقا ؟ »

قلت : « سيغرقه المطر حتما إذا ظل بالخارج . سيصعقه البرق . »

نهض جونسون من رقدته وجلس على الأرض وقد هدأت عاصفة ضحكه بعض الشىء ، فتحولت إلى ضحك خافت وأخذ يدلك ضلوعه ثم قال :

« أرجوك . دعنا نخبره » وما أن نطق بجملته حتى انفجرت عاصفة الضحك مرة ثانية فطرحته أرضا على ظهره مرة أخرى .

* * *

بعد أيام قليلة حان موعد رحيل الخال لودن . كنا قد اتفقنا أن نخفى عنه أمر الخدعة التى كان ضحيتها ، فقد كان من القسوة أن نطلعه عليها ، ونتيجة لهذا القرار توقف عن الشرب تماما وكف عن الخروج والتجوال ليلا . كان يجلس معنا إلى مائدة العشاء كل ليلة ويمكث طويلا حتى تبرد قهوته ، وتتجمد قطرات الدهن السائلة من لحم الخنزير الساخن على الأطباق . بعد ذلك كان يجلس معنا فى الشرفة الأمامية ، ويتأمل رياح الليل وسط النجوم ، ويتسلى بمراقبة فراشات الليل الزاهية الألوان وهى تلتصق بأسطح النوافذ وتتمدد فوقها . رفض تماما أن يتحدث إلى أحد على الهاتف ، وكان يردد : « الهدوء والسلام . هذا ما ينشده الرجل . إذا اتصل بى أحد قولوا ليس موجودا » .

سأله أبى : « وإذا كان المتحدث هو الحبوبة القديمة سو السريعة ؟ »

غمغم قليلا وهو يمضغ شاربه ثم قال : « قل لها إننى أصبحت ناسكا متعبدا وأننى أعيش فى كهف مع بومة » .

- « وهل تعتقد أن هذه الإجابة سوف ترضيها ؟ »

قال : « يا عزيزى لا أظن أن أحدا يستطيع أن يرضيها » .

فى الصباح التالى بدأ بالتخلص من زجاجاته الفارغة - زجاجات البراندى والويسكى والنبيذ - فحملها جميعا إلى مكان إلقاء القمامة والمهملات . كانت هذه هى الخطوة الأولى فى الإعداد للرحيل ، وقضى بعد ذلك يومين كاملين فى حزم أمتعته وترتيب أموره . لم يعرض عليه أحد منا المساعدة ، وحين عاتبت أمى أبى لهذا السبب قال : « لو كنت راغبا فى رحيله لساعدته فى حزم متاعه » . كان ردها ابتسامة مبهمة لم تقل شيئا بعدها .

حين اعتلى جانب الشاحنة ليدلف إلى مقعد القيادة كان يرتدى سروالا من الفانلة البيضاء ، ترفعه حمالات عريضة من الجلد ، وقميصا من مربعات

حمراء وخضراء ، فوقه صديرى مفتوح من الحرير الأصفر ، وحول جبهته غطاء أخضر لحماية العينين من الوهج جذبه إلى أسفل فوق عينيه . قال : « كنت أفكر فى التوقف أثناء الرحلة وقضاء بعض الوقت فى لعب البوكر . مارأيكم ؟ »

قال جونسون : « هذا عين الصواب . ستجرد هؤلاء المقامرين رعاة البقر من كل ما يملكون ، حتى الأحذية . سيعودون إلى منازلهم حفاة الأقدام » .

تبادل القبلات والأحضان مع النساء ، أما نحن فصافحناه فقط وتحاشينا النظر إلى وجهه . كان لايزال واقفا على جانب الشاحنة حين أطلق صيحته المألوفة « ياهووه » بصوت لاهث خافت ورنة حزن وشجن . بعد ذلك جلس خلف عجلة القيادة ونظر عبر زجاج العربة الأمامى إلى الطريق الترابى الملتوى أمامه ، وكأنه ينظر إلى طريق مستقيم يفضى إلى الأبدية ، ثم أدار مفتاح المحرك .

اللحيـــــــة

للحية العم جيرتون تاريخ طويل معقد ، لن أحاول الخوض فى تفاصيله الآن حتى لا يصيبنا الملل . يكفى أن أقول إنها كانت لحية شهيرة تُروى عنها الحكايات والأساطير ، وحين علمنا - أبى وأنا - أن العم جيرتون سيأتى لزيارتنا تملكنا إحساس طاغ بالسعادة والترقب لأننا أخيرا سنشاهد تلك الفروة الأسطورية .

سأل أبى جدتى : « كم يبلغ طول هذه اللحية الآن ؟ »

ابتسمت فى سرها وقالت : « ومن أين لى أن أعرف ؟ يقولون إنه تركها تنمو منذ أربعين عاما أو يزيد ، ولم يشذب أطرافها ولو مرة واحدة طوال هذه المدة . هذا ما سمعته » .

سألتها بدورى : « وسوف يأتى ليزورنا هنا فى منزلنا ؟ »

قالت : « هذا ما تقوله العمة سارى فى خطابها » ، وشهرت أمامنا ورقة مكتوبة ولكن على مسافة لا تسمح لنا بقراءتها .

- « ومتى سيصل هنا ؟ »

- « ومن أين لها أن تعرف ؟ عليك فقط أن تنتظر » .

قال أبى : « يا لها من مفاجأة مثيرة - ستكون زيارته أعظم مناسبة مرت بنا منذ عيد الميلاد .. سنحتفل بالعجوز أيما احتفال وسيلقى منا ترحيبا كبيرا » .

قالت : « اسمع يا جو روبرت . إياك أن تضايق العم جيرتون . دعه فى سلام » .

قال : « محال أن أمس شعرة من شعر ذقنه . لكن قولى لنا .. متى يصل ؟ »

ابتسمت مرة أخرى وقالت : « ستعرف ذلك حين يظهر .. عليك فقط بالصبر » .

* * *

وصدقت جدتى فقد « ظهر » العم جيرتون فجأة دون مقدمات . لم نسمع صوت سيارة أو شاحنة تقف أمام الباب ، ولم نره يدخل المنزل أو نسمعه يطرق الباب ، رأيناه فجأة فى ظهيرة أحد أيام الثلاثاء يقف تحت شجرة الجوز فى الفناء المجاور للمنزل ، يحدق فى قرمة قطع الأخشاب وكومة من الحطب وكأنه لم ير مثل هذه الأشياء من قبل على ظهر البسيطة . هكذا ظهر أمامنا فجأة وكأنه شبح من الأشباح .

كنا على مائدة الغداء وتصادف أن رفعنا رؤوسنا عن أطباقنا معا نحن الثلاثة فى وقت واحد فرأيناه . دهمنا شعور بالرهبة وكأننا رأينا شبحا .

سأل أبى : « ما هذا بحق السماء ؟ »

ردت جدتى فى نبرات لا تعدلها أخرى هدوءا وطمأنينة : « العم جيرتون » .

كان ظهره إلينا فلم نر منه سوى طوله البالغ ، وشعر رأسه الأبيض العارى وردائه السروالى (الأوفرول) الماحل وقميصه المضلع الأخضر . كان شديد النحول ، نحيف البنيان فبدا مثل عمود فى سياج ـ عمود التوى بفعل القدم والعوامل الجوية . ثم استدار إلينا وكأنه يقدم نفسه رسميا إلى عيوننا المحملقة .،

أصبت بخيبة أمل فادحة . بحثت عن اللحية الشهيرة ـ تلك اللحية التى أنفق فى رعايتها أربعين عاما من عمره وأكثر حتى غدت محورا لعشرات القصص والحواديت ولم أجدها .. كان قد أخفاها بعيدا عن العيون تحت ياقة أوفروله .

كنت قد راهنت أبى على طول اللحية وهل ستقف عند سرته أم تسترسل إلى ركبتيه . والآن لن نستطيع حسم الأمر .

أضف إلى ذلك أن مظهره كان غريبا حقا بصرف النظر عن اللحية العجيبة . كانت ذراعاه أطول بكثير من أكمام قميصه ، فبدت يداه مثل بطاقات الأسعار الضخمة التى تتدلى من الملابس الجاهزة فى الحوانيت . وكانت أرجل « الأوفرول » الذى يرتديه أقصر بكثير من ساقيه الناحلتين ، فرأينا هذه العظام التى لا يكسوها لحم تغطس عارية فى أعماق حذائه ذى الرقبة العالية . وتدلى شعره الأبيض طويلا على جانبى وجهه المتورد ذى الملامح الحادة . أما اللحية التى بدت ناصعة البياض كسحابة صبح فقد اختفت تماما عن الأنظار تحت ياقة الأوفرول الماجل ولم يعد أحد يعرف من أمرها أو شكلها شيئا اللهم إلا العم جيرتون نفسه ، والله تعالى العالم ببواطن الأمور .

قالت جدتى : « اخرج يا جيس ورحب بعمك جيرتون » .

قلت : « أرجوك أن تعفينى يا جدتى » . كان العم جيرتون يبدو فى خيالى كواحد من المشاهير . وكان أسهل على أن أصافح بطلا رياضيا ، أو نجما غنائيا من أن أرحب به .

قال أبى : « إن مظهره يبعث الرهبة بعض الشىء . سأذهب أنا وأحضره » .

خرج من المنزل ورأيناه يتحدث إلى العم جيرتون الذى أجابه بإيماءة واحدة من رأسه ، بعدها توجها إلى المنزل . وحين دخل هذا العجوز غرفة الطعام الضيقة الصغيرة بدا أكثر طولا وغرابة عما كان فى الهواء الطلق ، وكاد رأسه أن يحتك بالسقف .

رحبت به جدتى وعبرت عن سرورنا جميعا بزيارته وأملنا أن يمكث معنا وقتا طويلا ، ثم دعته للجلوس معنا ومشاركتنا الطعام فلبى الدعوة بروح طيبة ودون تردد . أعدت له مكانا وأحضرت كوبا من اللبن المخفوق وطبقا امتلأ عن آخره بالفاصوليا الخضراء وخبز الذرة وقطع الأرانب المقلية ، ثم

جلست على طرف المائدة ، وبدأت تسأله عن أخبار العائلة . سألت : « كيف أحوال العمة جويل ؟ »

أجابها بابتسامة ولم ينطق حرفا .

انتظرت برهة ثم سألت : « وكيف أحوال ابن العم هارولد ؟ »

أجابها بابتسامة دافئة ودودة كالأولى ، لكن سؤالها ظل دون إجابة وكأنها توجهت به إلى إحدى الملاعق . توصلت بعد فترة قصيرة إلى الصيغة الصحيحة للحديث معه فقالت : « هل سيجني هيرام ليامز محصولا طيبا من التبغ هذا العام ؟ » ابتسم وهز رأسه بعنف أى نعم . بعد ذلك قصرت أسئلتها على تلك التي يمكن الإجابة عليها بالنفى أو الإيجاب فقط ، وكانت إجابات العم جيرتون إما إيماءة مرحة تعنى « نعم » أو حركة حزينة من الرأس تعنى « لا » .

وأثناء هذا الحوار الغريب كان يتناول الطعام بنهم وشراهة . كانت الشوكة تصعد إلى فمه المغطى بالشعر وهى مثقلة بالطعام وتعود فارغة لتأتى بالمزيد . كانت تعمل بدقة وسرعة آليتين فبدا المشهد رهيبا حقا . ظل أبى يملأ الطبق أمامه كلما فرغ وظل العم جيرتون يفرغه كلما امتلأ . وصف أبى المشهد بعدها قائلا : « كان يغرس الشوكة فى الطعام ويطوحه فى فمه المدفون وسط الشعر ، وكأنه رجل يفرغ عربة محملة بالتبن » .

حين انتهى من الطعام أفرغ فى جوفه كوبا كاملا من اللبن المخفوق ، واكتشفنا بعد ذلك أن اللبن المخفوق هو الشراب الوحيد الذى يتناوله مع الإفطار والغداء والعشاء . لم يكن يشرب سواه ولا حتى الماء .

حين زحزح كرسيه إلى الخلف بعيدا عن المائدة سألته جدتى : « ألا ترغب فى أى شىء آخر يا عم جيرتون ؟ »

قال : « كلا . شكرا . لقد شبعت شبعا هائلا وأى زيادة ستكون عبئا ثقيلا » .

كانت هذه الجملة هى الجملة الوحيدة التى سمعناه يتفوه بها طوال زيارته

وكان فخورا بها فخر رجل يزهو بكلب صيد نادر أحرز قصب السبق . كان يردد هذه الجملة فى نهاية كل وجبة ، وأدركنا بعد قليل أنه يشعر بالضيق الشديد ويتعكر صفو يومه إذا لم يعرض عليه أحدنا المزيد من الطعام حتى تتاح له فرصة التفوه بها .

حين قالها أول مرة فغر أبى فاه مثل طائر من آكلى الذباب يطارد ذبابة ، والتمعت عيناه بالدهشة وقال : « هل لك أن تعيد هذه الجملة مرة أخرى يا عم جيرتون ؟ الجملة التى قلتها الآن » .

أجابه العم جيرتون بابتسامة دافئة عذبة واختفى .

وحين أقول اختفى فأنا لا أعنى أنه تبخر فى الهواء أمام أعيننا ، كما تتبخر الأشباح فى أفلام الرعب عن طريق الخدع السينمائية ، بل أعنى أنه تهرب من إجابة مطلب أبى بابتسامة من ابتساماته الصامتة ، بعدها نهضنا من حول المائدة وحملنا أطباقنا إلى الدلو المخصص لبقايا الطعام حيث أفرغنا ما تبقى بها ، ثم رصصناها على الرف المجاور لحوض غسيل الأوانى ، بعد ذلك استدرنا فإذا بالعم جيرتون قد ذهب . كان كرسيه يقف بزاوية على مبعدة من المائدة وفوقه فوطته البيضاء ذات المربعات مطوية بعناية . أما العم جيرتون نفسه فلا أثر له . ولولا طبقه الملوث بالطعام ، وشوكته وسكينته المتقاطعتان على سطحه وفق الأصول وكوبه الملطخ ببقايا اللبن لما صدقنا أنه كان معنا فى الغرفة ، إذ لم نسمع وقع أقدامه وهو يرحل أو صوت الباب الجانبى يفتح أو يغلق ، أو أى صوت على الإطلاق .

علق أبى قائلا : « إن عمنا جيرتون رجل غريب الأطوار » .

فغمغمت جدتى : « إنه عجوز طيب مسكين » .

لم يمض وقت طويل حتى أدركنا أن الاختفاء المفاجىء والبعد عن الآخرين من الخصال المتأصلة فى شخصية العم جيرتون تماما مثل صمته . كنت تلمح طيفه وحيدا على حافة المرعى الذى يطل على الجرن البعيد وخلفه

السماء ، فيبدو كخيال مآته انثنى فى الريح ، فإذا حولت عينيك عنه إلى شجرة الكمثرى لترقب طائرا ثم عدت ببصرك إلى حافة المرعى وجدته قد اختفى ، وكأنه عود ثقاب اشتعل ثم انطفأ لهبه فجأة ، واختفى خارج عالمنا هذا ، وانتقل إلى بعد آخر محتوم من أبعاد الفضاء ، ماذا يكون ؟ أين يكون ؟ متى يكون ؟ كان لغزا متنوع الأوجه وكان الصمت ـ إجابته الوحيدة ـ يتسق مع كل هذه الأوجه فيما يرى .

قال أبى : « هناك شىء واحد مؤكد على الأقل . لن تفوته وجبة واحدة » .

وكان هذا صحيحا . فما أن يوضع أول طبق ساخن يتصاعد منه البخار على المائدة ـ وليكن ذرة أو عصيدة أو طعاما مهروسا ـ حتى يصل العم جيرتون من أحد عوالمه المجهولة التى تستغرقه خارج أوقات الطعام .

لم يكف أبى عن اختباره . قال : « اسمع يا عم جيرتون . سنذهب أنا وجيس بعد الظهر لإصلاح سياج صغير على الجانب الخلفى من حقل الشوفان البعيد . سنعيد تركيب بعض الأسلاك الشائكة ونعيد غرس بعض القوائم ، ما رأيك فى أن تأتى معنا لنأنس بك ؟ »

كان الرد ابتسامة عذبة ودودة لا تفصح عن شىء .

أعاد أبى السؤال فى صياغة أخرى . قال : « أعنى هل توافق أن تصحبنا وأن تساعدنا إذا أردت ؟ »

هز العم جيرتون رأسه موافقا .

استرخى أبى فى مقعده وقال : « جميل . فلندخن قليلا بعد الغداء فى الشرفة ، ثم نتوجه بعد ذلك إلى حقل الشوفان » .

ثم كانت الصدمة . فما أن انتهينا من الطعام ومن ترتيب الغرفة بعض الشىء حتى وجدناه قد اختفى مرة أخرى . كانت فوطته المطوية على المقعد كالعادة ، وشوكته وسكينته متقاطعتان فوق الطبق ، أما العم جيرتون نفسه فلا أثر له .

قال أبى : « سأبتاع آلة تصوير سينمائية لأكتشف كيف يفعل هذا . أعتقد أنها موهبة نادرة حقا » .

تفكر فى الأمر طوال الطريق إلى السياج . كانت لفة الأسلاك الشائكة تتدلى فوق كتفه ، وكانت تقفز إلى أعلى ثم تهبط على جوال الخيش الذى تتوسده مع كل خطوة من خطواته . مشيت إلى جواره ، أجر خلفى بصعوبة أدوات حفر قوائم السياج وشد الأسلاك . تكلم أخيرا وقال : « لم أضع السؤال كما ينبغى . سألته إذا كان يوافق أن يجىء معنا ، ولم أسأله إذا كان فعلا سيأتى معنا » .

سألته : « وما الفرق ؟ »

ـ « لقد كان على استعداد أن يأتى معنا . أجل . لكن رغبته فى عدم المجىء كانت أقوى » .

حين بلغنا قمة ثانى التلال العالية فى المرعى استدرنا ونظرنا خلفنا ، وهناك ، فى الطريق المترب بين المنزل وصومعة الغلال الأولى ، رأينا العم جيرتون . كان يقف ساكنا ثابتا مثل عمود صندوق البريد .

سقطت من يدى أدوات حفر قوائم السياج محدثة جلبة عالية . تحولت أعيننا إليها لحظة ، وحين نظرنا مرة أخرى إلى الطريق وجدناه خاليا .

قال أبى : « كلا . لن تفلح آلة التصوير السينمائية فى رصد هذا . إنه يحتاج إلى اختراع جديد لا يستطيع العلم الحديث الآن أن يتوصل إليه » .

* * *

جلسنا نستريح من العمل فى إصلاح السياج تحت ظلال شجرة بلوط حمراء سامقة ، وراقبنا الريح تخط جملاً طويلة متشابكة فوق صفحة حقل الشوفان الأبيض .

قال أبى : « سؤال واحد نعرف إجابته . لن نحتاج لأن نسأل إذا كان

يضع لحيته تحت الأغطية أو فوقها حين ينام ، فمن المنطقى أن الرجل الذى يخفى لحيته داخل أوفروله سيخفيها تحت الأغطية حين ينام » .

سألته للمرة الألف : « ترى ما طولها فى ظنك ؟ »

قال : « قبل أن يأتى إلى هنا كنت أتخيل طولها قدما ونصف القدم . وحين رأيته لأول مرة تخيلت طولها قدمين . أما الآن فهى تزداد فى خيالى طولا مع مرور الوقت لأننى لا أراها . أستطيع أن أتخيلها الآن أربع أو خمس أقدام ببساطة » .

ـ « أتعتقد حقا أنها بهذا الطول ؟ »
ـ « لقد وصلت إلى مرحلة أستطيع أن أتخيل فيها أى شىء حين يتعلق الأمر بهذه اللحية » .

ـ « إذا كانت بهذا الطول فلابد أن يضعها داخل أحد رجلى سرواله . ترى أيهما ؟ اليمنى أو اليسرى ؟ »

قال : « سؤال حساس واختيار صعب . ربما قسمها إلى جزءين ووضع كل جزء فى رجل » .

ـ « وهل تعتقد أنها بلون واحد فى كل الأجزاء ؟ »
رمقنى بنظرة صادقة وقال : « اسمع يا جيس . أنا لا أعرف . قد تكون أى لون . قد تكون خضراء وبنفسجية ومزركشة بدوائر بيضاء تحت هذا الأوفرول ، وقد تكون مضفرة فى عقد مستديرة ، ولكنى أعرف شيئا واحدا . إننى مصر على رؤية هذه اللحية وسوف أراها ، كل بوصة منها ، ولن يستريح لى بال أو يهنأ لى نوم حتى يحدث هذا » .

ـ « وكيف ستفعل هذا » ؟

ـ « سأخبرك حين أجد الوسيلة » .

* * *

بعد ثلاثة أيام ، وقبل وقت العشاء بساعة ، كشف لى عن خطته الرائعة الماكرة . أخرج من جيبه زجاجة صغيرة زرقاء فى حجم أصبع الإبهام وقال : « أترى هذه ؟ ستمكننا هذه من اصطياد اللحية . ستمكننا من تحقيق هدفنا » .

- « ما هذه ؟ »

- « شراب منوم حصلت عليه من الدكتور ماكجريفى » .

كان الدكتور ماكجريفى هو الطبيب البيطرى الذى نتعامل معه - كان رجلا مسنا يعيش مع زوجته فى بيت صغير مظلم يقع على بعد ثلاثة أميال منا ، على طرف الطريق حيث ينتهى العمار ، وتفرض أشجار البلوط النامية على سفح الجبال سيادتها على المكان .

- « وماذا ستفعل بهذا الشراب ؟ »

« سأضعه خلسة فى كوب اللبن المخفوق الذى يشربه ، وحين يذهب إلى فراشه سينام نوما عميقا كدب فى فترة البيات الشتوى . حينئذ نستطيع أن نلقى نظرة على تلك اللحية » .

- « أتعتقد أن مفعوله أكيد ؟ »

- « أكد لى الطبيب أنه يستطيع أن يصرع حصانا ، وطالما استخدمه فى تنويم الجياد . لن أعطى العم جيرتون إلا القليل منه ، ولن يصيبه أى أذى » .

- « أمتأكد أنت من هذا ؟ »

قال بنفاد صبر : « مؤكد .. أنا متأكد » .

وهكذا ، حين جلسنا إلى العشاء ، ظل أبى يرقب كوب اللبن المخفوق الخاص بالعم جيرتون بحرص شديد ، وما أن أفرغه أول مرة حتى التقطه أبى وقال : « هاته . سأحضر لك المزيد يا عم جيرتون » . وغمز لى بعينه غمزة خبيثة فأدركت أنه سيضع الآن المادة المنومة .

أومأ العم جيرتون برأسه موافقا وأرسل إلى أبى أعذب ابتسامة فى صندوق ابتساماته وأكثرها ودا ، وحين وصل اللبن المخفوق أفرغ الكوب فى جرعتين ، فارتسم السرور الشديد على وجه أبى حتى خفت أن ينفجر ضاحكا ويفسد كل شىء .

وحين لم يحدث شىء خشيت أن يكون أبى قد أخطأ اختيار المادة الملائمة . بدا العم جيرتون كعادته دائما ، صامتا ، لامع العينين ، وأخذ يغرس شوكته فى الطماطم المطبوخة بنهم شديد فيحدث فيها آثارا فادحة . ولكن ، بعد دقائق قليلة رأيت عينيه تكتسبان تدريجيا نظرة غائمة شاردة ، كما بدأت جفونه تثقل وتتهدل فوق عينيه .

قال أبى : « تناول قطعة أخرى من خبز الذرة » .

أجاب : « كلا . شكرا . لقد شبعت للغاية ... »

لكنه لم يكمل الجملة ولم يمض إلى الفقرة التى تتحدث عن « الزيادة » . حينذاك علمنا أنه وقع فى المصيدة .

نهض من المائدة ومضى متعثرا عبر المطبخ إلى الباب ، واتجه إلى السلم عبر الصالة . لم يضع شوكته وسكينته فى وضع تقاطع فوق طبقه ، ورقدت فوطته ذات المربعات على الأرض حيث سقطت منه . التقطها أبى ووضعها إلى جوار طبقه .

تابعت جدتى حركة العم جيرتون بعيون ملؤها الدهشة ثم قالت : « إن سلوك العم جيرتون غريب جدا اليوم . أرجو ألا يكون متوعكا » .

قال أبى : « أبدا . إنه بخير . كل ما فى الأمر أن لعبة الظهور والاختفاء المفاجىء طوال اليوم قد أرهقته إرهاقا شديدا » .

نظفنا الأطباق ورصصناها ثم جلسنا فى شرفة المنزل الأمامية حيث يدخن والدى سيجارته المعتادة بعد كل وجبة .

سألته : « هل سنرى اللحية الآن ؟ »

- « من الأفضل أن نمنحه بعض الوقت حتى نتأكد أنه استغرق فى النوم . تعال معى إلى كشك الأخشاب لحظة » .

وفى كشك الأخشاب التقط مصباح كيروسين متربا معلقا من خطاف على الحائط ، وهزه ليرى إذا كان بخزانه زيت ، ثم تناول سترة زرقاء قديمة ، أكلتها العتة ، من فوق مسمار على الحائط ومسح بها المصباح ليزيل خيوط العنكبوت العالقة به . قال : « سنحتاج لهذا حتى نتسلل خلسة وفى سرية تامة » . ثم حمل المصباح والسترة وعدنا إلى الشرفة حيث دخن سيجارتين فى تأن وهدوء حتى رأينا أول نجوم تبزغ فى السماء ناحية الغرب . اكتست التلال البعيدة غلالة ضبابية زرقاء ثم تحولت إلى اللون الأسود المشرب بالأرجوانى .

قال : « هيا بنا » . فتحنا الباب المحرّم وعبرنا قاعة الجلوس المظلمة على أطراف أصابعنا وصلصلت أقداح الشاى التذكارية على رفوفها خلف الزجاج . كانت رائحة الغرفة قديمة وهواؤها مشبعا بالتراب ، وكنت فى خوف من أن أعطس فأعلن جريمتنا للعالم أجمع .

دلفنا إلى الصالة المظلمة حيث السلالم التى تقود إلى الطابق الأعلى ، ووقفنا نصغى لحظة . أوقد أبى عود ثقاب من ثقاب المطبخ بظفر إبهامه وأشعل فتيل المصباح وأنزل غطاءه الخارجى . بدا ظلنا عملاقا على الحوائط فى الضوء البرتقالى الشاحب ، وبدا كل شىء غريبا هنا فى هذه الصالة ، كان كل شىء صامتا ، وكذلك أعلى بئر السلم حيث حلق الظلام . أحسست بشعور لم أجربه من قبل أبدا ، وكأننى لص أو مخبر بوليسى . تدفقت الدماء إلى رأسى وتلاحقت أنفاسى وانقبضت شرايين فودىَّ فى نبض سريع .

صعدنا السلم درجة درجة فى حرص شديد وافترشت ظلالنا السلم خلفنا ثم اعتلت الجدار البعيد ، وكانت ظلال قوائم جدار السلم تدور وكأنها أذرع عجلة من عالم الأشباح . حمل أبى المصباح فى يده اليسرى إلى جواره ، واختبأت أنا فى ظل يده اليمنى أتحرك معها .

توقفنا أعلى السلم ورفع أبى المصباح إلى أعلى . كان باب غرفة العم جيرتون فى نهاية الردهة فتلمسنا طريقنا إليه حثيثا . كان أى صرير أو قرقعة تصدر من الأرض تخيفنى ، وكنت على يقين أن أمرنا سينكشف . ماذا سنقول للعم جيرتون أو لجدتى حين يعلمان بالأمر ؟ أدركت وقتها ، ربما لأول مرة فى حياتى ، أن والدى ليس دائما أضمن درع حماية وأمان فى العالم .

وعند الباب الموعود توقفنا وحبسنا أنفاسنا لنصغى . وبدأ أبى يفتح الباب بهدوء . أدار مقبضه ببطء شديد حتى نهاية دورته ، وانفتح الباب كاشفا عن ظلام دامس . سمعنا صوت أنفاس عالية عميقة فشعرت بالراحة لأننا لم نتسبب فى موت العجوز مسموما . كان أبى قد لف السترة الصوفية حول المصباح ، فأخذ الآن يزيحها عن أسفله مرة تلو الأخرى ليكشف بصيصا من الضوء فى كل مرة .

لم تكن بنا حاجة فى الواقع لكل هذه السرية والحيطة ، فقد كان فم العم جيرتون مفتوحا ، وكان مستلقيا على ظهره ، يصدر غطيطا خفيفا أشبه بالقرقرة ، ولو أننا ألقينا إلى جواره على الأرض حمل عربة من الغلايات المعدنية لما تحرك بمقدار شعرة .

أدهشتنى بساطة حياة العم جيرتون وأثرت فىّ . لم أر بالحجرة من متاع سوى بضعة قمصان علقها على مشاجب فى خزانات الملابس المفتوحة ، وقميص وضعه على ظهر مقعد أسفل السرير ، وأمام هذا المقعد وضع حذاءه القديم الذى تدلى منه جوربه . كان هذا كل متاعه . كان يحيا حياة بسيطة حقا .

أعطانى والدى المصباح ، وتقدمنا معا إلى حافة الفراش . نظر إلىّ نظرة مثيرة ذات مغزى ثم بدأ يسحب الغطاء إلى أسفل من تحت ذقن العجوز . لكننا صدمنا حين اكتشفنا أن العم جيرتون ينام مرتديا الأوفرول . لم يكن يرتدى قميصا ، وتمددت ذراعاه العاريتان اللتان غطاهما النمش إلى جواره . وكانت ياقته القطنية الزرقاء لا تزال تخفى ذلك السر الذى خططنا بكل التلهف لكشفه . أزاح أبى الغطاء حتى خصر العم جيرتون ، ثم استقام من انحناءته فوق الفراش .

نظر إلىّ مرة أخرى ، وكانت نظرته هذه المرة تنم عن الحيرة والإحباط ، بينما تجمعت حبات العرق على جبهته . هززت كتفى . كنت أستعد لترك الغرفة فقد أدركت أنه لا قبل لنا بالعم جيرتون ، وأنه فريسة لم نتمكن من الإيقاع بها .

أما أبى فقد رفض أن يترك الفريسة .. كنا قد قطعنا شوطا طويلا فى الوصول إليها فلم يكن من السهل عليه أن يتراجع . مد يده وفك مشبك الياقة على الجانب البعيد ، ثم حل المشبك القريب وبدأ يسحبها إلى أسفل بهدوء .

لم تخيب اللحية ظننا . كانت كل شيء جئنا لنراه . رقدت على الصدر الناحل للعم جيرتون مثل جدول من التبر الأبيض البراق ، والتمعت فى ضوء المصباح مثل درج ممتلىء بالملاعق الفضية . كانت جافة ، هفهافة وبالغة النظافة ، وعجبنا لهذا إذ لم يحدث أن رأينا العم جيرتون يستحم أبدا ، ولم يحدث أن رأيناه يفعل أى شيء سوى الأكل .

كانت لحية رائعة مذهلة ، ولم أندم على كل ما تحملته من هلع ومشاق . أحسست وكأننى أزور أثرا أو معلما شهيرا - كجسر « ناتشورال » فى فرجينيا مثلا . والآن وقد رأيتها شعرت أننى قد أصبحت إنسانا مختلفا تماما عن ذى قبل .

لكن ، ظل السؤال الأكبر معلقا : ما طولها ؟ وتحيرنا . بدا أن الوسيلة الوحيدة للإجابة عن هذا السؤال هى أن ننزع عن العم جيرتون ملابسه ، أو أن نجذب اللحية خارج ملابسه إلى النور قبضة قبضة .

وقفنا مكتئبين نحدق فيها حتى بدأت تتحرك . كانت حركة يصعب تمييزها . بدا لى أول الأمر أنها تتدفق أسفل السرير كالغدير ، ثم تصورت أنها ترتفع إلى أعلى وتغدو كضباب الصبح الرقيق فوق بركة مياه . قبض أبى على كتفى بعنف ، فعلمت أنه رأى الحركة هو الآخر . وفجأة انفلتت اللحية من عقالها ودهمتنا . تدفقت موجاتها الجافة الفضية اللامعة موجة إثر موجة ، وانسكبت على الغطاء وانداحت على الفراش ، وكأن إناء من اللبن قد انقلب

فوقه . ثم انسالت إلى أسفل السرير وتدفقت على جانبيه دون صوت وبتأثير مغناطيسى ، وبدا وكأنها لا نهاية لها .

أحسست بها تنسال فوق حذائى وحول كاحلى ، وبذلت أقصى جهدى حتى لا تنفلت منى صرخة . سقط المصباح من يدى فالتقطه أبى قبل أن يشعل النار فى اللحية وفى المنزل أيضا . تراجعنا إلى الخلف بسرعة ، ولكن دون أن نحول وجهينا عن الفراش . خشينا أن ندير ظهورنا إلى اللحية بعد أن انطلقت من أسرها .

ثم بدأت ترتفع فى الهواء فوق صدر العم جيرتون وتتراكم فى سحب هلامية بيضاء . بدت وكأنها كومة من التبن غطاها الصقيع ، وأخذت ترتفع وحدها من على الأرض . ثم انفصلت بعض خصلاتها وبدأت تتماوج فى الهواء مثل قرون استشعار الفراشات . تطايرت حول مسند الرأس المسطح العالى للفراش تتفقده ، ثم اندفعت مثل فتاحة زجاجات حلزونية أعلى حبل الستائر - وفى غضون لحظة واحدة كانت قد دارت والتفت والتوت حول المقعد فى منتصف الغرفة ، وكأنها نبات متسلق يلتف حول تعريشة .

وأخيرا نطق أبى . صاح بصوت مرتفع : « يا إلهى » .

قلت : « أرجوك . دعنا نمض » . كان فيض اللحية قد وصل إلى بطن ساقى الآن وكنت أخشى أن تبدأ فى الالتفاف حول ساقى كما فعلت مع المقعد . ماذا سيحدث حينذاك ؟

قال أبى : « هيا أنت ، وأنا خلفك » ثم أشار إلى اللحية وقال مرة أخرى : « يا إلهى » .

كانت اللحية قد ارتفعت وتراكمت فوق الفراش حتى غدت مثل غلالة من الضباب الكثيف ، ولكن أكثر صلابة وتماسكا ، وبدت وكأنها توشك أن تهوى إلى الأمام ، ورغم ذلك كانت لا تزال تنزلق تحت الأغطية ، وعلى جوانب الفراش مثل شلال صغير . وفجأة ، وسط هذه الكتلة الضبابية ، ظهر قارب خشبى صغير على حافة الفراش ، به اثنان من الهنود الحمر من قبيلة تشيروكى ، صبغا وجهيهما بالألوان ، وأخذا يجدفان بخفة ورشاقة ، بينما حلق

فوقهما صقر - ظهر من كتلة ضباب اللحية - تطارده مجموعة متناثرة من الشحارير . ثم ترامى إلى أسماعنا صوت غناء فضى بعيد ، أعقبه بريق مثير ، ثم خرجت إحدى عرائس البحر من اللحية واتخذت موضعها على المقعد الذى تدفقت فوقه أمواج الشعر الفضى . لم يبد عليها أنها قد رأتنى أو رأت أبى ، فقد جلست تحدق فى فضاء خاص بعيد ، وتغنى أغنيتها التى تشبه جلجلة الأجراس الصغيرة . كان الشعر المتهدل على كتفيها والذى يغطى ثدييها فى نفس لون لحية العم جيرتون .

وخلف غناء عروس البحر برزت أصوات أخرى من كل الأنواع - وقوقة وصرصرة ، خشخشة وسقسقة ، همهمة ودمدمة ، عواء وزئير مكتوم وهدير رعدى - وكأنها الخلفية الصوتية لأحد أفلام طرزان . وفجأة ، فى أحد أركان الغرفة ، ثارت عاصفة مهولة إذ ارتفعت كتلة هائلة من اللحية إلى السقف ثم هبطت فى سكون مريب . ثم لمحنا تحت سطحها كتلة ضخمة تتحرك . لم تكن واضحة المعالم لكنها كانت تتحرك بسرعة وجلال نحو الحائط البعيد .

همست : « ما هذا ؟ »

صاح أبى « يا إلّهى » مرة أخرى ثم غمغم : « أقسم أنه الحوت الأبيض الكبير » .

- « أعتقد أن الوقت قد حان لنخرج من هنا فعلا » .

أجاب : « وأنا أعتقد أنك على حق تماما يا جيس » . ثم أشار إلى ثلاثة مثلثات حادة داكنة تشق طريقها إلى السطح وقال : « أسماك القرش هنا أيضا !! هذا يحسم الأمر . آن أوان الهروب » .

علق المصباح من حامله على كتفه ، وألقى السترة الصوفية القديمة فطفت للحظة على سطح الشعر الفضى ثم ابتلعتها الأمواج فجأة . شىء ما جذبها إلى الأعماق ولم أشعر بأى رغبة فى معرفة ما هو .

عمدنا إلى الباب ونحن نرفع أقدامنا عاليا فى كل خطوة ، كان ينغلق

ببطء ، وبعد دقيقة من المعافرة والجهد المشترك نجحنا فى دفع ضلفته إلى الحائط وخرجنا . كان نهر اللحية قد تدفق إلى الردهة العليا وفاض على جوانب الممر . وقفنا على رأس السلم وخلع أبى المصباح من على كتفه ورفعه عاليا . كانت اللحية تتدفق دون توقف على الدرجات فجعلت مواضع الأقدام زلقة غير آمنة .

سألت : « ما رأيك ؟ »

- « لا أعرف . لا أثق بها » .

قلت : « عندى فكرة . لنمتط سور السلم وننزلق إلى أسفل » .

قال : « فعلا . هذا هو الحل . سأمضى أولا ثم أنير لك الطريق بالمصباح . سيساعدك هذا على النزول بصورة أفضل » .

- « لا . سأذهب أنا أولا » .

قال : « أبق هنا لترى إن كنت سأهبط بسلام » . ثم قبض على حامل المصباح المعدنى بأسنانه وامتطى سور السلم ورفع قدميه وانزلق بيسر ومهارة ، لكنه ارتطم فى القاع بعمود السلم ، ولولا حامل المصباح المعدنى بين أسنانه لسمعت سيلا من اللعنات الحارقة . هبط من السور ثم تراجع خطوة ورفع المصباح إلى أعلى بإحدى يديه ، بينما أخذ يدلك عجزه بالأخرى وقال : « هيا . ستهبط بكل سهولة » .

ولكن حين تأهبت لامتطاء السور اشتبكت قدمى اليسرى فى موجة صغيرة من أمواج اللحية فسقطت على وجهى . كنت على يقين لحظتها أننى هالك لا محالة .. إما غرقا أو اختناقا ، لكن يدى اليمنى القابضة على السور أنقذتنى ، فاستدرت بصعوبة ، وقبضت باليد اليسرى عليه ، ورفعت نفسى ثم امتطيته وانزلقت إلى أسفل .

قال : « للحظة أصابنى القلق عليك . هيا بنا لنمض » .

- « أنا أيضا قلقت على نفسى قليلا » .

كان عمق اللحية أسفل السلم يبلغ ارتفاع الحذاء ، فمشينا وسطها إلى حجرة الجلوس الصغيرة ، ومنها عبر صالة المطبخ إلى باب المنزل الخلفى ، ثم إلى الخارج .

فوجئنا بشبح أسود يقف فى الفناء فجفلنا ، ولكن حين اقترب أبى بالمصباح منه اكتشفنا أنه ليس سوى جدتى . كان قوامها النحيل منتصبا غاضبا داخل رداء الحمام النبيذى اللون ، وسألتنا : « ماذا فعلتما أيها الصبيان ؟ »

لم نقل شيئا واستدرنا لننظر إلى المنزل . كانت نوافذ الطابق العلوى محشوة عن آخرها باللحية البيضاء ، بينما تدفقت خصلات متناثرة عبر نوافذ المطبخ فى الطابق الأرضى . ومن المدخنة اندفعت خصلة أشبه بشريط من لهب تسعى نحو النجوم وهى تتمايل مع نسيم الليل البارد .

قلت لها : « أردنا فقط أن نرى لحية العم جيرتون » . طرقعت بلسانها وقالت : « حسنا . هل رأيتما منها ما يكفى ؟ »

نظر إليها والدى وتنهد تنهيدة عميقة آسية وقال : « أجل يا سيدتى . لقد شبعت شبعا جميلا وأى زيادة ... » ثم خنقته الضحكة وكأنها عظمة فى زوره فابتلعها وأكمل : « وأى زيادة ستكون عبئا ثقيلا » .

حيـن تغيـر القلـب

أجد بعض الصعوبة فى وصف موقف أبى من الدين . فلنقل إنه كان متسامحا ، وإذا كانت لديه أية أفكار خاصة عن الألوهية وما يتصل بها من أسرار فقد احتفظ بها لنفسه .. كان هذا سلوكا غير عادى إلى حد كبير فى المنطقة التى نسكنها ، فقد كانت التلال المحيطة بنا تموج بالطوائف الدينية البدائية الغريبة على كل شكل ولون ، وكانت جميعها عالية الصوت ، يشهر أتباعها عقائدهم على الملأ كلما سنحت الفرصة ويدعون إليها ، فإذا لم تفلح الدعوة فى إقناع المستمع المتشكك لجأ هؤلاء المتعصبون إلى الإلحاح ، وإذا فشل الإلحاح لجأوا إلى المضايقة والإزعاج .

ورغم ذلك ظل أبى هادئا مطمئنا ، فقد كان ينظر إليهم نظرة تتسم بالسخرية والتشكك وكانت حماسة هؤلاء الصارخين بعقائدهم تثير عجبه . كان يسأل : « لم كل هذا الغضب ؟ إذا كان ما يؤمنون به هو الحق ، فقد ضمنوا النجاة ولا خوف عليهم . لو أنهم حقا آمنوا بكل ما يرددون لما تشدقوا به مرارا وتكرارا » .

قال جونسون جيبس : « يا أخى . إنهم يريدون أن تشاركهم مسرات الخلود . هذا كل ما فى الأمر » .

– « وكيف يعلمون أننى لم أجد طريقى إلى الخلاص ؟ أليس من المحتمل أننى وجدته ؟ »

قال جونسون : « وجدت طريقك إلى الخلاص وتحتفظ به سرا دفينا ؟ يا أخى . عليك أن تجهر به وتزأر وتمضى فى هذا ، ولا تترك البشر فى الظلام » .

قال : « قد أفعل ذلك . قد أكتشف أن عندى موهبة الزئير » .

لكن هذا التعصب الذى لم يكن يزعج أبى فى قليل أو كثير .. كان يمثل شوكة فى جنب السيد فيرجيل كامبل ومحنة طاحنة . كان السيد كامبل يجلس طوال اليوم فى حانوت بقالته الصغير ، بجوار الجسر الحديدى ، حيث يصب جدول تريفيت كريك فى نهر بيجين ، ويحتسى الويسكى - مشروبه المفضل - فى أى وقت يشاء ، ويطلق من فمه سيلا من اللعنات ويقسم ايمانا تشيب لها الولدان . وكان يفعل ذلك للتسلية فقط وتمضية الوقت . وقد جعلته عاداته تلك هدفا سهلا لأقبح أنواع المتطرفين وأعتاهم . كان يمثل بالنسبة لهم النموذج الأصيل للخاطىء فى أرقى صوره وقد تجسد فى وضح النهار دون أن يعنى بإخفاء أى من رذائله ، حتى التافه منها . ومن المؤكد أنهم كانوا يعتقدون أن الشيطان يسخر منهم فى شخصه ، وكأنه يقول لهم : « هيا يا أولاد . هاكم بطل الخاطئين والحائز على قصب السبق من أتباعى . هل من منازل ؟ »

وبالطبع قبلوا التحدى وتكالبوا على الحانوت ، فمرة يزوره واعظ متجول أعجف يتحلى بالجهل ، ويأخذ فى صب مواعظه فى أذن الرجل البدين المسكين وقد استند إلى قرمة الحانوت التى غطتها الدهون ، ومرةً يزوره شماس ذو وجه طويل ممصوص . وإذا لم يكن المنازل واعظا أو شماسا فمن المؤكد أنه سيكون أختا من أخوات الكنيسة ترتدى نظارة دون إطار ، وتعقص شعرها الرمادى خلف رأسها ، وسوف تتحدث إليه بحدة وضراوة بينما تتلألأ نظارتها بنور رمادى . حتى الأطفال لم يتركوه فى حاله ، فقد علمهم آباؤهم أن يقولوا له بعد أن يدفعوا ثمن الحلوى أو النعناع أو المرطبات : « شكرا جزيلا يا سيد ' مصيرك الجحيم ' . »

ولما كان يتمتع بحس ساخر ، فقد قال لأبى إنه أوشك بسببهم - لعنة الله عليهم - أن يغير اسم حانوته ليصبح « حانوت مصيرك الجحيم للبقالة والبضائع الجافة » ، لكنه تراجع حين علم بتكاليف إعادة طلاء اللافتة .

ثم كان أن خسر جونسون جيبس مباراة البيسبول التى أقامها السيد كامبل لمنازلة فريق قوس قزح النورانى الصادق التابع للكنيسة المعمدانية .. عن هذا

اليوم قال : « كانت محنة . لم يحدث أن مرت عربة واحدة على الطريق دون أن تتوقف هنا ليقفز منها شخص ما ويدخل جريا ليقول لى إننى ناصرت الفريق الخطأ ، لأننى لا أتمتع برضا المسيح ولا أجلس على يمينه » .

قال أبى : « أنا شخصيا أفضل أن ألقى باللوم على أسلوب جونسون فى قذف الكرة » .

قال السيد كامبل : « فلنفترض أننى كنت أتمتع بنور رضا الرب ، وأننا كسبنا المباراة لهذا السبب . أين كان هذا سيؤدى بهم ؟ »

- « وربما تسبب فى معركة لاهوتية » .

قال : « لديهم ما يكفيهم ويزيد . هناك حيث يبدأ الطريق بجوار خليج « تيركى » تجد كنيسة قوس قزح المعمدانية بمبناها اللطيف من الخشب الأبيض ، وبعدها بمسافة بسيطة على نفس الطريق تقع كنيسة قوس قزح المعمدانية الجديدة التى تكونت بعد أن انشقت جماعة كبيرة عن الكنيسة الأولى بسبب خلاف حول قضية الجبر والاختيار . وبعد هذه الكنيسة الجديدة بميلين هناك كنيسة قوس قزح النورانى الصادق المعمدانية التى تبدأ ببعض الكتل الخرسانية وتنتهى بجوانب من الورق المقوى بالقطران » .

- « وماذا لو كنا كسبنا مباراة البيسبول ؟ »

- « كانوا سيشتبكون فى معركة أخرى ، بعدها تذهب أعلى الجبل فتجد خيمة حقيرة على جانب الطريق تحمل عنوان كنيسة قوس قزح النورانى الوحيد الصادق الإصلاحية القدسية المعمدانية الياسوعية » .

قال أبى : « خسارة أننا لم نكسب . كم كنت أحب أن أطلع على أركان عقيدة هذه الكنيسة وأحكامها ! »

كان أكثر الدعاة المتحمسين إزعاجا للسيد كامبل رجلا نحيفا أخضر العينين ، معوج الأسنان يدعى كانارى ، اشتهر بتطرف أفكاره عن الصلاح والتقوى ، وعدوانيته الخادة ، مما دعا كنيستين من الكنائس الأقل تشددا إلى

لفظه . قال كانارى للسيد كامبل فى وجهه دون مواراة أنه وصمة على وجه الأرض ، تقذى العيون ، ورائحة عفنة فى أنف السماء . وكان يكرر عليه هذا القول كل يوم . قال السيد كامبل لأبى ذات يوم : « لقد فاض بى الكيل يا جو روبرت . إنه يأتى إلى هنا كل يوم منذ شهرين ليقول هذا الكلام دون أن يشترى شيئا ولا حتى علبة ملح » .

قال أبى : « شيء ممل » .

هز السيد كامبل رأسه مؤيدا وقال : « كل منا لديه همومه الخاصة » .

* * *

بعد ثمانية أيام التقينا بالمدعو كانارى فى حانوت السيد كامبل . أفزعنى قليلا . كان واضحا أنه يعانى من الهوس الديني ، وأن ثمة عاطفة جامحة مجنونة تتملك جسده الطويل الناحل وتحركه . كانت حركاته سريعة وفجائية ، وكان اللعاب يتناثر من فمه حين يتكلم فى رذاذ لامع مثل الشرر . وكان كثير الكلام . حين دخلنا الحانوت أنا وأبى كان قد بدأ يخطب فى السيد كامبل وهو يهيمن عليه من علٍ مثل طاحونة هواء آيلة للسقوط ، ويُلَوح بذراعيه وكأنهما جناحان مكسوران .

كان يشرح للسيد كامبل كيف سيشوى فى نار جهنم للأبد . قال : « هل تدرك معنى أن تشوى فى النار يا أخ كامبل ؟ بالطبع لا . إنه شيء لا يمكنك تصوره مهما حاولت . ألم تلسع نار الموقد يدك يوما ما ؟ ألم تشعر يومها بالألم الشديد ؟ ألم يجعلك الألم تنطر يدك بعيدا فى التو واللحظة ؟ نعم . لكن هذا الألم يا أخ كامبل لا يعد شيئا بالنسبة لما سوف تلاقيه فى الآخرة ، بل لا يعد ذرة منه . فهناك سيكون هذا الألم مضاعفا مئات المرات ولن يتوقف أو ينتهى . وحين ترجو وتتوسل من أجل جرعة ماء سيحضر لك الشيطان كبريتا سائلا ، وحين تصرخ طالبا نسمة باردة سيأتى إليك حاملا جرادل من الفحم . ستنادى « يا يسوع » حينئذ - ستصرخ مناديا بالاسم المبارك لمخلصنا ولن يجديك هذا شيئا ، فيسوع سيكون قد أدار ظهره إليك حينذاك . سيحزنه

ذلك وستطفر الدموع من عينيه الغاليتين . ولكن سيكون الأوان قد فات لإنقاذك ، وعليك أن تبقى فى عذاب الجحيم .. وصدقنى لن يعجبك الحال هناك . هذا ما يؤكده الكتاب المقدس . لن يعجبك الحال هناك » .

تحول وجه السيد كامبل إلى اللون القرمزى وابيضت حواف شفتيه . لكنه كان قد عقد العزم على الصمت . شد من أزر نفسه وأطبق على زمامها بإحكام ، ووقف ثابتا كصخرة فى مهب الريح لا يمكن زحزحتها أو إثارة غضبها . أدركنا أنه قرر أن يقاوم فى صمت ، ولا بد أن هذه المقاومة الصامتة عذبته فقد كانت ضد طبيعته تماما ، مما جعل موقفه الحالى هو الجحيم بعينه ، وأشد وطأة عليه من حفرة جهنم ونيرانها .

أدرك كانارى أنه قد نال من غريمه فمضى قائلا : « ولكنْ هناك طريق للخلاص يا أخ كامبل . مازالت أمامك فرصة . اتجه إلى يسوع الآن . اتجه إلى الرب فى الحال ، فى التو واللحظة ، واقبل الرب كمنقذك الشخصى ، فإذا فعلت ذلك لن ترى داخل الجحيم ، بل ولن ترى بواباته الحزينة . لو ولّيت وجهك شطر يسوع الآن ، فى هذه اللحظة ، وجثوت على ركبتيك ورضيت به منقذا لك أنت شخصيا سوف تنعم بالسلام والصلاح إلى الأبد ، وتنعم بصحبة القديسين الأبرار فى السماء . وإذا كنت لا تصدقنى يا أخى ، وهذا من حقك ، ارجع إلى الكتاب المقدس ، وسوف تجد كل ما قلته مذكورا فيه . واعلم أنك لن تندم أبدا يا أخى . ستصبح مثل طفل صغير » .

عند هذا الحد ابتعد أبى عنى وخطا ثلاث خطوات واسعة داخل الممر ، ووقف بجوار قرمة البقال ورفع يديه فوق رأسه وهزهما كأوراق شجرة من أشجار الحور . ثم صاح : « كانارى » ، وكان صوته عميقا بصورة لم أعهدها من قبل حتى كدت لا أميزه .

جفل الرجل النحيل واستدار إليه وقد ارتسمت على وجهه علامات المباغتة ، وكان صوته هادئا حين قال : « نعم يا سيدى . هل من خدمة أسديها إليك ؟ »

صاح أبى : « كانارى » ، وكان صوته أعلى هذه المرة . « لقد شاهدتك فى رؤيا » .

طرفت عينا الرجل وقال : « ما هذا الذى قلت ؟ »

قال أبى : « ظهر لى رب السماوات العلى العظيم فى رؤيا - حدثنى عنك فى أعماق الليل يا كانارى حديثا أثقل قلبى بهم عظيم . قال لى : هناك رجل يدعى كانارى يتسكع فى أنحاء البلاد ويعبث فى شئون العباد . لا تصدقوا هذا الرجل كانارى ولا تثقوا به . قال الرب : إنه يستخدم اسمى ليحشر أنفه فيما لا يعنيه ولن يجديه هذا شيئا . قال لى الرب : إن هذا الرجل كانارى يدعو نفسه خادمى لكنه ليس من خدامى وله قلب جاحد - أجل ، قلب جاحد ، هذا ما قاله الرب . إذ كان يجب عليه أن يجثو على ركبتيه بكل ما فى وسعه من وقت ، ويشكرنى لأن أحدا لم يحطم أنفه الفضولى حتى الآن ، ولأن أحدا من عبادى الورعين المتواضعين لم يلتقط ساطورا ويقطع لسانه الثرثار النقار الحقير . وكان أنت من أرانى إياه فى الرؤيا يا كانارى ، ولهذا عرفتك . وفى هذه الرؤيا أيضا أرانى الرب الساطور . كان يطفو فى الهواء أمامى تماما مثل العجلة التى رآها النبى حزقيال . لقد كانت رؤيا صادقة تلك التى منحها لى الرب ، ورأيت كل شىء واضحا وضح النهار . فالساطور الذى رأيته فى منامى هو نفس الساطور الذى أراه الآن أمامى على هذه القرمة » . ثم مد يده والتقط الساطور القديم الذى غطته الدهون ورفعه .

شحب وجه كانارى بعض الشىء وقال : « أنا لا أعلم من أنت يا أخى ، لكنى أعتقد أنك رأيت رؤيا كاذبة ، ففى جعبة الشيطان من الأحابيل ما يكفى لخداع أى إنسان » .

قال أبى بحزم وصرامة : « لقد كانت رؤيا صادقة لا يجب الاستهزاء بها . إن صوتا يتردد فى رأسى الآن ويقول لى أن ما رأيت لم يكن أضغاث أحلام بل نبوءة ستتحقق فى موعدها حين يحين الأجل » . ثم هوى بالساطور على حافة القرمة وضغط عليها وكسر قطعة من طرفها .

قال كانارى : « سأمضى الآن . أنا لا أومن بالرؤيا التى تتحدث عنها ، لكننى لا أومن أيضا بالعنف .. أنا لا أخافك ، لكننى فقط لا أومن بالعنف » .

ورغم ذلك لم يحاول أن يخرج من الممر الضيق حيث كان سيضطر إلى الالتصاق بأبى أثناء عبوره ، لكنه مشى بجنبه على الجانب الآخر من

المنضدة التى تعلوها البضائع القماشية والمنسوجات ، ثم لف حول صفائح المسامير والصواميل ليصل إلى الباب .

قال أبى : « هذا صحيح يا كانارى . لا تخف من أى رجل أبدا . لا تخش سوى ما سوف يحل عليك من غضب إلهى » .

فتح كانارى الباب متظاهرا أنه لا يفتحه ، ومضى إلى الخارج وذاب فى الشفق دون أن يُظهر أنه يتراجع .

ضحك السيد كامبل برهة ثم قال : « قل لى يا جو روبرت . ماذا كنت ستفعل لو أنه حاول أن يأخذ منك الساطور ؟ »

وضع أبى الساطور برفق فوق القرمة وقال : « لم يرد هذا فى الرؤيا » .

* * *

لكن جدتى لم ترض عن تصرف أبى حين سمعت بالقصة . قالت : « كيف تسخر من عقيدة أحد ؟ هذا سلوك تافه وحقير » .

قال أبى : « أنا لا أعترض على عقيدته . كل ما فى الأمر أننى أردت أن أهدىء غضب فيرجيل بعض الشىء . أدركت أنه قد تحمل قدر ما يستطيع ويوشك أن ينفجر . بحق الجحيم ! ربما كنت السبب فى إنقاذ حياة كانارى الكهل هذا » .

قالت : « لا تستخدم هذه الألفاظ ولا تقسم . ألا تخجل من نفسك ؟ » وضربته ضربة خفيفة على عقلة أحد أصابعه بكستبانها .

لكنه استمر فى الحديث : « وعلى أى حال ، كيف تعرفين أننى لم أشهد الرؤيا التى وصفتها ؟ إن هؤلاء التقاة الصالحين فى التلال يرددون دائما أنهم يتحدثون إلى يسوع شخصيا ، فلم لا أتحدث إليه أنا أيضا ؟ ربما فضل الحديث إلىّ عن الحديث إليهم ، فليسوا أمتع صحبة فى العالم » .

وضعت قميصه الأخضر الذى كانت ترتقه على منضدة حجرة الطعام

وقالت : « أنت لم تر أية رؤيا بالمرة ، ولا تحدثت أبدا مع الرب ، فلست من النوع الذى يحدث له ذلك » .

أحسست برعشة خفيفة تسرى بين عظام كتفى . كان واضحا أنها تعرف معنى الرؤيا وأنها جربتها وتحدثت حقا إلى الرب لكنها فضلت ألا تذيع الخبر حتى لا تلفت الأنظار إليها . ازدحم رأسى بالأسئلة التى أردت أن أوجهها إليها ، ولكنى كنت أعرف أنها لن تجيب . ستقول لى فقط أن علىّ أن أنفق وقتا أطول فى الصلاة وأنا راكع إلى جوار فراشى . لن تكون هناك أبدا فرصة مناسبة لسؤالها ، ولم يحدث أنى فعلت .

شعر أبى بالخجل أمام حكمها الصريح وقال : « إننى لا أقل صلاحا عن أى رجل آخر . من ذا الذى يستطيع أن يجزم أن الرب يفضل هذا الكانارى علىّ ؟ قد يقرر الرب أن يتحدث إلىّ فى الحال » .

قالت : « لكنك لن تعرف كيف تسمع » . ثم رمقته من خلال نظارتها المربعة بنظرة من نظراتها التى تجعل الإنسان يذوى ، وقالت : « إن لك قلبا طيبا يا جو روبرت - أطيب قلب فى العالم ، لكنك لم تبلغ مرحلة الرجولة الجادة بعد ، ولست مهيئا الآن لأى لقاء مع الرب فأنت مازح ثرثار ، يعوزك الإحساس بالمسئولية ولا تعرف معنى الندم » .

نكس رأسه أمامها مثل طفل صغير ولم أعرف إذا كان جادا أم يمازحها .

* * *

لم تكن جدتى تعرف ما يدور فى خلد الرب ، ولم تكن مطلعة على أسراره . وكانت معلوماتها عن هذا الموضوع خاطئة . لقد اكتشفت على مر السنين اعتلال الجانب الأكبر من حكمتها . ورغم ذلك لم يكن أحد يجرؤ على معارضة آرائها . كانت جدتى تنتزع احترام الآخرين بنفس السهولة التى تنتزع بها العتلة المسامير من عمود خشبى . ربما كان السبب وجهها المغضن البشوش ، وقوامها الطويل البارز العظام ، والطريقة التى تحدق بها فى قصبة أنف محدثها حين تقرر التأثير عليه .

ورغم ذلك ، فقد جانبها الصواب تماما فى موضوع الرؤيا ، ذلك أن الرب تحدث إلى أبى بعد أحد عشر يوما .

والحقيقة أنه تحدث إلينا جميعا نحن الثلاثة .

كنت مع أبى وجونسون جيبس فى الحظيرة الواطئة ننظف أماكن حلب الأبقار من الروث . كانت استعدادات الحلب لدينا بدائية ، فلم تكن الأرضية مرصوفة بالأسمنت ، بل كانت عارية لا يغطيها سوى طبقة من القش . كانت تنقصها الشروط الصحية بدرجة كبيرة . لذلك كان لبننا يباع بربح ضئيل باعتباره من الدرجة الثالثة . كنا نعتزم أن نغطى الأرض بالأسمنت حين تتوفر النقود . لكن النقود لم تتوفر أبدا .

كانت هذه المهمة تزعج أبى وجونسون وتجعلهما يتأففان ويزفران فى ضيق شديد . أما أنا فلم تكن تزعجنى ، ورغم ذلك كنت أتظاهر بالتأفف حتى أجاريهما . كنا - أبى وأنا - نرفع الروث بشوكتينا ونجعله فى أقراص ثقيلة مسطحة ، يلتمع القش على سطحها ، ثم نضعها فى عجلة اليد وندفعها إلى جونسون فيقوم برفع الروث بشوكته ويضعه عبر فتحة حجمها ثلاث أقدام مربعة فى كومة ليتحول إلى سماد عضوى نفرشه فيما بعد على الحقول ليغذى الأرض . لم تكن الرائحة منفرة كما كانا يدعيان . بل كانت لطيفة دافئة مسكرة كرائحة نبيذ يتخمر .

لكن منطقة حلب الأبقار كانت صغيرة بعض الشىء ، لذا سرعان ما أصبح الجو داخلها حارا ومكتوما . خلعت قميصى وعلقته على خطاف . أما هما فقد رفضا أن يخلعا قميصيهما .

قال جونسون : « إذا خلعت قميصى هنا فسأشعر بالقرف الشديد ، وبأن الحشرات تزحف على جسدى » .

أومأ أبى برأسه موافقا وقال : « على أى حال ، لقد أصبح الجو ألطف » .

وكان هذا صحيحاً . كانت رقعة السماء الصغيرة التى نبصرها من خلال الكوة قد غشاها الظلام واندفع الهواء البارد خلالها وكأنه يندفع من

منفاخ . خطرت لنا نفس الفكرة فى نفس اللحظة فاندفعنا نحو الكوة لننظر خارجها .

تغير الضوء فجأة وبدا غريبا . نظرنا كل إلى الآخر ، ثم اسودت وجوهنا وكأننا طليناها بورنيش قديم . تحول لون السماء إلى الأخضر ، ثم إلى الأصفر الباهر ، ثم انحرفت نحونا سحابة هائلة لونها أسود يميل إلى الزرقة ، وحلقت فوق رؤوسنا .

قال أبى : « يا إلهى » . وأدركنا ما يعنيه .. لم يكن هذا موسم العواصف فإذا هبت عاصفة الآن فى غير أوانها ، فمن المحتمل أن تحضر معها وابلا من البَرَد . ولما كانت أعواد الذرة لم تتخط طول الركبة بعد ، وكان محصول التبغ قد نما وكبر ، فقد توقعنا أسوأ الاحتمالات . قال أبى مرة أخرى : « يا إلهى » .

أرسل البرق إشارات ضوئية قصيرة خافتة فى الغرب يعلن بشائر العاصفة ، ثم بدأ الأفق الشمالى أيضا يبث رسائله الضوئية ليجيب عليها الأفق الجنوبى . سمعنا صوت دبيب الرعد خافتا يتقدم من بعيد ، وتلونت حواف كتلة السحب بالأخضر والأرجوانى . كانت فترات الصمت بين موجات هدير الرعد تموج بالتوقعات الوجلة ، وأحسسنا بالهواء يندفع داخلا وخارجا من الكوة ، دافئا مرة وباردا أخرى على التوالى . ثم سمعنا فى الغرب طبول المطر البعيدة تتقدم نحونا برنينها الفضى . كانت آتية لا محالة . قال جونسون : « كنت آمل أن يخيب ظنى ، لكنها حقا عاصفة » . قال أبى : « يا إلهى » .

كنت فى تلك الفترة أقرأ كتابا استعرته من المكتبة عن الأساطير الاسكندنافية القديمة وخطرت على ذهنى شخصية إله الرعد ثور . كانت بالكتاب صورة وحشية له وهو منهمك فى عمله ، وقد رفع المطرقة فوق رأسه وفرج ساقيه كما يفعل الأبطال . ذكرتنى ساقاه باسمه ، فقد كانتا قصيرتين غليظتين قويتين .

لم نستطع أن نحول البصر عن الكوة . كنا نحدق خلالها إلى السماء بعيون براقة مثل عيون السناجب ، ونفكر فى الذرة والتبغ وكيف سيدمرهما المطر ، فتصبح الأعواد الخضراء شرائط متهاوية على الأرض . بدأ

جونسون جملة ولم يكملها ـ قال : « لن يجدينا فى شىء أن نحصد ... » لكننى أدركت ما يفكر فيه تماما . فتح أبى فاه ليتكلم لكنه لم يقل شيئا .

ثم فجأة انشقت كتلة السحاب فوقنا وكأنها فراش من الريش اخترقه سكين حاد ، وتدافعت شلالات من البرق الأزرق فى شبكة معقدة من النيران المنطلقة . ثم هدأت الزوبعة لحظة وانكشفت لأعيننا أحشاء السماء فوق السحب بكل ما تحمله من رؤى . رأينا أفخاذ جنود قوات السماء العارية تتحرك فى توافق ، وسمعنا موسيقى الهواء الصاخبة المدمرة ، ورأينا أطرافه النارية الحادة ، وفوق كل ذلك بدت مساحات السحب العالية البعيدة رقيقة ، فى لون اللؤلؤ الأزرق ، وكأنها حجرات خالية فى أحد المستشفيات . ثم بدأ شطرا السحابة المنشقة يتدحرجان معا مثل ضلفتى باب مصعد ، وسرت فى الكون رعدة عميقة عطرة ، ذات رنين أجوف ، سرت فى جسدى وهزتنى من ساقىّ إلى قمة رأسى .

وقف الشعر فوق رؤوسنا مثل إبر أشجار الصنوبر ، لكننا لم نستطع الكف عن النظر بعد أن رأينا بداية العاصفة ..

لم نستطع الكف عن النظر ..

كان المطر قد بدأ ينهمر فوقنا الآن ، وغدت الروائح أكثر حدة ووضوحا ـ روائح أقراص الجلّة والقش القديم البالى ، بل ورائحة خشب مرابط الأبقار أيضا . هوت أولى سياط المطر الحادة على الحائط الغربى فهزت الحظيرة ، وكأنها تقتلع البناء من أساسه ، وبدت الحظيرة وكأنها تحاول أن تشرئب إلى البرق اللامع المنهمر عبر السماء مثل طلاء أبيض سائل يتدفق من دلو انقلب على جنبه .. وأخذ الرعد يحفر كهوفا عميقة فى طبقات الهواء العليا .

قال أبى : « لا يهم أن تمطر . المهم ألا تمطر بردا . هذا ما أتمناه » . أكد جونسون أن البَرَدَ سيهطل لا محالة . قال : « ستمطر بردا بكل تأكيد . السؤال هو : كم من الوقت ستستمر . سيتوقف كل شىء على هذا » .

نظرنا إلى الحقول تحتنا .. بدت رمادية تلتمع أعوادها بلون فضى وهى

تهتز بعنف تحت أمواج المطر الرمادى المنهمر فدهمنا إحساس محض بالعجز ، وكأننا نقف إلى جوار فراش صديق يحتضر . وأحسسنا أيضا بالحرج والخجل ، وكأننا كنا قد وعدنا بعضنا البعض بشىء ولم نستطع أن نفى بالوعد . وشعرنا أيضا بالغباء .

تحطمت إحدى النوافذ تحت هجمة من العاصفة ، واندفع البَرَد داخل الحظيرة . كانت حبات البَرَد فى البداية فى حجم حبات البرقوق ، وخطر لى أنها لا بد وأن تحدث فجوات غائرة فى سطح الحظيرة المصنوع من الصفيح .

صاح أبى : « يا إلّه السموات العلى القدير ! » فقال جونسون : « أجل . لقد نطقت بالحق » .

غدت حبات البرد أصغر بعد ذلك ، وتدحرجت متقافزة على الأرض وكأنها جنادب صنعت من ورق معدنى لامع .

قال أبى : « ربما بدأ البرد يخف قليلا .. ربما لن تكون خسارتنا فادحة تماما » .

قال جونسون : « من يعرف ؟ لا يستطيع أحد أن يتكهن بشىء » . وكان صوته غريبا فنظرنا إليه وأدركنا أن قوة خارقة غامضة قد تملكته . توهج وجهه الأحمر فبدا مثل مدفأة اكتظت بأخشاب الوقود الملتهبة وخفت زرقة عينيه حتى مالت إلى البياض ، واكتست عيناه نظرة يقظة حادة مثل نظرة السنور - اقشعرت أبداننا حين نظرنا إليه ، وكانت تقشعر مع كل طلقة من شظايا البرد ترتطم بجدار الحظيرة .

ماذا أصاب جونسون ؟ بدا وكأنه قد أصبح جزءا من العاصفة الآن أو عنصرا من عناصر الطبيعة تحاول العاصفة احتواءه - وكأنه امتداد لها ، إنسانى ولا إنسانى فى آن واحد . لم يعد جونسون بشرا ، بل تحول إلى حضور من نوع آخر ، فحولنا أعيننا عنه ، ونظرنا خارج الكوة فإذا بالبرق قد شكل برجا عاليا فى السماء .

رأينا عمودا اسطوانيا عريضا من النور يشبه بريمة حلزونية وضاءة

هائلة اخترقت السحب وامتدت إلى الأرض فانغرست فى الطين . كان نورا ملتهبا شفافا . وداخل هذه الاسطوانة الحلزونية من الضوء الأرجوانى المشوب بالبياض رأينا أسرابا وأفواجا من الكائنات التى يعجز الخيال عن تصورها . أشكال رقيقة غائمة تلتمع بألوان عديدة متغيرة تزينها شبكة من العروق فتبدو مثل أجنحة فراشة تحلق بين السماء والأرض . كانت تتحرك على أنغام موسيقى لا نسمعها فقد أغرقها هدير الرعد ، أو ربما كان هدير الرعد هو موسيقاها وإيقاعها الذى لا نستطيع إدراكه .

لم نعرف كنه تلك الكائنات .

ربما كانت ملائكة العاصفة وربما كانت كائنات طبيعية محيطها الطبيعى هو العاصفة ، تنتمى إليها كما تنتمى أسماك القرش والحبار إلى البحر . لم نتمكن من تمييز أشكالها كاملة . هل كانت تشبه عرائس البحر أم النمور ؟ هل كانت ترتدى ملابس لامعة أم دروعا براقة ؟ لم نكن على يقين من أى شىء . رأينا ما رأيناه وفسره كل منا كما تبدى له ، وأيا كانت هذه الكائنات فقد رأيناها تتخلق أمامنا .

ثم اختفى هذا البرج المائج بطاقات الوجود ثم التمع البرق مرة أخرى بالخارج قرب حائط الحظيرة . كانت التماعة عادية لا تثير الرهبة ورغم ذلك فقد رفعتنا فى الهواء نحن الثلاثة ، ونحن نلوح بأيدينا وأرجلنا بعنف ، وبعد لحظة بدت دهرا ألقت بنا على الأرض الرطبة ونحن نلهث ولا نرى ما حولنا . زحف كل منا نحو الآخر وتشبثنا بعضنا بالبعض وكأننا فوق سفينة فى بحر هائج تتقاذفها الأمواج . لم يكن الإحساس باقتراب الموت هو ما أخافنا وأذهلنا ، بل الإحساس باقتراب الحياة . كانت أمواج الوعى تتقاذفنا وتلطمنا وبدت لنا الأشياء فى حقيقتها الكاملة مفعمة بالحيوية .

نظرنا إلى بعضنا البعض فى ذهول وقد أخذنا نعود شيئا فشيئا إلى الواقع اليومى المعتاد . وأظن أننا جميعا أدركنا حينذاك أن أصعب مهمة ستواجهنا هى الامتناع عن الحديث عما وقع لنا حتى لا تمتهنه الكلمات العاجزة الخرقاء وتقلل من شأنه . علينا أن نجد الوسيلة لتجنب هذا . لقد أحاطتنا هالة الجلال

لحظة من الزمن ، والمرء لا يثرثر عادة بتجربة كهذه ، أو على الأقل يحاول ألا يفعل .

وهكذا مر أسبوعان قبل أن أفتح الموضوع مع جونسون . كنا نرقد في سريرينا المنفصلين في الظلام ذات ليلة حين سألته : « هل تتذكر يا جونسون تلك العاصفة وكل ما حدث ؟ » قال : « طبعا أتذكر . وهل يمكنني أن أنساها ؟ لقد كنا محظوظين لأنها لم تدمر المحصول كله وإلا لأفلسنا تماما » .

- « حسنا . هل تذكر حين اشتدت وبلغت أوج عنفوانها أنك سمعت « صوتا » يتكلم ؟ لا أعني صوت واحد منا ، أعني « صوتا » آخر ؟ »

تردد برهة طويلة قبل أن يجيب : « ماذا تعني ؟ » قلت صراحة : « بدا لي وقتها انني أسمع « صوتا » . خيل لي أنه داخل رأسي لكنه أيضا ليس داخلها . لم أستطع أن أفهم ما يقول . هل سمعت شيئا من هذا القبيل ؟ »

ازداد الظلام بيننا كثافة . هدأت سرعة أنفاسه وتحولت إلى غطيط خافت لكنني فطنت إلى ادعائه . كان يتظاهر بالنوم .

* * *

لم أذكر الموضوع لأبي حتى تقدم بنا فصل الخريف . كنا نحاول أن نحتمي من مطر ضبابي يتساقط متباطئا فلا نكاد نسمع وقعه على أوراق الأشجار فوقنا ، لكنه يسري في خطوط فوق ثمار التفاح المتدلية مثل مصابيح ورقية صغيرة ملونة ، ويتجمع أسفلها في قطرات كبيرة لامعة .

سألني : « عن أي صوت تتحدث ؟ » ثم أضاف : « لو كنت مكانك لما تحدثت بهذا الأمر إلى الجدة بتانا » .

قلت : « كان داخل رأسي وليس داخلها . « صوت » ضخم . ضخم جدا » .

- « وماذا قال ؟ »

- « لا أدرى . ربما كلمة لا أعرف معناها . كأنه قال « تيت » ثم شيئا بعدها . كلمة أولها هذا الصوت . ربما . لا أعرف » .

رمقنى بنظرة غريبة ـ وقال : « كلمة أولها « تيت » ؟ »

- « أجل . كلمة من هذا القبيل . هل سمعت صوتا أنت أيضا أثناء تلك العاصفة ؟ »

حملق أمامه فى الهواء المبتل وكأنه يتوقع أن يرى وجوها يعرفها تتشكل هناك . وأخيرا هز رأسه بالإيجاب فى بطء وجدية . تملكنى انفعال شديد وصحت : « أحقا سمعته ؟ كم يفرحنى هذا . كنت أخشى أن أكون الوحيد الذى سمعه » .

قال : « أعتقد أن لكل عاصفة « صوتا » نستطيع أن نسمعه لو أننا فقط أنصتنا » .

لكننى لم أدعه يصرفنى عن الموضوع فسألت : « ماذا سمعت ؟ ماذا قال لك « الصوت » ؟ »

مسح حبات المطر عن طرف أنفه بكفه القوية العريضة وقال : « قال لى الصوت إننى أصبت الحكم من المرة الأولى ، وأن هذا المدعو كانارى كلب تافه حقير لا وزن له » .

إجـازة مـن الجيـش

أخبرونى أن جونسون جيبس سيعود فى إجازة من الجيش .

قلت : « جاءت في موعدها . أراهن أنه قد سئم حياة الجيش وضاق بها . أراهن أنه سيسعده أن يجد أخيرا طعاما طيبا يأكله » . كنت أردد هذه الجمل كالببغاء فقد سمعتها تتردد فى المنزل طوال الشهور الستة الأخيرة .

قال أبى : « لن يمكث معنا طويلا . سيبقى فترة قصيرة فقط بعدها عليه أن يعود » .

– « ولماذا يريد أن يعود ؟ »

– « إنه لا يريد أن يعود ، بل مضطر إلى العودة . هذه أحوال الجيش » .

– « ولماذا تكون هذه أحوال الجيش ؟ ينبغى أن يكون له حق زيارة أهله كلما شاء » .

قال أبى : « لا تستطيع أن تدير أمور الجيش هكذا . ثم إنه لم يغادر الولايات المتحدة بعد . الآن وقد أنهى فترة تدريبه فسيرسلونه إلى أوروبا ليقتل هتلر حتى نستريح جميعا من هذه الفوضى » .

لم أكن على يقين أننى أريد جونسون أن يقتل هتلر ، فقد رأيته فى نومى أو ربما فى حلم من أحلام اليقظة . صعد هتلر إلى حجرتى وجلس فى كرسى جونسون وخلع حذاءه العالى الرقبة الملطخ بالدماء ، وحرك أصابع قدميه داخل جوربه الأسود ، وحين سألته لماذا يهوى إشعال الحروب وقتل الناس

قال : « أنا آسف يا جيس ، لكننى فى غاية التعب الآن » . وكان التعب باديا عليه فعلا . بدا شاربه مختلفا عن الشارب الذى رأيته فى صورهِ فى الصحف ، كان كثيفا غزيرا أشعث ، أطرافه متآكلة مثل شارب الخال لودن . ثم رأيته ينهض فى إرهاق وتثاقل من الكرسى ويتجه عبر الغرفة إلى سرير جونسون ويجلس على حافته . قال لى هتلر : « عفوا . سأغمض عينى قليلا بعد إذنك لأريحهما » . وحين رقد فى الفراش شغل جسده نفس المساحة التى يشغلها جسد جونسون حين ينام . نظرت إليه ولم أشعر بالكراهية التى كنت أتوقعها . رأيت رجلا متعبا وغبيا ولا شىء أكثر ، وبدا واضحا انه ليس أهلا لمنازلة جونسون جيبس . سيسحقه جونسون فى أول لقاء بينهما .

سألت : « وماذا سيحدث بعد ذلك ؟ »

– « ستنتهى الحرب طبعا وسيعود جونسون إلينا ولن يغادرنا مرة أخرى . حينئذٍ سنصلح أمور المزرعة ، ثم سأشترى كرة بيسبول وقفازات رمى جديدة وسأخصك بقفاز جديد » .

– « ومتى سيأتى إلينا فى هذه الزيارة القصيرة ؟ »

– « خلال أيام قليلة » .

لكن جونسون لم يصل أثناء النهار بل جاء فى وقت ما أثناء الليل بينما كنت نائما ، وحين استيقظت فى الصباح رأيته فى سريره الكبير عبر الغرفة . بذلت كل جهدى لأمنع نفسى من التهليل والقفز على سريره . تمهلت لحظة فهدأت أفكارى .

خطوت على أطراف أصابعى إلى سريره ونظرت إلى الجندى النائم . هكذا فكرت فيه . لم يكن جونسون جيبس بل كان « الجندى النائم » ، وكنت واثقا أن الجيش قد غيره فى جوانب هامة وإن لم أستطع التكهن بها - بدا تماما كسابق عهده - ربما ازداد شعره شقرة عن ذى قبل . كان يرقد على جنبه وظهره إلىّ ويصدر أنفاسا عميقة . اقتربت منه لألمس شعره لكن قدمى العارية آلمتنى حين خطوت فوق قالب من الطوب فانغرست زاويته الحادة فيها . كان

على الأرض أمام السرير قالبان من الطوب وصخرة كبيرة ، وتذكرت أننى كنت قد وضعتها جميعا فى سرير جونسون وغطيتها ببطانيته وأنا أتظاهر أنها ألغام ناسفة فى لعبة خيالية ، حتى إذا ما دخل الألمان من النافذة إلى سرير جونسون انفجرت فيهم فمزقتهم إربا . خطر لى لحظتها أن ألغامى الناسفة استهدفت جونسون وحده ولا أحد غيره ، فدهمنى شعور مبهم بالخجل من نفسى وأحسست بشىء من الخوف .

كانت بذلته العسكرية ذات [illegible] الكاكى مطوية بدقة وعناية فوق الكرسى ، فاتجهت إليها وفحصتها وقتا طويلا ، وأنا أجرى أناملى فوق ثنياتها الحادة المنشاة ، وأتلمس أزرارها اللامعة ومشبك حزامه المصقول . أردت أن أراه فى زيه الرسمى هذا فى أسرع وقت ممكن لأن هذا الزى هو الذى سيجعل منه رجلا آخر ، سيجعل منه الرجل الذى سوف يقتل هتلر .

عدت إلى فراشى والتقطت الملابس التى أرتديها لحلب الأبقار من فوق أحد أعمدة السرير ، وهبطت جريا إلى الطابق الأسفل .. كان أبى فى انتظارى فى الشرفة الجانبية ، ينفث دخان سيجارته فى فجر ذلك اليوم البارد من شهر نوفمبر . قلت : « جونسون هنا . لا بد أنه وصل ليلة أمس بينما كنا نائمين » .

قال : « بينما كنت أنت نائما . لقد استيقظنا نحن وفتحنا الباب له ورحبنا به » .

- « ولماذا لم يوقظنى أحد ؟ »

- « لأنك صبى فى مرحلة النمو ، وتحتاج إلى النوم حتى تغدو جميلا حين تكبر . ومن الأفضل لك الآن أن تحصل على أكبر قدر تستطيع من النوم لأنك فيما يبدو لى ستكون شديد القبح حين تكبر » .

- « كان عليكم أن توقظونى . لقد كبرت ولم أعد طفلا صغيرا » .

قال : « ربما » . كان شعره العسلى اللون مشعثا لم يمشطه ، وكان جفناه أحمرين . « ربما لم تعد طفلا وربما مازلت . لكنك على أى حال كبرت بما يسمح لك بأن ترتدى حذاءً فى شهر نوفمبر ، أليس كذلك ؟ » كنت قد نسيت

أن أرتدى حذائى ، وما أن نبهنى إلى ذلك حتى شعرت بقدمى توشكان على التجمد من شدة البرد . صعدت السلالم وتسللت إلى حجرتى حيث التقطت جوربى وحذائى . لم يكن جونسون قد تحرك من مكانه . حملت الجورب والحذاء إلى الشرفة لأرتديهما هناك .

قال أبى : « أسرع يا جيس . لقد تأخرنا هذا الصباح » .

قلت : « سأكون سعيدا حين يأتى موعد الإفطار . أريد أن أسمع جونسون يحكى لنا كل شىء » .

ثم خرجنا إلى الحظيرة وحلبنا بقراتنا الأربع وأطلقناها فى المرعى ، وعدنا إلى البيت وصببنا اللبن فى الآنية المصنوعة من الصلب ، ووضعناها فى مكانها المعهود حيث تجمعها عربة معمل الألبان . بدا لى وكأن العمل يستغرق ضعف الوقت المعتاد ، وجعلتنى لهفتى أرتبك وأتخبط فى أدائى مما جعله يبدو وكأنه يستغرق ثلاثة أضعاف الوقت . ولكننا فرغنا منه أخيرا ودخلنا إلى المطبخ الدافىء السابح فى بخار الطهى لتناول الإفطار .

لم يكن جونسون هناك .

قلت : « لقد تأخر فى النوم . يحسن أن أذهب وأوقظه » .

قالت أمى : « جيس . إذا أيقظت جونسون سوف ... سوف ... لا أدرى ماذا سأفعل » .

قال أبى مقترحا : « تستطيعين خلع أحد مفاصله أو تعليقه بمسامير على باب الحظيرة ، أو خلع عينيه من رأسه وابتلاعهما مثل حبات العنب المجفف » .

قالت أمى متوعدة فى صرامة : « شيئا من هذا القبيل » .

صحت محتجا : « ولكن ماذا أفعل إذن ؟ »

قالت : « تذهب إلى المدرسة كالعادة ، وسوف ترى جونسون حينما تعود بعد الظهر » .

قلت : « لا . أرجوك » . رأيت اليوم الدراسى يمتد أمامى كئيبا ، مفزعا فى طوله باردا جامدا فى حركته ، وبدا لى أنه سيكون أبطأ يوم سجله أى تقويم على مر التاريخ .

قالت : « اطمئن ـ ستنعم بوقت طويل فى صحبة صديقنا الجندى » .

* * *

لكن لا . لم يحدث .

حين عدت إلى المنزل فى الثالثة والنصف ، وألقيت بحقيبتى وكتبى الدراسية المملة جانبا أخبرتنى جدتى أن جونسون خرج بعد الغداء ولن يعود قبل موعد العشاء على الأقل . قلت : « لا . يا للأسف . أين ذهب ؟ »

قالت : « أعتقد أن لديه أمرا شخصيا صغيرا يستدعى اهتمامه » .

– « أى أمر شخصى هذا ؟! كان يستطيع أن يصحبنى معه لأساعده إذا كانت لديه مهمة ما » .

قالت : « هذه مهمة لا يقوم بها إلا رجل واحد . أظن أنه قد بدأ يتقرب إلى لورى لى التى تسكن فوق تل يونجسون . ولا أعتقد أنك تستطيع أن تعينه فى هذا الأمر » .

– « يتقرب إلى فتاة ؟! »

ابتسمت وقالت : « إنها فتاة جميلة جدا . هذا ما سمعته » .

نزل علىّ الخبر كالصاعقة . لم يحدث أن ذكر جونسون الفتيات بالخير أبدا فيما أذكر ، بل إنه عدَّد لى يوما كل الأشياء التى لا تستطيع الفتيات القيام بها مثل صيد الأسماك بالسنارات الحديثة ، ولعب كرة القدم ، وتصليح محركات السيارات ، وتسلق الأشجار . بدا لى يومها أنهن قد يستطعن تسلق الأشجار لو ركزن قليلا وتدربن بعض الشىء . لكنه قال لى إن هذا غير ممكن لأنهن يرتدين أثوابا واسعة ، فإذا تسلقن الأشجار انكشفت عوراتهن وهذا يجلب العار على الفتاة .

سألته يومها : « وماذا عن الفتيات اللاتى يكشفن عوراتهن فى صندوق صور الخال لودن ـ صندوق الدنيا . إنهن عاريات تماما » .

قال : « إنهن فتيات من نوع آخر ... إنهن من كاليفورنيا » .

– « وهل تكشف الفتيات فى كاليفورنيا عوراتهن ؟ »

قال : « أرجو ذلك حقا . وأتمنى فعلا أن أتحقق من هذا بنفسى » .

لكن لورى لى لم تكن من فتيات كاليفورنيا . كانت كبرى بنات مكلين لى العجوز ، وكانت تهوى الذهاب إلى السينما فى ثوبها الأصفر لتشاهد أفلام لانا تيرنر أو جون جارفيلد . جلست إلى جوارها يوما ونحن نشاهد فيلما لجارفيلد ، وكانت تفوح منها رائحة عطر قوى مُسَكّر نفاذ أصابتنى بالصداع . كان شعرها داكن السواد مصففا على أحدث موضة ، ولا بد أنها أنفقت وقتا طويلا فى تصفيفه على هذا النحو . وكنت أراها أحيانا فى متجر شيرمان تجلس إلى إحدى الموائد ، تتصفح إحدى مجلات السينما وأمامها طبق من الأيس كريم .

أجل ، كنت أعرفها تماما ، لكننى لم أتصور أنها تعرفنى أو لاحظتنى ، فقد كان كل اهتمامها ينحصر فى الفتيان الأكبر سنا ، الذين يقودون العربات ويرتدون البلوفرات ذات الأشكال الهندسية المتعددة الألوان . وكان هذا الاهتمام يتفق تماما مع طبيعتها ولا يزعجنى ، فقد كانت القصص العاطفية البلهاء وأمور الحب والغرام ، ومثل هذه الأشياء الغبية التافهة هى كل ما يشغل عقلها . لم أر شيئا فيها يمكن أن يجذب جونسون جيبس . لكننى كنت مخطئا وأيقنت الآن أن الجيش قد غيره . ربما كان الطعام البشع الذى اضطر إلى تناوله فى الجيش هو الذى أفسده ، وجعله يتودد إلى لورى لى . بدا لى أن الجيش يفسد كل شىء ولا يؤدى أى مهمة على الوجه الصحيح : لقد جند آلاف الرجال فى الحرب ولم يقتل أحد منهم هتلر بعد ، ولهذا فقد قرروا أن يرسلوا جونسون للقيام بهذه المهمة ، لكن جونسون وقع تحت تأثير فتاة ألهته عن مهمته ، ومن المحتمل أن ينسى تماما ما هو المطلوب منه حين يذهب إلى

هناك . خطر لى أن لورى لى قد تكون جاسوسة للنازى كلفوها بتشويش أفكار جونسون واكتشاف خطته السرية ، وربما أنها تدون كتابة كل ما يقوله لها ، وتذهب حين يتركها إلى جهازها السرى لترسله بشفرة مورس إلى هتلر .

لم تبد مثل أحد جواسيس النازى حين دعاها جونسون إلى البيت لتناول العشاء معنا . جلسا فى الشرفة الجانبية مع أبى ينتظران إعداد الطعام ، وهما يمضغان اللبان بسرعة رهيبة قاتلة .

ابتسم جونسون ابتسامة واسعة حين رآنى ، وتورد وجهه العريض فى سعادة وصاح : « أهلا يا جنرال . أين كنت ؟ »

لم يكن قد نادانى بلقب جنرال من قبل ، ولم أعرف إن كان يروق لى أم لا . قلت : « كنت هنا طول الوقت . أين كنت أنت ؟ »

– « أتجول هنا وهناك . أنت تعرفين جيس بالطبع يا لورى أليس كذلك ؟ »

قالت : « طبعا أعرفه . أهلا أهلا يا لذيذ » .

حين دللتنى بلفظ « لذيذ » انزاح عبء عن كاهلى فقد ظهر غباؤها جليا ، وتأكدت أنها لا يمكن أن تكون جاسوسة للنازية ، فهتلر أذكى وأمكر من أن يتحمل شخصا يتفوه بمثل هذه السخافات ، وبدأت لحظتها أتشكك فى ذكاء جونسون . أهو ذكى حقا كما تصورته دائما ؟!

رددت تحيتها فى حرج ، ثم سألت جونسون : « قل لى . لماذا لم توقظنى حين وصلت البارحة ؟ »

قال : « كنت فى غاية التعب ، والرجل منا يحتاج إلى كامل يقظته وانتباهه حين يلقاك . كدت أن أنام على الأحجار وقوالب الطوب من شدة التعب . أقول كدت . لكننى لم أفعل » ثم غمز لى بعينه .

أدركت أنه قد تغير . كان هذا واضحا . بدا أكبر سنا ؛ اضطرته الحرب إلى أن يكبر سريعا ، وأحسست أن علىّ أنا أيضا أن أكبر سريعا ، وأن أبدأ

فى هذا فورا . إنها مسئوليتى . سأبدأ أولا بجمع لعبى وحزمها وتخزينها ، وسأكف تماما عن التمثيليات الخيالية التى أتصور فيها الصخور ألغاما وقوالب الطوب وغيرها أشياء أخرى . انتهى هذا العهد إلى غير رجعة . وضعته خلف ظهرى وفردت كتفى إلى الوراء ، وبدأت أتكلم مثل الكبار .

– « هل رأيت أى ألمان بعد ؟ »

قال : « لا . ليس فى موقعنا . لكنهم وصفوهم لنا » .

– « ما شكلهم ؟ »

قال : « بشع . أقبح مخلوقات يمكن أن تتخيلها . مجرد التفكير فيهم يجعل البدن يقشعر » .

– « هل أطلقت إحدى بنادق الجيش بعد ؟ »

– « طبعا ـ مرات ومرات ـ لم أجد أى صعوبة فى هذا . سأريك بعد قليل ميدالية الرماية التى فزت بها » .

اطمأن بالى . لم ينس بعد تماما المهمة المكلف بها ، ولم ينقطع عن التدريب .

سألتنى لورى : « فى أى صف دراسى أنت الآن يا جيس ؟ »

– « الثالث » .

– « هل تحب المدرسة ؟ »

قلت : « لا بأس بها . لكنى أفضل أن أكون فى الجيش » .

قالت : « أجل . أعرف ما تعنى . للجنود سحر خاص » . ضغطت ذراع جونسون فاكتسى وجهه لونا قرمزيا لامعا . غمغم بشىء إليها فرفعت يدها عن ذراعه ، لكنها لم تغضب ، بل نظرت إلى أبى عبر الشرفة وغمزت بعينها .

ابتسم لها لكنه لم يرد الغمزة .

* * *

لم أتمكن من الحديث إلى جونسون تلك الليلة أيضا . بعد العشاء مكث هو ولورى معنا حول المائدة بضع دقائق نتبادل الحديث ثم خرجا معا . استعار عربتنا « البونتياك » القديمة وجلست لورى إلى جواره فى المقعد الأمامى ، وقد التصقت به بقدر ما تستطيع . مضت العربة متمهلة ولوحا لنا بأيديهما وهما يبتعدان .

قال أبى : « إنهما ملتصقان تماما . لا يمكن أن تمرر ورقة بنكنوت بينهما مهما حاولت » .

سألت : « أين سيذهبان ؟ »

قالت أمى : « يا حبيبى جيس . لقد حدث لى هذا منذ زمن بعيد ولقد نسيت . عليك أن تسأل أباك » .

قلت : « أين ؟ »

قال : « أعتقد أنهما سيمضيان فى طريق بريمروز إلى بقعة سويت برديشن أو الفناء اللذيذ ، وقد يتوقفان فى الطريق عند متجر فلاجرانت ديلكتو لتناول المرطبات » .

- « لم أسمع بهذه الأماكن من قبل . كيف تصل إليها ؟ »

أجاب : « إذا كان جونسون حصيفا ، فسيذهب عن طريق رابر جانكشن » .

- « جو روبرت ! » صاحت أمى فى لهجة محذرة ، وكان هذا يعنى دائما أن على أبى أن يغير موضوع الحديث ويبدأ فى الكلام عن شىء آخر . لم يضايقنى تغيير مجرى الحديث إذ لم أكن أفهمه من الأصل .

- « هل أستطيع أن أنتظر جونسون حتى يعود لأتحدث إليه ؟ »

قالت أمى : « ليس الليلة . سيعود فى وقت متأخر جدا . لا تقلق يا جيس . سنقضى وقتا طويلا فى صحبة جونسون » . نضح صوتها بنبرة حزن عميقة وهى تذكر اسمه - لم يخطئها سمعى لكننى لم أفهم مغزاها . فجأة وجدتنى محاطا بأشياء كثيرة لا أفهمها ولم أعرف ماذا أفعل حيال ذلك أدركت أننى أحتاج أن أكون أكبر سنا حتى أفهم ، وحاولت أن أوظف إرادتى لأكبر سريعا . لكن هذا لم يكن كافيا . كنت فى حاجة إلى معلومات أساسية عن الحياة لم تكن متوافرة لى آنذاك .

سنحت لى فرصة الحديث مع جونسون تلك الليلة ، رغم أننى لم أسهر فى انتظاره ولم أعرف متى عاد . لكننى حين أفقت من نومى فى الساعات الأولى من الصباح رأيته يجلس على حافة فراشه ، وقد فرد كفيه فى حجره ، وأخذ يحدق فى لا شىء ، أو فى الظلال الرمادية المصفرة التى فرشها نور المصباح على المنضدة السوداء الكبيرة التى تفصل بيننا تحت المقعد . كان وجهه ساكنا حزينا مما جعلنى أتردد فى الحديث إليه فى البداية . رقدت فى الفراش وقد أسندت رأسى إلى ذراعى وراقبته . كنت أعلم أنه قد أدرك أننى استيقظت ، ورغم ذلك ظل صامتا فترة طويلة .

ثم قطع حبل الصمت وقال فى صوت خافت : « لا أريد أن أعود يا جيس ، ولا أعرف إن كنت فعلا سأعود » .

- « ألن تعود إلى الجيش ؟ »

استغرق وقتا طويلا فى تحويل رأسه ناحيتى لينظر إلىّ ثم قال : « ليس الجيش كما تتخيله . إنه يختلف كثيرا عما تتصور » .

- « وأين ستذهب ؟ »

- « كنت أفكر فى الهروب » .

- « الهروب ؟ »

- « أرحل بعيدا مع لورى وأختفى » .

– « وهل هذا تصرف سليم ؟ »

– « كلا . سيجلب علىّ متاعب ومشاكل لا حصر لها ـ لكننى أفكر فيه على أى حال » .

– « أليس من الأفضل أن تستقيل ؟ قل للجيش إنك لا تريد أن تعمل هناك بعد الآن » .

قال : « لا يستطيع أحد أن يستقيل من الجيش . إذا حاولت فسيسجنونك ويحرقون المفتاح ، وقد يقتلونك رميا بالرصاص » .

صدمتنى هذه المعلومة ، وفاقت كل توقعاتى لكنها اتسقت تماما مع فكرتى السابقة عن سوء تصريف الجيش للأمور . ها هو جونسون جيبس ، أفضل فرصة لديهم للتخلص من هتلر ، وها هم يوشكون أن يقتلوه رميا بالرصاص !

قال : « لو لم أكن قد عشت معكم لتحملت حياة الجيش . إنها حياة لا بأس بها لمن هم فى مثل ظروفى ، بل وأفضل كثيرا مما اعتدته ونشأت عليه . لكننى جئت إلى هنا وعرفتكم عن قرب ، وأصبحت كواحد من أفراد الأسرة وما أن بدأت أعتاد هذه الحياة حتى وجدتنى مضطرا للرحيل . إنهم لا يعاملون الإنسان فى الجيش كما تعاملونه أنتم » .

قلت : « من الغريب أنك تريد ترك الجيش ، فأبى يود أن يلتحق به » .

قال جونسون : « لن يقبلوه فهو العائل الوحيد لهذه الأسرة ، وعليه أن يرعى شئون المزرعة . هذه مهمة كافية » .

– « ستعود وتساعدنا فى أعمال المزرعة بعد أن تقتل هتلر » .

قال : « لا أعرف إن كنت حقا الرجل الذى يستطيع أن يقضى على هتلر .. من المحتمل أن يقوم هو بالقضاء علىّ » .

قلت : « لا ـ هذا هو الغباء بعينه ـ انك تقول كلاما فارغا الآن » .

افترت شفتاه عن بسمة خابية بعيدة حزينة وقال : « ربما كنت على حق يا جيس . ربما كان من الأفضل أن أتحدث مع أبيك قبل أن أقدم على تصرف أحمق أندم عليه . ما رأيك فى أن ننام قليلا الآن ؟ »

* * *

ساد البيت جو من التوتر خلال الأيام القليلة التالية ، وارتسم القلق على وجوه أبى وأمى وجدتى ، وكانوا يجتمعون بين الحين والآخر فى أماكن منعزلة ليتشاوروا فيما بينهم فى نبرات خافتة . لم يزعجنى هذا ، فقد كنت أعلم عما يتحدثون ، كنت فقط أتمنى لو أنهم استشارونى وطلبوا رأيى . كان رأيى أن يعود جونسون إلى الجيش على الفور ، وأن يرحل إلى أوروبا ليكمل مهمته . حينئذٍ لن يحتاجه الجيش فيستطيع أن يعود إلى المزرعة . وبمجرد أن يترك الجيش سيعود إلى سابق عهده ، ولن يفكر مرة أخرى فى لورى لى ، أو أى فتاة أخرى .

لكنهم لم يطلبوا رأيى أبدا ، بل قام أبى بدعوة العجوز مكلين إلى المنزل ، وجلس معه وقدم له قدحا من القهوة وسأله إذا كان قد سمع شيئا عن خطط لورى وجونسون للمستقبل.

قال : « إذا كان لديهم خطط فلم يخبرونى بها » . كان ضئيل الحجم ، تبدو عليه علامات التعب والإرهاق .. شعره رمادى وكذلك عيناه .. أما أسنانه فقد تغير لونها ومالت إلى الاصفرار . كان لديه ستة أبناء ـ ثلاث بنات وثلاثة أولاد . وكنت قد سمعت أبى يقول إن حياة العجوز لى كانت صعبة شاقة ، فقد ماتت زوجته منذ عشر سنوات ، وانتقلت أمه لتعيش معه وترعى الأبناء بعد ذلك لكنها ماتت بدورها بعد فترة قصيرة ، فأخذت مكانها شقيقته العانس ، وكانت مختلة العقل بعض الشىء . كان يبدو منكمشا داخل ملابسه ، زائغ العينين ، يختلس النظر إلى العالم من طرف عينيه وكأنه كلب تعود على الركلات فبات يحذرها .

قال أبى : « اسمع يا مكلين . أنت تعرف أننى رجل لا أهوى الثرثرة والقيل والقال » . كان قد اقترب بكرسيه من كرسى السيد لى حتى كادت

ركبتاهما أن تتلامسا . توقف أبى فى حديثه ينتظر أن يؤمن الرجل على ملحوظته .

نظر العجوز إليه نظرة مترقبة ، وأومأ برأسه إيماءة متأنية مؤمنا على كلامه .

– « ويعلم الله أننى لست من هؤلاء الذين يستمتعون بوضع العراقيل فى طريق الحب الصادق . لكن حدث ما يجعلنا نعتقد أن ابننا جونسون ، وابنتك لورى ربما يخططان للهرب معا والزواج » .

اختلج حاجب السيد لى الأيسر مرة واحدة . ثم قال : « هل سمعتهما يتفوهان بذلك ؟ » ثم أخذ رشفة بطيئة عالية الصوت من قهوته .

قال أبى : « لم أسمعهما يقولان هذا صراحة . لكننى عاشرت جونسون وبت أعرفه تماما . ولقد أدركت من بعض التعليقات التى تفوه بها هنا وهناك أن هذا ما ينتويانه » .

فكر الرجل برهة ثم قال : « لا أظن أننى أستطيع أن أمنعهما لو أردت . إنهما شخصان كبيران ناضجان وحين أنصح لورى بشىء ما ، فإنها تفعل عكسه تماما » .

– « اسمع يا مكلين . هل تريد أن تقول لى إنك توافق على هذا الزواج ؟ لا أظن ذلك . فى رأيى أنه سيكون خطأ فادحا » .

– « إذا كان خطأ فسوف يتحملان هما عاقبته . أليس كذلك ؟ » قال هذا ونظر إلى أبى نظرة صريحة مباشرة .

قال : « هذا أكيد . لكنى لا أرى وجها للتسرع فى ارتكاب هذا الخطأ . أمامهما وقت طويل . إننى فقط لا أعتقد أن هذا أنسب وقت ولا أومن بالعجلة . أليس من الأفضل أن ينتظرا عاما أو ما يقرب من ذلك ليتحققا من مشاعرهما ؟ وأنت تعلم يا مكلين أن مستقبل جونسون ليس مضمونا ، وليس لديه أية مؤهلات للزواج ، فهو يتيم ومجند فى الجيش ولا يمتلك أى مال » .

قال السيد لى : « لديه مرتبه من الجيش . أعرف أزواجا بدأوا حياتهم بمال أقل » .

أدركت من نبرة صوته أنه هو نفسه قد بدأ حياته الزوجية بأقل من هذا . حاولت أن أتخيل جونسون بعد زمن طويل وقد أصبح رماديا ، ضئيلا ومتعبا مثل السيد لى ، لكننى فشلت . لا الجيش ولا الزواج من فتاة يستطيع أن يغيره إلى هذا الحد .

قال أبى : « المهم يا مكلين أن الزيجات التى تتم أثناء الإجازات القصيرة من الجيش لا تنجح عادة - فما أن يتزوج الطرفان حتى يفترقا لفترة لا يعلمها أحد . سيسافر جونسون عبر البحار - هذا وارد جدا - وستعود لورى هنا ، زوجة وحيدة ، تعد الأيام . إنه موقف لا يبشر بالخير ولا رجاء منه » .

قال السيد لى : « لن أستطيع إثناءهما عن عزمهما حتى لو أردت » . ثم وضع قدحه نصف الممتلىء بالقهوة الخفيفة على الأرض ونهض واقفا . قال : « لقد حكمت على الموقف وفق ما تراه ، وأنت على حق فى حكمك هذا . أما أنا فقد رأيت زيجات لم أتوقع لها أى نجاح على الإطلاق ونجحت رغم ذلك » .

- « هل تعنى أنك لن تحاول إثناءهما عن عزمهما ولو قليلا ؟ »

- « بكل تأكيد . حين يخبراننى بالأمر سأبدى الغضب والضيق - فإذا فشل هذا فى إقناع لورى بالتراجع فلا أدرى ما الذى يمكن أن يقنعها » .

تنهد أبى وقال : « فعلا . ربما كان هذا كل ما نستطيع أن نفعله » .

صحبنا السيد لى إلى الخارج ، وبدأ يتحدث عن سوء الأحوال الجوية والتوقعات المفزعة لمحاصيل هذا العام ، وفساد الحالة السياسية وعفنها . وافقه أبى على ما قال وهو يصدر أصواتا وغمغمات ملطفة ، لكنه حين عاد إلى الغرفة كان يتمتم فى صوت مكتوم : « حمار وكلب غبى » ، ثم تنهد وقال بصوت مسموع : « على أى حال لا ينبغى أن نلومه كثيرا لأنه يريد أن

يتخلص من أحد الأفواه التى يطعمها . إنه يحيا حياة طاحنة هذا العجوز » .

سألته : « هل سيتزوج جونسون لورى لى ؟ »

قال أبى : « لا » .

- « وكيف تعرف هذا ؟ »

- « سأمنعه » .

- « كيف ؟ »

حكَّ حلمة أذنه وقال : « هذا هو السؤال الذى لا أعرف إجابته حتى الآن » .

***

فى اليوم التالى قال : « هذا ما أريده منك يا جيس : أريدك أن تسرق كل ما فى حوزة جونسون من لبان وتحضره لى » .

لم يكن هذا بالأمر العسير . كان جونسون ولورى لى قد مكثا بالخارج حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولما كان الصباح التالى هو يوم السبت فقد استغرق جونسون فى النوم حتى وقت متأخر . تسللت إلى فراشه ووقفت إلى جواره أراقبه . كان فمه مفتوحا ، وكانت حدقتاه تتحركان بصورة عنيفة عشوائية تحت جفونه المغلقة بينما أخذ يقبض ويفتح يده اليسرى على التوالى . أدركت أنه يعانى من كابوس ولو كان هذا قد حدث فى الماضى لأيقظته ، أما الآن فلم أعد أعرف طبيعة علاقتنا ، وإذا كانت تسمح لى بذلك ، ولم أكن متأكدا من رد فعله لو حاولت إيقاظه .

على المائدة الكبيرة أسفل الفراش وجدت أربع عبوات من اللبان ، وسط بعض النقود ، ووجدت عبوة أخرى بجيب قميصه . كانت كل العبوات مفتوحة باستثناء واحدة ، وقد نقص من كل منها أصبع أو أصبعان .. حملتها جميعا وهبطت السلم إلى الدور السفلى حيث كان أبى يجلس فى الشرفة الجانبية . أعطيتها له وقلت : « هاك كل اللبان » .

قال : « كلها تقريبا عبوات مفتوحة . هذا جميل » . بدأ يفرغ أصابع اللبان من عبواتها وينزع غطاءها بحرص ويضع اللفافات الصفراء التى تحمل اسم اللبان على جانب . بعد ذلك أخرج من جيب سترته الصوفية ست عبوات من لبان من نوع آخر ، وبدأ ينزع لفافاتها بنفس الطريقة . كانت لفافات اللبان الذى ابتاعه بنفسجية داكنة ، لكننى لم أتمكن من معرفة نوعه . ثم أخذ يضع أصابع اللبان الجديد فى لفافات اللبان القديم ، ويرصها فى العبوات القديمة . حين وصل إلى العبوة المقفولة تردد لكنه ما لبث أن غمغم : « لن ينتبه إلى أن إحدى العبوات لم تكن مفتوحة » . وشرع فى فتح العبوة وتكرار ما فعله بالعبوات الأخرى .

بعد ذلك أشعل سيجارة وتأمل صنع يديه وقال : « لا بأس . لا أعتقد أن أحدا يستطيع أن يفطن إلى الفارق بين النوعين » .

سألته : « ما الخبر ؟ كيف يستطيع تغيير نوع اللبان أن يغير من الأمر شيئا ؟ »

– « لو لم أكن مخطئا فسوف يبرد هذا اللبان عاطفته المشتعلة إلى حد كبير - أو سيفسد تركيزه على أى حال . اسمع يا جيس إياك أن تمضغ أيا من لبان جونسون مهما ألح عليك . هل تسمعنى ؟ »

– « نعم يا سيدى » .

لملم أصابع اللبان القديم الملفوفة فى أوراقها المعدنية ، ولفافات اللبان الجديد البنفسجية القاتمة وأعطاها لى قائلا : « هاك . خذ كل هذه الأشياء وادفنها فى حفرة خلف كشك الأخشاب . ثم احمل هذه اللفافات الجديدة إلى غرفة جونسون وضعها تماما حيث وجدتها . هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ »

قلت : « أجل يا سيدى » . وحملت اللبان واللفافات البنفسجية . فردت إحداها خلف كشك الأخشاب وقرأت ما عليها . حملت كلمة « فينامينت » ولم أكن قد سمعت بها من قبل .

* * *

لكن هذه الكلمة الغريبة غيرت من سلوك جونسون بصورة ملحوظة . بدا لى أنه قد أصبح يقضى ساعات طويلة فى حمام الدور السفلى ، وساعات مماثلة فى الحمام الصغير فى الدور العلوى . كان يجلس مسترخيا يثرثر فى الشرفة أو على مائدة الطعام ، وفجأة يهب واقفا ويقول فى صوت مكتوم بعض الشىء : « عن إذنكم » ، ثم ينطلق . بعد ذلك كنا نسمع صوت باب الحمام يفتح ثم ينغلق فى صفعة مدوية ـ حدث هذا مرارا وتكرارا فى الأيام القليلة التالية .

بدأت جدتى وأمى تتبادلان نظرات متعجبة متحيرة . قالت أمى :

– « أظن أن شيئا ما قد ألم بجونسون . أعنى ألم بصحته » .

قال أبى : « إنه الطعام . لقد تعود على طعام الجيش المعلب فى المصانع ، لكنه الآن عاد يأكل طعام الريف الطبيعى الطيب . صدمة مثل هذه لا بد وأن تسبب مشاكل فى أمعائه » .

قالت : « لم تحدث له أية مشاكل فى البداية » .

قال : « لا أعتقد أن الأمر خطير . لا تشغلى بالك » .

وكان الموقف يزداد سوءا وحرجا حين تأتى لورى لى لزيارتنا ، فقد كانت تتصرف تماما مثل جونسون ـ كانت تجلس بيننا وتشرع فى ثرثرتها المعهودة الفارغة عن أحب نجوم السينما إلى قلبها ، وفجأة تهب واقفة وقد احمر وجهها وتندفع إلى الحمام وتصفق الباب خلفها . كنت أعرف أنها تمضغ نفس اللبان الذى يمضغه جونسون .

قال أبى : « ربما احتجت إلى إصلاح باب الحمام قريبا . يبدو لى أن مفصلاته قد تخلخلت بعض الشىء ، هذا طبعا إذا وجدت الفرصة . فالحمام مشغول طوال الوقت » .

وحدث مرة موقف فظيع أثناء إحدى زياراتها ، وذلك حين هرعت إلى الحمام لتفاجأ بجونسون يشغله . سمعناها تطرق الباب أولا ثم تقرعه بعنف وهى تصيح : « أسرع يا جونسون أرجوك . أتوسل إليك » .

قال أبى : « أظن أن هذه القصة الغرامية قد بدأ لهبها يخبو . ألم تلاحظى أنها لم تدلله كالعادة بعباراتها السمجة المعهودة ورحمتنا منها ؟ »

قالت أمى : « لا بد أن مرضا ما قد ألم بهما. أعتقد أنهما أصيبا بعدوى ما » .

قال : « لا . لا . إنهما فقط مضطربان ومتوتران . هكذا حال كل العاشقين الصغار فى البداية . هل نسيت يا كورا ؟ »

قالت : « لا أذكر أننى عانيت من أعراض كهذه » .

قال : « آه . إن الحب لغز عظيم وتختلف أعراضه من شخص لآخر . وهو أيضا هوائى ومتقلب ، يهبط فجأة ويرحل فجأة مثل أمطار الصيف » .

قالت : « لقد بدأت أظن الآن يا جو روبرت أن لك يدا فيما يحدث » .

أجاب أبى : « أنا ؟ » ونظر إليها وبراءة الأبقار فى عينيه .

ثم سمعنا لورى لى تقول : « جونسون . أرجوك ، من فضلك ، أتوسل اليك أن تسرع » . كان نداؤها أشبه بعويل روح ضالة قذف بها إلى متاهات ظلام أبدى وحكم عليها بالعذاب إلى ما لا نهاية .

* * *

وذات ليلة لم يخرج جونسون كعادته للقاء لورى لى وبقى معنا فى المنزل . لم يكن قد بقى من إجازته من الجيش سوى خمسة أيام ، وشعرنا جميعا بما يخالجه من مشاعر . كان وجهه قد فقد حمرته الملتهبة ، وغدا شاحبا يقترب من البياض فى مناطق متفرقة . تناولنا العشاء على مهل ثم انتقلنا إلى الحجرة الأخرى لننعم بدفء الموقد الحديدى . دار الحديث كالعادة عن ذكريات الماضى والأوقات السعيدة التى قضيناها جميعا معا قبل رحيل جونسون إلى الجيش ، وتجاهلنا جميعا نهوض جونسون المفاجىء بين الحين والآخر ليهرع إلى الحمام . وفى مرحلة ما تحول الحديث إلى الحرب الدائرة

فى أوروبا ، والخطط المتوقعة للحلفاء ، لكن أمى سرعان ما أدارت دفة الحديث بعيدا عن هذا الموضوع .

قالت : « لا أستطيع أن أحتمل التفكير فى هذا بينما يوشك جونسون على العودة إلى الجيش » . تندت عيناها والتمعتا ببريق دموع لم تنهمر .

أدار جونسون رأسه وهو فى طريقه إلى الحمام ، وقال من فوق كتفه :

– « ولا أحب أنا أيضا أن أفكر فى هذا » .

شرع أبى بعد ذلك يتذكر رحلة صيد للأسماك قام بها مع جونسون . اتجها إلى بحيرة فونتانا ليجربا حظهما ، وهناك استأجرا قاربا من عجوز مختل ، وفى القارب غلبهما النعاس بعد أن ألقيا بسنارتيهما إلى الماء فاضطرا إلى التجديف لمسافة ربع ميل عودة ليخلصا الشصين مما اشتبكا به . وحكى لنا عن السمكة الوحيدة التى اصطاداها . قال : « كانت سمكة غريبة من نوع الصلّور ، ولكن من فصيلة لم أسمع بها من قبل . كانت أقبح سمكة رأيتها فى حياتى . أقسم على هذا ، ولم نحتمل أنا وجونسون النظر إليها ، ناهيك عن العودة بها إلى البيت والإقرار بأن لنا ثمة علاقة بها . وماذا سنفعل بهذا الكائن القبيح يا جونسون ؟ سألته » .

شرع جونسون فى الضحك ، لكنه فجأة قال فى نبرة حادة مكتومة :

– « عن إذنكم » وانطلق خارجا إلى الحمام .

ابتسم أبى ابتسامة واسعة وقال : « الآن أتذكر . لقد دفناها فى تل من الرمل . حفرنا لها قبرا ووضعنا عليه صليبا صغيرا من الخشب كعلامة . وقام جونسون بكتابة مرثية هناك فى الرمال . كتب : « كانت أقبح من أن تبصر وأقبح من أن تؤكل واستهلكت عليها اللعنة كل الطعم الذى حملناه » .

قالت أمى : « أما أنا فأتذكر دائما أكثر من أى شىء آخر تلك الرحلة إلى الخلاء ، حين زرنا هوة بتسى . هل تذكران كيف حاولتما أن تحضرا لى تلك الزهرة البرية التى رأيتماها تنمو على سطح الصخور الشاهقة ؟ »

قال أبى : « كانت كبيرة وزرقاء . أعتقد أنها أجمل زهرة رأيتها فى حياتى . لكن الصعود إليها كان محنة شاقة » .

قالت : « أظن هذا . فحين نجحتما أخيرا فى الهبوط بها وإحضارها إلىّ لم يكن قد تبقى منها شيء يذكر . كانت مهروسة وأشبه بالعجين » .

قال أبى : « كان الصعود إليها على مشقته أسهل بكثير من الهبوط . كانت الوسيلة الوحيدة للهبوط هو أن يدع الإنسان نفسه يهوى . كنت أهوى مسافة ، وحين أمر بجونسون فى سقوطى أمرر الزهرة إليه تماما مثل كرة القدم ، وكان هو بدوره يفعل نفس الشيء فيعيد إلى الزهرة حين يعبرنى فى سقوطه . وفى نهاية الأمر سقط أحدنا فوقها فهرسها تماما . من منا سقط فوقها يا جونسون ؟ »

بدأ جونسون فى الرد فقال : « أظن .. » لكنه توقف وابتسم ابتسامة بيضاء مزمومة ، وقال من بين أسنانه : « عن إذنكم » وخرج فى اتجاه الحمام .

قال أبى : « أعتقد أننى أنا الذى سحقتها ـ لم تعد كزهرة بالمرة . أردت دفنها كما دفنا السمكة القبيحة من قبل لكن جونسون نصحنى بأن أحضرها إليك لأن الأعمال بالنيات » .

قالت أمى : « إننى حقا قلقة على صحته ، وأفكر فى أن أستدعى طبيبا » .

قال : « لا تفعلى هذا يا كورا . ثقى بى . سيكون بخير » .

نظرت إليه لحظتها وأدركنا أنها قد أدركت شيئا ما ، وإن كانت لا تعرف ما هو .

جلسنا نتحدث بعد ذلك فترة ثم توجهنا إلى الفراش . صعدنا أنا وجونسون السلالم المظلمة التى تثير الرهبة إلى غرفتنا ، وخلعنا ملابسنا وأوينا كل إلى فراشه ، ورقدنا بضع دقائق نفكر فى الوقت الممتع الذى قضيناه لمجرد أننا جلسنا معا جميعا نثرثر ونتسامر حول المدفأة .

أطلق تنهيدة عميقة فى الظلام ، ثم قال : « هذا هو الشىء الذى افتقدته بعنف منذ رحيلى ، وأعتقد أننى سأفتقده أكثر حين أعود إلى الجيش هذه المرة » .

سألته : « هل ستعود إلى الجيش ؟ ألن تهرب مع لورى لى ؟ » صمت فترة دون أن يجيب ، ثم قال : « لم تمض الأمور بيننا على خير ما يرام يا جيس ـ إننا لا نكاد ننظر أحدنا إلى الآخر حتى نجد أنفسنا مندفعين عدوا إلى المرحاض » .

تذكرت عبارة أبى فرددتها : « أليس من المحتمل أن تكون هذه أعراض الحب الحقيقى ؟ »

قال : « لا أعتقد هذا إطلاقا يا جيس ـ لم أسمع أحدا يصف هذه الأعراض من قبل على أية حال » .

قلت : « ترى ما هو إذن ؟ ... أعنى الحب الحقيقى الصادق ؟ »

تنهد مرة أخرى وقال : « لا أدرى ولكن لا بد أنه مرض أظرف بكثير من الإسهال » .

بعد ذلك خلدنا إلى النوم .

* * *

انتهت إجازته صباح السبت التالى . كنا قد قررنا أن نصحبه جميعا فى السيارة إلى محطة القطار فى تبتون ونودعه هناك . لكننا تراجعنا الواحد تلو الآخر ، واعتذرنا عن الذهاب ، وتعللنا بأن لدينا مهمة أو أخرى لا تحتمل الانتظار . كانت الحقيقة أننا لم نتحمل أن نراه يصعد إلى القطار ويضيع فى زحام الجنود والغرباء . لم نتحمل أن نرى القطار يغادر هذه المحطة الصغيرة المنبعجة فينتشر دخانه الأسود كغطاء نعش ، أو أن نسمع نحيب أقرباء الجنود فى كل مكان .

وفى النهاية رفض كل من أبى وأمى أيضا أن يصحباه إلى المحطة ، وتشاحنا حول هذا الموضوع . لكنها لم تكن مشاحنة غاضبة فقد كانا يعلمان أن سببها حزنهما المتبادل ، وأخيرا رضخ أبى .

هبط جونسون إلى الطابق الأسفل وهو فى زيه العسكرى ، ورغم أنها كانت أول مرة أراه يرتديه لم يبد غريبا فيه . بدا وكأنه زيه المألوف المعتاد ، وكأنه جزء طبيعى منه مثل بشرته المتوردة التى بدأت تسترد لونها الأصلى بعد أن تخلصنا أنا وأبى من اللبان الذى يسبب الإسهال ، واستبدلناه باللبان العادى الذى يمضغه جونسون عادة . ارتسم على وجهه تعبير جاد لكنه ليس متجهما - تصلبت عضلات فكيه وأخذ يطبق أسنانه .

صافحنا أو احتضننا الواحد تلو الآخر ، والدموع تنهمر من عيوننا ، وأهدته جدتى إنجيلا صغيرا لونه أحمر ، وأعطته أمى صندوقا من الدجاج المقلى والبسكويت ، ودفع أبى فى كفه ببعض النقود .

لكننا جميعا لم نقل شيئا . وماذا كان يمكننا أن نقول ؟ لقد زحف العالم الخارجى القابع خلف التلال علينا ، وانتشر فوق قمم الجبال مثل سحابة سوداء هائلة تمتلىء بالبرق والرعد ، تمتلىء بأصوات مدوية تصم الآذان ، أصوات غريبة علينا ، أصوات تنطق بألسنة لم نصدق من قبل أنها توجد حقا . وكانت هذه السحابة الصوتية تدمدم فى آذاننا ، وتحدثنا عن الدمار الذى يتهدد ثقافات وحضارات لا ننتمى لها بأى صلة ، ولا نكن لها سوى أقل درجات الولاء ، ورغم ذلك ندفع فى سبيلها أعز ضريبة .

كنت أدرك الآن من استماعى لحديث أبى وأمى مع جونسون أن جونسون لن يقتل هتلر حقا وينهى الحرب كما تصورت ، وأن الأمر لن يكون بهذه البساطة ، وأن السحابة التى تبث الرعب وتخيم على جبالنا لن تبددها سوى قوة الزمن الطبيعية ، وتعاقب أيامه وتوالى أعوامه ، وأن جونسون ليس سوى جزء ضئيل جدا فى هذه العملية الرهيبة ، ليس سوى ورقة من أوراق أشجار الجوز تتقاذفها الرياح العاتية فى لحظة هبوب العاصفة . وكنت قد أدركت أيضا ، ربما دون أن أعى هذا ، أن الجبال الراسخة نفسها لم تعد آمنة

أو ثابتة ، وأن دعائم الأرض قد اهتزت وتهرأت عرى الصلات بين النجوم فأصبحت فى وهن خيوط العنكبوت .

أظن أن هذه الأفكار قد دارت فى رؤوسنا جميعا ومست أحاسيسنا فى تلك اللحظة ، لحظة رحيل جونسون ، وأننا من فرط رهبتها لبثنا صامتين ولم ينطق أحد منا كلمة واحدة ولا حتى « إلى اللقاء » . فقط احتضنا بعضنا البعض وتصافحنا وبكينا فى صمت .

وحتى بعد أن ابتعد أبى بالسيارة حاملا جونسون لم نقل شيئا أنا وأمى وجدتى . خرجنا إلى الشرفة ننتظر عودة أبى فى الريح الباردة . ربما لن نتكلم أبدا بعد الآن ، ربما قطعنا على أنفسنا عهدا أمام الله دون أن نقصد - عهدا لا نستطيع أن نفهمه .

ولكن أبى عاد من محطة القطار مبتسما وجعل يمازحنا وخفف هذا من حزننا بعض الشىء .

قال : « أعتقد أننى اكتشفت سر حبى الشديد لجونسون . السبب أنه يفكر تماما مثلى ، بل ويتحدث أيضا مثلى قليلا » .

قالت أمى : « تُرى لماذا ؟ »

البرقيـــة

كانت البرقية دائما معنا ، لا نستطيع الفكاك منها . لم يفضها أحد منا : كنا نعرف فحواها . قالت لنا البرقية إن جونسون جبيس قد مات ، أنه قتل في حادث تدريب في فورت براج . انفجرت قنيفة من قذائف مدفع الهاون في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ . جرح آخرون ولم يقتل أحد سوى جونسون . حدث ذلك قبل أيام قليلة من موعد رحيله إلى أوروبا .

انطلق البكاء حارا في البداية ، خاصة من أمي ، ولكنه خف بعد ذلك . خيم على البيت صمت متحجر . كان بداخلنا شعور رمادي صلد . أحسست به في حلقي جامدا كالصلب . خطر لي أنني إذا طرقت على صدري بعقلات أصابعي فسوف أسمع رنين مجموعة من الدروع . كنا نمضي هنا وهناك بطريقة آلية وفي حالة من الذهول .

مكثت البرقية زمنا طويلا على مائدة الطعام ، تستند إلى وعاء السكر الذي تلفه خطوط زرقاء وبيضاء . كان لونها أصفر لامعا مثل قيح بشع . لم يلمسها أحد ، لكننا لم نستطع تحمل رؤيتها أمامنا على المائدة ، فمكثنا نتناول وجباتنا في الشرفة لمدة أسبوعين .

إلا أن شخصا ما - لا بد أنه كان أبي - أزالها . لكنها عادت . أزلناها جميعا الواحد تلو الآخر ، لكنها كانت دائما تعود إلى مكانها على المائدة ، تستند إلى وعاء السكر وتحدق فينا .

وجدت مكانا مناسبا لإخفائها . كان جحر فأر في كشك الأخشاب . أحسست بها ساخنة في يدي وأنا أحملها إلى هناك . لم يكن ملمسها يشبه ملمس

الورق على الإطلاق ، كان أشبه بملمس مادة لزجة مشتعلة . دفستها فى الجحر وأغلقته بإحدى الصخور . ارتسمت على يدى حيث كانت البرقية خطوط حمراء وبيضاء وكأنها احترقت . غسلت يدى وقتا طويلا قبل أن تختفى هذه الخطوط .

ثم فى نفس المساء عند الغروب عادت إلى مكانها على المائدة تستند إلى وعاء السكر . كانت مفرودة دون ثنيات وكأنها قد وصلت لتوها .

لكن أحدا منا لم يتذكر كيف وصلت .

ذات مرة رأيت أمى تحمل صينية من الخشب عليها كومة من مناشف الأطباق ، وأدركت لحظتها أن البرقية ترقد تحت المناشف وأن أمى قد خططت للتخلص منها . أعجبت بشجاعتها ولكن خطر لى أن خطتها ـ أيا كانت ـ لن تفلح . وصدق ظنى ، فقد ظهرت البرقية مرة أخرى ، وقحة ومتحدية ، لم يمسسها أذى .

كانت أمامنا على المائدة ، ولم يكن أحد منا يوجه إليها نظرة واحدة ، ورغم ذلك فقد ظللنا بالطبع نحدق فيها وكأنها الضوء الوحيد فى أحلك ليلة فى العالم .

حملها أبى إلى قمة تل للرعى ، ووضعها وسط الحشائش ، وأشعل فيها النار بعود كبريت . تكورت فى ألم مروع بطىء ، ثم تفحمت دون أن يصدر منها دخان ، وتركت خلفها أثر الحريق ـ بقعة جرداء صفراء مستطيلة ، لن ينبت عليها العشب الأخضر أبدا . لكنه حين عاد إلى المنزل وجدها فى انتظاره على مفرش المائدة الأحمر .

فى الليل كانت تزحف فوقنا ونحن نيام مثل لوح هائل من الثلج الأصفر ، وكنا نشعر بها تخنقنا فى أسرّتنا فنهب من نومنا ونجلس .. عيوننا جافة ولكن يغرقنا العرق .

ذات مرة دهمنا هذا الثلج الأصفر أثناء النهار وبدا كنهر جليدى لا نهاية له . قاومنا على سطحه رياح اليأس العاتية وأنين السماء . تماسكت أيدينا ،

وحمينا وجوهنا من الريح ، ومن نظرات كل منا إلى الآخر ، ومر وقت طويل قبل أن نتمكن من الوصول إلى المزرعة - إلى البيت القابع وسط التلال الدافئة والحقول .

كانت لدى البرقية القدرة على التقلص والانكماش إلى حجم طابع البريد ، إلى نقطة ، إلى ذرة غبار .. حينذاك كنت أجدها فى جيبى أو فى أغطية الفراش . وكثيرا ما كان يبدو لى أنها استقرت فى ركن عينى مثل حصوة صفراء ترفض أن تزول .. حصوة تحرق عينى وتجعلها تندى بالدموع . وكان هذا أفظع آلامنا الجسدية .. حين يفشل البكاء فى غسل عيوننا منها .

ورغم ذلك لم نتحدث عنها طوال تلك الأسابيع ، بل ولم نذكرها بالمرة . بدا لى غريبا ألا نتحدث عن البرقية التى حملت إلينا كل هذا الألم وكل هذا الخوف . ربما كنا نخشى لو تحدثنا عنها أن تنتشر فى كل مكان فلا نستطيع الفكاك من سطوتها .

صليت إلى الله أن يخلصنا منها . ولا أنكر أننى صليت بمثل هذا الإخلاص ، بكل هذه الحماسة البريئة منذ ذلك الوقت . كنت أعلم أننا جميعا نصلى ، وكانت جدتى تصلى ليلا ونهارا دون انقطاع . لكن الصلوات لم تمس البرقية بسوء ، بل ولم تفلح فى تخفيف وطأة الشعور الميت الجاثم على قلوبنا . اكتشفت حينذاك أننى قد أصلى وأنا فى قمة يأسى فلا أجنى سوى مزيد من اليأس ، وأننى قد أتفوه بكلمات الصلاة وأتعلق بمعانيها ، بينما تنزوى روحى داخلى وتنكمش إلى حجم رأس الدبوس .

ثم حدث ذات مساء أن أحضرت كرسيا إلى المائدة وجلست أحدق فى البرقية - قلت لنفسى : فلتفعل بى ما تشاء . كان وقت الغسق وكانت البرقية أوضح شىء فى الغرفة . لا أدرى كم من الوقت قضيت وأنا أنظر إليها . عم الظلام الغرفة وتبدت النجوم خلال زجاج النافذة العلوى . ثم شيئا فشيئا بدأت البرقية تنثنى وتنطوى ببطء إلى الداخل حتى اتخذت شكل وردة صفراء فى

حجم الكف ، ذات طبقات وطبقات من الأوراق الصفراء المتوهجة . بدت وكأنها تحلق على ارتفاع بوصة من مفرش المائدة ثم أطلقت نشيجا حزينا خافتا . كان صوتا سمعته ذات مرة يصدر من كلب رضيع أعمى حين افتقد جنب أمه الدافيء . ومع هذا الصوت اختفت عن ناظرى إلى الأبد - سقطت وهى تدور حول نفسها فى حفرة فى الظلام . راقبتها وهى تختفى وانزاح هم عن قلبى لحظتها فاستطعت النهوض ، رغم حيرتى واضطرابى ، والانصراف من الغرفة دون عار ، ودون أن أنظر خلفى ووجدت طريقى بكل الثقة فى الظلام .

وأظن أن جدتى وأمى وأبى قد قاموا بهذا الطقس ، وأعتقد أن كلا منا رأى البرقية تتحول إلى شكل مختلف عن الآخرين قبل أن تختفى . لكننا لم نتحدث عن هذا الأمر أيضا .

لقد كان طقسا معذبا لنا جميعا ، لكن وقعه كان أشد على أمى .

الـــرواة

جاء العم زينو لزيارتنا . أترى قد جاء حقا ؟

حتى هذه الحقيقة البسيطة ـ حقيقة زيارته ـ لا تخلو من أخذ ورد . كان موجودا كشبح أو طيف بكل تأكيد ، فقد كان يروى لنا قصصاً ـ قصصا لا حصر لها ، وكانت هذه القصص تؤثر فى نسيج حياتنا اليومية بطريقة جعلتنا نبدأ فى التساؤل عن حقيقة معالمنا الأساسية . يحدث أحيانا ونحن نمشى فى الخلاء أن نبصر حديقة زهور مهجورة زحفت عليها الزهور البرية . أنسميها حديقة حينذاك ؟ إننا نرى فيها نظاما طبيعيا يختلط بنظام صناعى ، وفى ضوء هذا الاختلاط يضيع منا التعريف المألوف .

لكن الرجل الذى أحدث فينا كل هذا التحول كان يبدو وكأنه ليس حاضرا بيننا . كان ضئيل البنية ، لا يميزه شىء على الإطلاق ، واعتاد أن يرتدى قمصانا بيضاء تهرأت ياقاتها وأساورها . والحق أن الصورة التى انطبعت فى ذاكرتى عنه لا تحوى من ملامح سوى إسورة قميص مهترئة وقصاصة رفيعة وقشرة بذرة مقروضة . ولولا حديثه لما لاحظنا وجوده وكأنه إحدى القطط الضالة التى تأوى إلى جرننا للراحة فى رحلتها من برية إلى برية . إننى لا أستطيع أن أتذكر شعره أو وجهه أو يديه ـ لقد كان مجرد صوت .

وكان هذا الصوت أيضا عاديا ، لا يميزه شىء سوى أنه لا يتوقف ولا ينفد . كان صوتا جافا ، ثابت النبرات لا يعلو ولا ينخفض . وكان هذا الصوت يحكى تلك القصص بدقة آلية تشبه الدقة التى تحمل بها النملة قطعة من ورق الشجر المتعفن إلى جحرها . ورغم ذلك لم يكن للعم زينو هدف واضح من رواية تلك القصص ، كما كانت حكاياته تفتقر إلى التنظيم فى

السرد . فقد كان يبدأ القصة أحيانا من البداية وأحيانا فى منتصفها أو نهايتها ، وكان أحيانا يركز على أحد التفاصيل الغريبة ثم ينطلق فى قصصه فى اتجاهين أو ثلاثة فى نفس الوقت . ونادرا ما كان يكمل القصة فى جلسة واحدة ، بل كان يتركها معلقة فى الهواء مثل لص يتأرجح من حبل المشنقة ، أو يدعها تتعثر وتبطىء حتى تتوقف مثل سيارة معطلة تسد الطريق . ولم يكن يلقى بالا إلى ردود أفعالنا .. فإذا كانت القصة فكهة لم يلتفت إلى ضحكنا ، وكأن هذا الضحك فراشة بعيدة ، وإذا أسينا لقصة حزينة لم يبد عليه أنه يدرك هذا . كان اهتمامه مركزا فى مكان آخر . خيل لى ولأبى أنه حين يحكى لا يسترجع من ذاكرته قصصا حدثت ولا يخترع قصصا خيالية ، بل يردد كلمات يهمس بها فى أذنه صوت آخر ينبعث من مكان ما خلف ندف السحب العالية البيضاء التى كان يهوى التحديق فيها .

- « هذا يذكرنى بـ .. »

خيل لى أن هذه الكلمات سوف تتردد فجر يوم القيامة ، وأنها بإيقاعها الهادىء ستكون النغمات التبشيرية التى ستعلن أن الزمن قد توقف ، وأن على البشر جميعا أن ينصرفوا عن أمور الدنيا ، ويصرفوا كل اهتمامهم إلى اكتشاف ذلك العالم الآخر - عالم الكلمات الريفية المتمهلة الذى سيتلوها . هكذا تسيطر علينا البدايات فتجعلنا نتوق إلى معرفة ما يليها بحيث لا نستطيع أن نتابع اهتماماتنا الشخصية - حتى الملح منها - بأى شعور من الرضا قبل أن تكتمل القصة . والناطق بهذه الكلمات يفرض دائما سيادته بسهولة ويسر .

« هذا يذكرنى بشخص يدعى ليسى جو بلاكمان » قال العم زينو . « بعض الناس كما تعرفون يفتخرون بما يملكون من سيارات ، أو بيوت ، أو أشياء من هذا القبيل . وبعض الناس يفتخرون بكلاب الصيد التى فى حوزتهم مثل بافورد رودس - لكنه ليس من أريد الحديث عنه ، بل عن ليسى جو بلاكمان . كان ليسى جو يفتخر بساعة ورثها عن أبيه فلم يخلعها لمدة خمسين عاما أو يزيد ، ولم يكن يعرف متى دخلت هذه الساعة ميراث العائلة قبل أن تصل إلى أبيه . كانت ساعة من الطراز القديم حقا ، ساعة جيب ضخمة

مستديرة ، ولها غطاء معدنى من الفضة نَحُل من القدم وكثرة الاستعمال حتى بات رقيقا . وحتى حين بلغ ليسى جو الخامسة والسبعين من عمره كان كثيرا ما يسحب ساعته من جيبه ويفتح غطاءها ويخبرك بالوقت قبل أن تسأل .

وكان ليسى جو يتمتع بشهرة واسعة كصياد ماهر . ربما لم يتفوق عليه . فى عدد الحيوانات التى قتلها سوى تيركى جورج بالمر . كان يذهب للصيد فى أى وقت ليلا أو نهارا ، وكان يصطاد كل شىء - الظبى والدب والقنفذ ، وكل الحيوانات التى تخطر على بالك . ولو كان هناك موسم لصيد النمل لذهب واصطاده . لم يعد الناس يذهبون لصيد الدببة كثيرا فى هذه الأنحاء . إننى أتذكر آخر مرة ذهب ليسى جو فى رحلة لصيدها .

كان سيتباك وليامز قد باع مزرعته الكبيرة فى منطقة بيفيردام حين تقدم به العمر ، وابتاع هو وزوجته مارى سو عزبة صغيرة تطل على منتزه سموكى القومى العام حيث يحظر صيد الحيوانات . لم تكن عزبة للزراعة فقد كان سيتباك قد تخطى سن الأعمال الشاقة ، ولكن خلف البيت كان يوجد بستان صغير من أشجار التفاح ، لا تزيد أشجاره على دستتين تقريبا . وكان سيتباك العجوز مولعا بالتفاح ومحبا لأشجاره .

ولكن دبا مزعجا بدأ يتجول فى تلك الفدادين ، وكان بدوره محبا للتفاح ومولعا بأشجاره . أنتم تعرفون ماذا يحدث حين يرى دب شجرة تفاح . إنه يتهيج ويشرع فى سن مخالبه على جذعها كما تفعل القطة بغطاء الأريكة ، ويأخذ فى الدوران حولها وهو يمزق لحاءها ، ولا يمضى وقت طويل حتى يكون قد نزعه تماما ، فيكتب على الشجرة الموت .

كان سيتباك قد فقد شجرتين بهذه الطريقة ، وحار ماذا يفعل . كان القانون يحرم إطلاق الرصاص على أى دب دون تصريح حتى ولو غزا ممتلكات السكان المجاورين للمنتزه . ولم تكن إدارة المنتزه لتمنح مثل هذا التصريح مهما سبب الدب من أضرار . ورغم ذلك فقد ذهب سيتباك إلى مقر المشرفين على المنتزه مرارا وتكرارا ، وظل يلاحقهم ويلح عليهم حتى حملهم على المجىء أخيرا إلى بستانه ، والاعتراف بأنه ربما كانت لديه مشكلة حقا .

كان الحل الذى توصلوا إليه هو إقامة سور حول البستان . لكن إدارة المنتزه كانت ترفض فكرة الأسلاك الشائكة لأنها لا تتسق مع الطابع الريفى للمكان ، ولم ترغب فى أن يراها السياح الذين يتوافدون عليه . وهكذا ، وبدلا من الأسلاك الشائكة أقامت الإدارة سورا من الخشب السميك بارتفاع ست أقدام حول البستان ، وتكلف ذلك عشرة أضعاف الجهد الذى يتطلبه إقامة سور متين من الأسلاك الشائكة . وحين رأى سيتباك نتيجة عملهم قال على الفور : أيها الرجال . لن يحول هذا السور بين الدب وبين أشجارى ، ولن يشكل عائقا أمام أى دب . ولم يمر يومان حتى وجد دبا يجلس فى إحدى الأشجار ، وينظر تحته وكأنه يمتلك الشجرة ، بل وإدارة منتزهات الولايات المتحدة كلها أيضا . أطلق سيتباك صيحة عالية فهبط الدب من الشجرة مهرولا وانطلق إلى الغابة فى لمح البصر قافزا فوق السور . قفز فوقه وكأنه يقفز فوق طبق من حلوى الخوخ الساخنة .

فما كان من سيتباك إلا أن اتصل بحراس المنتزه مرة أخرى وبعد تردد ومناقشات استمرت فترة جاءوا وبنوا سورا جديدا من جذوع الأشجار لم أر مثله فى حياتى . كان طوله أربع عشرة قدما على الأقل ، وكان متينا وسميكا مثل أسوار الحصون . كان منظره يثير الرهبة ، ويا للجهد الذى بذله هؤلاء الرجال فى بنائه . لكن الشك ظل يساور سيتباك ، وبعد أسبوع واحد نظر من النافذة فرأى نفس الدب يجلس فى نفس الشجرة ، وكأنه ملك انجلترا يجلس على عرشه الذهبى . جرى سيتباك إلى الخارج وأطلق صيحة عالية فقفز الدب من الشجرة وجرى إلى السور . وحين وصل إليه شب على قدميه وفرد جسمه مثل رجل يحاول إحضار إناء من فوق أحد الرفوف العالية ، ثم أمسك بإحدى الكتل الخشبية فى منتصف السور على ارتفاع سبع أقدام ، ثم قفز إلى الناحية الأخرى . كان مشهدا رائعا كما قال سيتباك ، ولولا غضبه الشديد لصفق للدب .

فى لحظة كان على الهاتف ، وأخبر حراس المنتزه أنه سوف يطلق الرصاص على الدب سواء وافقت الإدارة أم لم توافق . وقالوا له كلا ، لن يسمحوا له بهذا . فقال لهم إن من حقه أن يحمى ممتلكاته وخاصة أشجار

التفاح ، هذا بالإضافة إلى الرعب الذى أصاب زوجته من جراء زيارات الدب المستمرة . وقد كان مبالغا فى هذا فلم تكن مارى سو تخاف أى شىء - كانت إمرأة شجاعة . أخيرا قالوا له إنهم سيسمحون له باقتناص الدب بشرط أن يستخدم الفخ الذين سيحضرونه إليه ، وحين يقع الدب فى الشرك سيأتون ويحملونه إلى أقصى أطراف الجانب الآخر من الغابة ، بحيث لا يستطيع الوصول إلى أشجار التفاح . لم يثق فى فعالية هذا الحل لكنه كان على استعداد لتجربة أى اقتراح .

كان الفخ الذى أحضروه دون أسنان قابضة . بردوا الأسنان حتى لا تؤذى ساق الدب أكثر مما ينبغى . لكن الفخ رغم ذلك كان هائل الحجم والوزن ، وقال سيتباك إنه لم يكن قد رأى من قبل فخا بهذا الحجم .

ثبته فى الأرض وسط الأشجار بواسطة عمود من الخشب المتين ارتفاعه خمس أقدام تقريبا ، وسلسلة حديدية طويلة ضخمة ، ثم غطاه بأوراق الأشجار تماما .

مر أسبوع أو نحو ذلك قبل أن يسمع كل من سيتباك ومارى سو ضجة فظيعة فى الخارج ، وأصوات اندفاع هنا وهناك وصخب وضوضاء . كان ذلك فى الصباح الباكر قبل شروق الشمس . من المزعج أن يستيقظ المرء على جلبة كهذه ، ولكن سيتباك ما لبث أن أدرك أن الدب قد وقع فى الفخ ، فأسرع بارتداء ملابسه وخرج ليستطلع الأمر .

لكنه لم ير شيئا سوى بعض أوراق الأشجار الممزقة ، وكتل من الطين المتناثر ولا شىء آخر . لقد نزع الدب عمود الخشب المتين - البالغ ارتفاعه خمس أقدام - من الأرض تماما ومضى . لم يترك شيئا وراءه .. حمل معه الفخ والسلسلة الطويلة والعمود الخشبى ، وقفز بها فوق سور جذوع الأشجار البالغ ارتفاعه أربع عشرة قدما . لم يصدق سيتباك عينيه كما قال .

عاد إلى الهاتف مرة أخرى ، وأخبر حراس المنتزه القومى بما ينوى أن يفعل فوافقوه على رأيه ، إذ ليس من الرحمة أن يُترك حيوان وقدمه فى

فخ ، ويظل يعانى آلاما كهذه . ثم اتصل بى بعد ذلك وبخمسة آخرين وبليسى جو بلاكمان الذى كان لا يزال لديه كلاب لصيد الدببة ، وكان يتمتع بشهرة فى هذا المجال . التقينا جميعا فى المزرعة وكان ذلك فى حوالى الثامنة صباحا .

التقطت الكلاب الأثر سريعا ، وأخذت فى النباح لحثنا على الإسراع فانطلقنا مهرولين خلفها . راقبنا ليسى جو - كان قد ناهز الثمانين لكنه كان عفيا يتمتع بالنشاط والحيوية ، وبعد قليل أدركنا أننا لن نستطيع أن نجاريه ولا الكلاب أيضا . لكننا لم نضطر إلى قطع مسافة بعيدة ، إذ بعد ميلين تقريبا عثرنا على الدب أعلى شجرة . ويا لها من شجرة !

كانت شجرة هائلة ارتفاعها لا يقل عن ستين قدما ، وكانت الفروع أعلاها - حيث جلس - نحيلة . اعتلى قمة الشجرة تماما فمالت ميلا شديدا تحت ثقله - ولولا أنها كانت من أشجار الصنوبر لربما انكسرت . كان منظرا عجيبا والريح تهزها والدب أعلاها - وقفنا فترة طويلة نتأمل المشهد فحسب .

قطع سيتباك تأملنا حين قال : حسنا يا ليسى جو بلاكمان . أعتقد أن الطلقة الأولى من حقك . كان أكبرنا سنا وكنا نظنه قد فقد حدة بصره وغدا شبه أعمى ، وتصورنا أن الهدف سيكون من نصيب واحد منا . قال ليسى جو بلاكمان : سأفعل إذا كان هذا ما تريد ، ورفع بندقيته . كانت بندقية قديمة عيار ستة وثلاثين أو نحو ذلك ، وكانت من طراز عتيق ربما يعود إلى زمن سحيق ، وكأنها صنعت فى عهد الملك نمرود ، أضف إلى ذلك أنها لم تكن مجهزة بمهداف أمامى لضبط دقة التصويب . قلنا جميعا لأنفسنا ليس ثمة خطر يتهدد هذا الدب بعد . لكنه رفع بندقيته وأطلقها دون أن يصوّبها وأردى الدب قتيلا . اكتشفنا بعد ذلك أن الطلقة قد أصابت الدب بين العينين تماما .. هوى الدب من الشجرة ككتلة ثقيلة لمسافة ثلاثين قدما ، ثم انتفض إلى أعلى وتعلق فى الهواء فقد اشتبك العمود الخشبى الذى كان يجرجره وراءه بفرع كبير ممتد من جذع الشجرة . بقى الدب معلقا فى الهواء فترة يتأرجح جيئة وذهابا مثل

بندول ساعة كبيرة من ساعات الحائط . جيئة وذهابا ، جيئة وذهابا . كان مشهدا رهيبا جعلنا نلزم الهدوء التام وكأننا فى جنازة .

وفجأة أخرج ليسى جو بلاكمان ساعته وفتح غطاءها الفضى ، وأخذ ينقل بصره تباعا بين الدب المتأرجح جيئة وذهابا وبين الساعة ، ثم قال : يا أصدقائى ، إذا كانت ساعتى مازالت مضبوطة فهذا الدب يتأرجح أبطأ قليلا من عقرب الثوانى .

عقد أبى ما بين حاجبيه وقال : « ماذا تعنى أبطأ من عقرب الثوانى ؟ إننى لا أفهم . إن الدب لا يتعلق من شجرة ليخبرنا بالوقت . ماذا يعنى بأنه أبطأ من عقرب الثوانى ؟ »

لكن القصة كانت قد انتهت وكذلك حديث العم زينو . لم يكن يجيب عن أى أسئلة . كان يحكى قصصه فقط . كان الصوت الذى ينصت إليه - ذلك الصوت القابع خلف أسوار العالم - يغذيه بالقصص التى يحكيها فقط . ولم يكن يهتم بأى شىء عداها . التفت العم زينو إلى أبى ، لكن نظرته كانت شاردة وكأن الكرسى الذى جلس عليه أبى إلى مائدة العشاء خالٍ .

كان هذا جزءا من المشكلة : لقد كان العم زينو يحيا فى عالم مختلف عن عالمنا ، ولكنه متاخم له ، وبدا وكأنه يلامسه ويتصل به بفضل وسيلة ميتافيزيقية غامضة . كيف إذن يستطيع أن يحكى قصصا ؟

كان يستوعب الواقع والأحداث التى تجرى بين البشر دون أن يشارك فيها ودون أن تمسه من قريب أو بعيد .

سألنى أبى فى اليوم التالى : « هل كان هوميروس أعمى لأنه كان شاعرا ؟ أم كان شاعرا لأنه كان أعمى ؟ »

- « لا أعرف ماذا تقصد » .

قال : « إننى أفكر فى العم زينو » .

قلت : « آه » .

– « هل تذكر قصة الإلياذة التى حكيتها لك ؟ حسنا . إن هوميروس لم يكن جنديا بالتأكيد لأنه كان أعمى . ولهذا استطاع أن يلم بكل تفاصيل القصة . لو كان جنديا لما استطاع أن يحكى القصة . وكذلك الحال مع العم زينو . لو كان قد قام بعمل ما فى حياته أو اشتبك فى أى علاقات مع البشر لما استطاع أن يحكى كل هذه القصص » .

تذكرت بوضوح كيف حكى لى أبى قصة الإلياذة . عثر على صورة فوتوغرافية فى إحدى المجلات للممثلة بيتى جرابل ، فوضعها على رف المدفأة بجوار الساعة الكبيرة المذهبة ، وقال فلنتخيل أن الآنسة جرابل هى هيلين أميرة طروادة ، وأن شابا ناعم الشعر يشبه رعاة البقر ، ويعمل فى أحد الحوانيت الكبيرة ، قد اختطفها وكان هذا الشاب يدعى باريس . هل نسكت على هذا ؟ لا بحق الجحيم . سنجمع كتيبة من المتطوعين ونركب متن البحار الداكنة بلون الخمر وننقذها . ثم طرح نفسه على الأريكة التى ارتخت نوابضها بفعل القدم ليصور أخيل ، زوج هيلين ، وهو ينتظر الحرب ويمضى الوقت فى خيمته وقد غلبته الكآبة بسبب أسر أميرته الجميلة . ثم غمز بعينه إلىّ وقال : « هؤلاء النساء يثرن كثيرا من المتاعب » . فرغ من حكايته بعد عشر دقائق وأنهاها بأن دار حول الحجرة ثلاث مرات ، وهو يجرجر وراءه وسادة متربة من وسادات الأريكة تمثل جثة هكتور المهزوم .

أثارتنى حكايته وأغرتنى بقراءة الملحمة الأصلية فى ترجمة نثرية يعود تاريخها إلى العصر الفكتورى ، ووجدتها أقل تشوشا واضطرابا من تلخيصه لها ، وبدت أحداثها المثيرة أكثر انتظاما وترتيبا .

كانت هذه دائما مشكلة أبى حين يروى حكاية . كان لا يستطيع أن يمنع نفسه من استخدام كل ما فى متناول يده لتصوير أحداثها . أما فى حالة العم زينو فكانت القصص تنساب منه كما ينساب الوهج البرتقالى من مصباح زيتى . لكن أبى كان دائما يلتقط الأشياء ويستخدمها وكأنها سيوف أو أفيال أو أحجار مسحورة ثقيلة . وكان يهوى إنهاء قصصه بحركات عنيفة الهدف منها صدمة مستمعيه . وكان يحدث الأثر المطلوب دائما ويروعنا ، لا بقوة قصصه ، ولكن بحدة عنفه .

تسللت إليه الغيرة من قدرة العم زينو على الحكى فقرر أن يقص علينا قصة على العشاء تدور حول بيت تحيط به الأسرار ، وبندقية تتقمصها الأرواح . لكن قصته التى استغرقت وقتا قصيرا جاءت مشوشة إلى درجة منعتنا من متابعة أحداثها - ورغم ذلك تعرضنا فى نهايتها لصدمة مزعجة حين انطلقت البندقية المسكونة ، ذلك أن أبى هوى بقبضته سريعا على حافة المائدة ليصور لنا عنف الطلقة ، فما كان إلا أن تحطم حامل طرف المائدة قاذفا بوعاء من الفاصوليا البيضاء على صدر قميصه .

حملقنا فيه جميعا ، أنا وأمى وجدتى ، فى ذهول وامتعاض ، بينما أخذ يغمغم ويلتقط حبات الفاصوليا من حجره . أما العم زينو ، الذى كان يجلس فى مواجهته مباشرة على الطرف الآخر من المائدة ، فقد تجاهل الأمر تماما وكأنه لا يرى ارتباك أبى وحرجه المحزون ، وعبره ببصره ليحدق فى الفضاء الخارجى الخاص به الذى يحمله معه أينما يكون . بدأ حديثه قائلا : « هذا يذكرنى بـ ... » ثم شرع يقص علينا قصة بيت مسكون يعرفه تعلو قمته دوارة ريح تتخذ شكل الصليب حين تشير إلى اتجاه الريح ، وكانت النار تشتعل فى مدافئه وحدها دون تدخل بشرى ، وتتردد فى قبوه أصوات غناء لمجموعة من الأطفال المفقودين . حولنا اهتمامنا إليه فى امتنان وارتياح ، فقد رحمنا من مشاهدة المأزق الذى وضع أبى نفسه فيه وسرعان ما استغرقتنا قصته بإيقاعها الرتيب .. وما لبثت القصة أن تشعبت ، ونمت ، وتضمنت أبوابا مسدودة يقطر منها الدم ، وحوض استحمام يمتلىء بحيات سامة نحاسية اللون تتدفق من الصنابير ، ومرآة زينة تعكس صور الموتى ، وبيانو تتحول أصابعه إلى مخالب كلما حاول أحد أن يعزف عليه لحن « ورد بيكاردى » . حتى أبى استغرقته القصة وفتنته فجلس ساكنا دون حراك وسط حبات الفاصوليا المتناثرة حوله حتى انتهى العم زينو من حكايتها . كانت كلمة النهاية - إذا صح أن نطلق عليها هذا التعبير هى : « على أى حال » .

هزت الكلمة أبى وأفاقته من خدره فصاح : « على أى حال ؟ أهذه ذروة القصة ؟ أتسمى هذه ذروة ؟ هل وجد ويلى هامر الكنز المحرم أم لا ؟ »

لكن العم زينو كان قد كف عن الكلام المباح ، والتزم الصمت حتى تتملكه قصة أخرى يحكيها .. نظر إلى أبى بتعبير ينم عن السكينة التى لا يعكر صفوها شيء ، فكف أبى عن محاولة استنطاقه ممتعضا وعلى مضض ، وعاد يلتقط حبات الفاصوليا المستقرة فى حجره ، ويسقطها فى الوعاء واحدة تلو الأخرى بصوت مسموع .

تفاقم إحساس أبى بالغيرة ، وصمم أن يتعلم قصصا تضع حكايات العم زينو فى الظل ، وتسمو عليها مثل جبل شاهق يهيمن على تل من البطاطس .. فتش فى ذاكرته وقلبها رأسا على عقب ، واستجدى الحكايات من المتسكعين عند بقالة فيرجيل كامبل ، وبدأ يغوص فى مجلدات الحكايات الشعبية والخرافية ، وكانت تنتثر هنا وهناك فى أرجاء البيت ، كما استعار منى كتاب الأساطير الاسكندنافية وحفظ نصفه عن ظهر قلب . لم يجده هذا فى شيء . لقد كان أبى ببساطة مفتونا بالشغب والمشاكسة ، وكانت محاولة التأثير على مستمعيه تستغرق كل اهتمامه . حتى القصص التى استطاع أن يبدأها فى صوت هادىء متأن كانت سرعان ما تنزلق إلى هوة الإشارات اليدوية العنيفة ، والتعبير الحركى ، وتنتهى بضجة عالية مزعجة كأن يصيح مثلا : « ها . أخيرا قبضت عليك » .

لكنه فشل فى امتلاك حواسنا على النحو الذى كان يبغى . كان ينظر إلى وجوهنا الذاهلة بتعبير ينم عن الترقب ، لا يلبث أن يرتخى لتحل محله خيبة الأمل ، ثم يقول : « قد أكون نسيت بعض التفاصيل . لكنها قصة رائعة رغم ذلك ، أفضل بكثير من بعض القصص التى سمعتها مؤخرا » .

قال العم زينو : هذا يذكرنى بشخص يدعى بافورد رودس وكلابه . كان بافورد رجلا طيبا بأى معيار من المعايير ، وكان مولعا بتربية الكلاب إلى حد الهوس ، وكان يجيدها إجادة تامة . كان يعيش عند خليج سودى فى كوخ سقفه من الصفيح ، مع زوجته وستة أطفال وما يقرب من دستة من الكلاب . كانوا على كل شكل ولون . كان بعضها من سلالات محددة ، وبعضها من سلالات مختلطة اختلاط العصائر المنوعة فى الحساء . كان أحد هذه الكلاب

يدعى ريموند ، وكان من المستحيل تخمين سلالته ، وربما كان من سلالة مهجَّنة من الكلاب الضخمة والخيول الشتلندية فى اسكتلندا ، فقد كان الأطفال يمتطون ظهره طوال اليوم مثل مهر صغير . كان سمحا وطيب القلب إلى هذه الدرجة .

لكن الكلب الذى كان بافورد يفخر به حقا فكان يدعى إلمر ، وكان مثل ريموند مهجنا من سلالات متعددة . كان مجرد كلب عادى لكنه رغم ذلك كان أذكى من أى كلب سمع به أحد . كان بافورد يبيع جلود القنافذ التى يصطادها إلى متجر سيرز وروباك بسعر دولار للقطعة . كان يصطادها بالعشرات ، ويسلخها ويعلق الجلود لتجف ـ جاء وقت لم تعد فيه بوصة واحدة من جدران بيته أو حظيرة الألبان لا تغطيها الجلود . لذلك كان بافورد يترقب أى فرصة للحصول على قطع الأخشاب القديمة المهملة ، ويكومها تحت بيته ليستخدمها فى دبغ الجلود وتجفيفها .

وفى هذا المجال تجلى ذكاء إلمر وتجلت فائدته . كان هذا الكلب على درجة عجيبة من الذكاء بحيث يكفى أن يريه بافورد لوحا من خشب البلوط ، أو قطعة من شجر خشب الأرز ، لينطلق إلى الصيد ويعود ومعه قنفذ يناسب جلده تماما حين يسلخ حجم قطعة الخشب المعدة لتجفيفه . كان هذا دليلا قاطعا على ذكائه وقيمته ، مما جعل بافورد يعتز به أيما اعتزاز ، بل إنه لو خُير بين امتلاك إلمر وامتلاك جواهر ملكة سبأ وحكمة سليمان لاختار إلمر .

لكن ذات يوم من أيام الثلاثاء ، فى منتصف شهر سبتمبر تقريبا ، حدثت مشكلة . دخل إلمر إلى البيت بالصدفة أثناء غياب بافورد فى مكان ما ، بعد أن تركت زوجته الباب مفتوحا سهوا . لم يكن بافورد يسمح للكلب بدخول البيت بتاتا ، فقد كان يؤمن أن الكلب إذا تعود على الراحة داخل المنازل فسد . ورغم حيطة بافورد دخل الكلب إلمر هذه المرة إلى البيت دون قصد ، ورأى زوجة بافورد تكوى الغسيل . وما أن أبصر منضدة الكى حتى اندفع خارجا إلى الطريق بأقصى سرعته وانطلق إلى أقاصى الغرب . قال بافورد فيما بعد إنه لا يدرى إذا ما كان إلمر قد عرف مسبقا مكان قنفذ بهذا الحجم الكبير ، وإذا كان مرأى منضدة الكى قد أشعل طموحه .

وأيا كان الأمر فقد قرر إلمر أن يذهب فى رحلة طويلة ، وحين عاد بافورد إلى البيت وعلم بما حدث انطلق فى إثره . لا يستطيع المرء بالطبع أن يفرط فى كلب ذكى مثل إلمر . وهكذا وجد بافورد نفسه يرتحل غربا يقتفى أثر كلبه ويسأل عنه كل من يصادفه فى طريقه ، ولفترة طويلة استطاع أن يلم بالطريق الذى سلكه ، فالناس عادة تتذكر حين ترى كلبا يسعى لتحقيق هدف يلح عليه . ولكن تدريجيا بدأت البيوت تقل ، وكذلك البشر الذين يمكن سؤالهم وبدأ القلق يساور بافورد .

أومأ أبى برأسه كالحكماء والعالمين ببواطن الأمور وقال : « أجل . أراهن أنك ستتوقف الآن ولن تخبرنا بالمزيد . ستترك القصة معلقة عند هذا الحد . أليس كذلك يا عم زينو ؟ »

حملق العم زينو فى هوته الهادئة .

مال أبى بجسده فوق المنضدة تجاهه وقال : « اسمع . لقد كشفتك الآن . إننى لا أعرف أحدا يدعى ويلى هامر أو ليسى جو بلاكمان أو سيتباك وليامز ، أو أى من الآخرين الذين حكيت لنا عنهم . لكنى بالصدفة أعرف بافورد رودس . لقد استأجرته مرة لطلاء بعض أجزاء البيت وأعرف بالضبط أين يسكن .. بيته هناك فى منطقة أيرن داف ، وأستطيع أن أذهب إليه فى سيارتى ، وهذا ما أنوى بالضبط أن أفعله . سأذهب إليه يا عم زينو لأتحقق من صدق روايتك » .

لم يعر العم زينو هذا الاحتمال أى أهمية ، ولماذا يهتم ؟ لم يكن يعنينا إذا كانت قصصه حقيقية أم لا ، ولم يكن هو نفسه يعنيه أى شىء . أما أبى فقد بدا عليه الرضا المشبع بالبهجة لأنه اكتشف إمكانية اقتفاء أثر بافورد رودس فعلا ، والحديث إليه شخصيا .

خطر لى أن أبى مازالت تشغله مشكلة عَمّى هوميروس . لقد عاش هوميروس داخل التاريخ وحكى قصصا عن جنود حقيقيين ، ووصف فى تفصيل مخيف معارك من المحال أن يكون قد شاهدها . لكنه ، مثل العم زينو ،

لم يخلف أثرا فى الحياة سوى قصصه . وقد أرغم هذا علماء التاريخ واسعى الصدر على طرح الجدل حول ما إذا كان قد عاش فعلا على ظهر الأرض ، وكان له وجود فعلى أم لا . لم يكن هدف أبى هو الحصول على تفاصيل واضحة حول كلاب بافورد رودس . كان فقط يريد أن يعرف إذا كان الرجل قد قابل العم زينو فعلا وتحدث إليه . لقد كان العم زينو يحيا بيننا ، ويأكل طعامنا وينام فى غرفة فى الطابق العلوى فى بيتنا ، ورغم ذلك لم يكن يخلف وراءه أى أثر - تماما مثل هوميروس . وهكذا قرر أبى سعيا وراء المعرفة البريئة من الهوى ، أن يقابل بافورد رودس - موضوع إحدى قصص العم زينو - ويتحدث إليه . ولا بد أن عالم الآثار شليمان قد أحس بنفس الترقب والتوتر الذى تملك أبى حين برزت أمامه أول آثار لمدينة طروادة القديمة التى كان ينقب بحثا عنها .

غمغمت جدتى .. بأنها تبدو لها حماقة شديدة أن يقطع الإنسان هذه المسافة الطويلة إلى أيرن داف لغير سبب وجيه . لكن أبى قال وهو يستند بظهره إلى مسند الكرسى ، وينفث دائرة من الدخان فى سعادة : « هذا بالضبط هو المكان الذى سأقصده غدا صباحا قبل أن أفعل أى شىء آخر » .

* * *

والواقع أنه لم يبدأ رحلته حتى انتصف الصباح ، أى خمس ساعات بعد أن أجرى الفجر أصابعه الوردية على صفحة السماء وزينها بخطوط من لؤلؤ الشرق وذهبه . إننى أدرك الآن أنه تأخر فى الذهاب بسبب عدد من المهام الضرورية التى كان عليه أن ينتهى منها أولا ، لكنه بالطبع تظاهر بغير ذلك حتى لا تسر جدتى حين تدرك أنه يقوم بعمل نافع - لقد فضل أن يجعلها تتصور أنه انطلق مبكرا يقتفى أثر قصة العم زينو ، ويعبث ويضيع الوقت .

ترك لى غيابه وقت فراغ طويل . ولما كان الجو جميلا ذاك الصباح من شهر أغسطس ، ولم تكن الحرارة قد اشتدت بعد ، فقد قررت أن أدع القراءة جانبا وأتجول فى تلال المزرعة حتى وقت الغداء . كان لى مكان

مفضل ألعب فيه وحدى ألعابا عن رعاة البقر . كان مكانا منعزلا فى غابة تقع خلف أبعد تلال المرعى ، تتوسطه شجرة بلوط كبيرة أطاحت بها عاصفة شنيعة . كنت أحب أن أتسلق فروعها المنهارة وأن أتأمل الفجوات التى حدثت فى جذعها وحوافها المشرشرة لأرى أى حيوان جديد سكنها .

لكننى حين وصلت إلى المكان وجدته مشغولا . كان العم زينو يجلس عاليا فى مكان مريح فوق أحد الفروع الكبيرة . كان ظهره إلىّ وبرز فوق كتفه اليسرى طرف عصاه المغضنة ، التى كان يستخدمها أحيانا عند المشى . بدا قوامه هزيلا أكثر من أى وقت آخر - تهدلت كتفاه ، وامتد رأسه إلى الأمام بعيدا عنى ، فأدركت أنه قد استغرق مرة أخرى فى تأمل أعماق خوائه الخاص .

وكان أيضا يتكلم .. هنا فى الخلاء وسط الروابى المشعبة ، تحت السماء الزرقاء الناعمة ، حيث لا يوجد مخلوق حى واحد على مرمى البصر يمكن أن يستمع إليه . تسللت ناحيته فى هدوء قدر ما استطعت . كنت أريد أن أسمع ما يقوله لنفسه فى خلوته ، وفكرت أن العجوز ربما يكشف أسرارا عن الأرض لا يعرفها سواه .

وهاك ما كان العم زينو يقوله : - لكنه فى النهاية ضل الطريق وكان عليه أن يعترف بهذا . كره أن يقر بهذا كراهيته للسم . لم يكن قد ضل الطريق فى الغابات من قبل ، وبات يأمل ألا يعرف رفاقه بهذا الأمر أبدا - ألا يعرفوا أن بافورد رودس ضل طريقه فى الغابات . كان قد فقد الأمل فى العثور على كلبه إلمر ، وقال لنفسه إنه سيكون محظوظا لو استطاع النجاة بنفسه والعودة حيا . فى تلك اللحظة سمع نباحا وأدرك على الفور أنه نباح إلمر ، فعاوده الأمل وبدأ يتشجع . لكنه كان قد مشى إلى تجويف عميق كالصندوق تحفه على الجانبين صخور شديدة الانحدار ، ويحده من الأمام منحدر صخرى شاهق مخيف يثير فى النفس الوجل . كانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، ولم يبزغ القمر بعد . ترددت أصداء النباح فى ذلك المكان ، فلم يعد قادرا على تمييز الاتجاه الذى يأتى منه . بدأ يتسلق جانب الجبل لكنه ما أن وصل إلى منتصفه

حتى كف إلمر عن النباح ربما لأنه فقد أثر الفريسة . وربما لم يكن إلمر يقتفى أثر أية فريسة على الإطلاق ، بل ينبح لأنه ضل طريقه وساوره القلق مثل بافورد . أيا كان السبب فقد صمت ولم يصدر عنه صوت بعد ذلك .

وهكذا وجد بافورد نفسه أكثر ضياعا عن ذى قبل . قرر أن يبتلع كبرياءه ويصيح طلبا للنجدة ، لكنه أدرك أن الصياح لن يجدى ، فلم يكن بالقرب منه سوى صخور غطاها الطحلب ونباتات برية شائكة . جلس على كتلة متعفنة من خشب شجر الأرز ، وتملكه اليأس والإحباط إلى أقصى درجة .

لم يدر كم مضى من الوقت وهو جالس هكذا . خفت الحرارة وسطع القمر فغدت الأوراق الخضراء بيضاء فى لون الجليد ، وساد السكون فكأنه فى قاع بئر . وفجأة لمح شخصا أو خدعه ضوء القمر فظن أنه رأى شخصا .. كانت امرأة من الهنود الحمر ، اقتربت منه وهى تبتسم وقد تدلت ذراعاها إلى جانبيها . شعر بسعادة غامرة حين رآها ، لكنه حين حاول الحديث إليها اكتشف أنها لا تتكلم سوى لغة قبيلة التشيروكى ، التى لم يكن يعرف منها حرفا واحدا . حاولا الحديث فى البداية لكنهما سرعان ما أدركا عبث المحاولة فكفا عنها . فى نهاية الأمر مدت يدها وأمسكت بيده وقادته وتوغلت به بعيدا فى أعماق الغابات ، وفى كل لحظة كان يزداد غما وهما . لكنه رضى أن يمضى معها أينما شاءت ، إذ لم يكن أمامه خيار أفضل .

قادته فى النهاية إلى كهف تعيش فيه . لم يكن كهفا مزعجا ، بل كان على العكس لطيفا وجافا وبه بعض الفتحات للتهوية وتسريب الدخان ، وكانت به مأكولات ـ توت وجذور نباتات وأعشاب وبعض من لحم السنجاب . لم يكن بالطبع أفضل مكان فى العالم من حيث وسائل الراحة ، ورغم ذلك فلا بد أنه صادف هوى فى نفس بافورد فقد مكث فيه مع تلك المرأة ما يربو على العامين . كانت حياة طيبة رغم كل شىء ، فنساء قبيلة التشيروكى لا يحببن أن يقوم رجالهن بأى عمل على الإطلاق . وهكذا كان بافورد يستلقى طوال اليوم بينما تقوم هى على خدمته فى كل كبيرة وصغيرة . وكان بين الحين

والآخر ، حين يجن الليل ، يسمع صوت كلبه الرائع يشرع في النباح في مكان ما وسط الظلام ، فينهض ويطوف بحواف الجبال بحثا عنه ، وهو يشق طريقه بصعوبة وسط أعراش التوت البرية الشائكة ، وشجيرات الغار المتشابكة . استمر على هذا الحال شهورا قليلة بعدها لم يعد يكلف نفسه عناء النهوض وتفقد المكان بعد أن أدرك أنه جهد لا طائل من ورائه .

استمر يعيش على هذا الحال سنتين كاملتين حتى حدث ذات صباح ، في يوم من أيام الربيع ، أن استيقظ في اللحظة التي كانت المرأة تخطو فيها فوقه لتشعل النار لإعداد الإفطار . في تلك اللحظة لاحظ جزءا من جسدها لم يشاهده عن قرب من قبل فلم يسعده ما رأى . وبينما كان يرقد في فرشته وعيناه مغلقتان أدرك فجأة قبح المرأة الشنيع . لم يكن قد فكر في هذا الأمر من قبل ، والآن وقد تنبه له فقد بدأ يزعجه إزعاجا شديدا . تسلل بعد الإفطار إلى منطقة خالية من الأشجار وسط الغابة حيث صخرته المفضلة التي كان يهوى الجلوس عليها وتأمل أحواله .

جلس هناك يفكر حتى أصابه هم عظيم . ها هو تائه في الغابات ، يعيش مع أقبح امرأة خلقها الله ، ولا يستطيع حتى الحديث معها . عليه أن يعترف أنه قد هوى إلى الحضيض وأصبح همجيا منبوذا . هذا كل ما في الأمر . بدا له أن بافورد رودس قد فقد كل أمل في النجاة في هذا العالم وأنه قد اغترب إلى الأبد عن عيون الله والبشر جميعا . تسلطت عليه هذه الأفكار السوداء تماما ، ولكن حين بلغت أفكاره ذروة القتامة ترامت إلى سمعه خشخشة في الأحراش .

عند هذا الحد توقف العم زينو . ماتت نزعة السرد فيه ، أو ربما حلقت القصة بعيدا عن هذا الغصن ، وطارت عبر العالم لتحط على أفنان راوٍ آخر ، في الصين أو التبت ، يجلس في انتظار الوحي . إنتظر مستمعو العم زينو في صبر ـ السحب البيضاء والشجرة الهاوية وضوء النهار الأزرق والعشب العذب الأخضر ـ انتظروا جميعا مصغين في صبر لكن القصة كانت قد توقفت بالنسبة للوقت الحاضر . ومع ذلك فقد كان هذا المكان وسط الغابة هو أفضل

موقع لرواية قصصه ، وأحسست وقتها أننى أفهمه كما لم أفهمه من قبل . لقد كنا نراه كعجوز ثرثار لكنه فى الحقيقة كان جزءا ضروريا من الطبيعة لم نفطن إليه ، بل وأكثر من هذا ، وكان مختلفا أيضا .

ترى ماذا يفعل الآن بعد أن جفت القصة على شفتيه ؟ طبعا ، إنه يجلس على الشجرة ويستمع إلى تاريخها وقصة حياتها الملكية وانهيارها المفجع - إنه يسمع قصة لا أسمعها ، علىّ أن أنتظر حتى تتملك العم زينو نزعة الحكى مرة أخرى فيعيدها على مسامعنا .

راودنى الأمل فى ألا يعلم أبدا أننى كنت هناك أسترق السمع إليه . استدرت فى هدوء وقفلت عائدا إلى المنزل ، حيث أعددت لنفسى وجبة غداء من الخبز والجبن واللبن المخفوق المحفوظ فى الثلاجة . تناولت الغداء وحيدا . كانت أمى وجدتى تعودان صديقة تلازم الفراش ، وكان أبى فى أيرن داف يلعب دور المنقب عن الآثار والمخبر السرى ، وكان العم زينو مازال فى المراعى يحكى قصصه للصخور المعدنية والنباتات البرية الشائكة .

بعد الغداء حملت أحد الكتب العلمية إلى الشرفة الأمامية لأقرأه هناك ، وعلمت منه أن نجم الشعرى هو أكثر النجوم توهجا فى السماء ، وأن الناس فى سالف الأزمان كانوا يعتقدون أنه يصيب الناظر إليه بالجنون ، أو بنوبات الهوس الشعرى . لم أشعر وقتها برغبة فى قراءة قصص خيالية - كنت قد حصلت منها على مخزون يكفينى لفترة .

عاد أبى فى حوالى الرابعة ، وجلس معى فى الشرفة يتحدث إلىّ . كان ممتقع الوجه .

سألته : « ماذا فعلت ؟ »

دلّك ظهر رقبته بيده ، ورمق السقف المصنوع من خشب الأرز ، وحين تكلم كانت نبرته حزينة حائرة . قال : « لا شىء » .

- « ألم تعثر على بافورد رودس ؟ »

– « لم أعثر عليه ، ولم أعثر على أحد يعرفه . لم أعثر على أى أثر له » .

– « ربما أخطأت البيت . ربما تكون قد نسيت أين يسكن » .

– « وصلت بالسيارة إلى باب بيته . كان يسكن هناك . وجدت البيت خاويا مهدما . النوافذ محطمة ، والأبواب مخلوعة ، والسقف يمتلىء بالثقوب . بدا وكأن أحدا لم يعش فيه منذ عشرين عاما .»

– « هل سألت الجيران عنه ؟ »

– « لم يسمع أحد منهم به من قبل . ذهبت إلى متجر البقالة القريب ، بقالة هييز ، ولم أجد أحدا هناك قد سمع به من قبل أيضا » .

– « لا بد أنك أخطأت المكان وإلا لوجدت أحدا يعرفه » .

– « ذهبت إلى فيرجيل كامبل لأسأله ، فهو يعرف كل البشر الذين جاءوا إلى هذا الإقليم . فى البداية قال إنه يهيأ له أنه ربما سمع بشخص يدعى بافورد رودس ، لكنه حين أجهد ذهنه فى التذكر لم يتذكر شيئا » .

قلت : « ربما اختلطت عليك الأسماء . ربما كان اسم الرجل الذى استأجرته لطلاء المنزل يشبه هذا الاسم لكنه مختلف » .

قال : « إننى أعرف بافورد رودس تمام المعرفة ولا يمكن أن أخطئه فى أى مكان . إن وصف العم زينو ينطبق عليه تماما » ثم طرقع أصابعه وأضاف : « حسن أن ذكرت هذا الأمر . أذكر الآن أننى دفعت لبافورد أجره بشيك على البنك ، وسجلت هذا فى عقب الشيك الذى أحتفظ به فى دفتر الشيكات . دفعت له سبعة وسبعين دولارا بالضبط . كان ذلك منذ ثلاث سنوات فقط » . ثم نهض واتجه إلى الباب .

سألته : « أين تناولت عشاءك ؟ »

نظر إلىّ نفس النظرة المتعبة المهمومة مرة أخرى وقال : « لقد فقدت

شهيتى للطعام مؤخرا يا جيس » . ثم انصرف لينكب على أوراقه ويفتش فى سجلاته .

لكن هذا البحث أيضا لم يسفر إلا عن خيبة الأمل . فقد وجد عقب شيك مسجل عليه مبلغ سبعة وسبعين دولارا وكان تاريخه يتسق مع تاريخ طلاء المنزل ، لكنه كان قد نسى أن يسجل اسم الشخص الذى كتب له الشيك .

حين عادت أمى وجدتى من مهمتهما الخيرية استفسر من أمى عن الأمر . قال وهو يلوح بالشيك تحت ذقنها : « أترين ؟ ها هو عقب الشيك . ألا تذكرين بافورد رودس الآن ؟ »

تراجعت إلى الوراء بعيدا عن الورقة المرفرفة وقالت : « كان بالبيت ثلاثة أو أربعة نقاشين يعملون معا فى ذلك الوقت ولا أتذكر أيا منهم » .

– « لكنك حتما تتذكرين بافورد . كانت له لحية مخيفة ، وكان يطلق النكات دائما ، ويتحدث عن كلابه ، وكان يُعَمِّر معدته بكأس أو كأسين فى أى وقت من أوقات النهار » .

قالت : « إن هذا الوصف ينطبق على كل النقاشين الذين قابلتهم فى حياتى » .

– « ورغم ذلك لا يمكن إلا أن تتذكريه . لقد وصفه العم زينو بالضبط . لقد كان شخصية مميزة عجيبة » .

قالت : « كل الذين ألقاهم هنا شخصيات عجيبة حتى بت أعتقد أن البشر الطبيعيين العاديين يتجنبون هذا الجزء من البلاد » .

تملكه الحنق فألقى بدفتر الشيكات القديم إلى الأرض وداس عليه بقدميه وهو يصيح : « كيف يمكن لأحد أن ينسى بافورد رودس ؟ »

قالت : « اهدأ . إنه ليس بالأمر المهم » .

لكنه كان أمرا هاما بالنسبة لأبى ، وقد دل صياحه على حدة مشاعره . كدت أتكلم فى تلك اللحظة . كدت أخبره أن آخر أخبار سمعتها عن بافورد

رودس هى أنه تاه فى الغابة ، ويعيش فى كهف مع امرأة قبيحة من نساء الهنود الحمر - لكننى أدركت رغم ذلك أنه من الأفضل أن ألزم الصمت ، فهذه المعلومات لن تفلح إلا فى زيادة الأمور إرباكا وتعقيدا .

وفى تلك اللحظة هاجمتنى فكرة مجنونة وغزانى إحساس اقشعر له بدنى . ماذا لو كانت قصص العم زينو عن بافورد رودس هى السبب فى اختفائه من الوجود على ظهر الأرض ؟ كانت الأفكار والتهيؤات الغريبة تلح علىّ منذ أن استرقت السمع إلى حديث العجوز هذا الصباح . خطر لى أن قصص العم زينو قد تستوعب الشخصيات التى تحكى عنها داخلها تماما ، فتجعلها تترك عالم واقعنا اليومى المألوف ، وترحل لتعيش داخل عالم القصص فقط . إذا صح هذا فسوف يختفى من على وجه الأرض كل ما يتعلق بهم ، ولن يتركوا أثرا بيننا اللهم إلا ظلا مثل ظل الصقر على الجليد حين يطير فوقه . أليست ملحمة الإلياذة هى المكان الوحيد الذى يمكنك أن تجد فيه أخيل الآن ؟ ترى هل كان له وجود خارج القصة ؟ ترى هل ترك أى من هؤلاء الأبطال التى تحكى الملحمة عنهم قرينة تثبت وجودهم خارجها ؟

صحت قائلا : « وماذا عن أجاممنون ؟ »

نظر إلىّ أبى نظرة غريبة وقال : « ماذا عنه ؟ »

- « ألم تخبرنى أنهم وجدوا القناع الذى ارتداه حين مات ؟ ألم تخبرنى أنه كان قناعا من الذهب وأنهم أودعوه أحد المتاحف ؟ »

قال بنبرة مغتاظة : « هذا هو الاسم الذى أطلقوه على القناع لكنهم لا يستطيعون إثبات أنه قناع أجاممنون يقينا » .

قلت : « حسنا . إنه ليس قناعه . لقد نسبوه إليه خطأ » قلت هذا لأننى بت مقتنعا تماما بفكرتى . إن الشاعر هوميروس والعم زينو لا يصفان العالم فقط .. إنهما يستهلكانه . لقد قال أبى يوما ان أحد الأسباب التى جعلت الناس يضعون هوميروس فى أسمى مكانة بين الشعراء ، هو أن المرء لا يعرف أين تنتهى حدود عالمنا وتبدأ حدود عالم الإلياذة . شيء طبيعى أن يخلط المرء بين العالمين .

كنت أعرف أن أبى سيسر إذا سمع نظريتى لما بها من شطط وجموح . لقد كانت من نوع الألعاب الذهنية التى يهوى ممارستها . ورغم ذلك فقد قررت ألا أخبره بها . أدركت أن مشكلة بافورد رودس تسبب له هما حقيقيا وانه ليس فى حالة نفسية تسمح له بالانغماس فى تأملات ميتافيزيقية حول فلسفة السرد . قرأت هذا فى وجهه بوضوح . بعد ذلك قال : « هيا يا جيس - يحسن أن ننتهى من مهمة حلب الأبقار » .

نهضت وسرت خلفه طائعا . كنت أتطلع إلى الانتهاء من أشغال المساء سريعا والجلوس إلى مائدة العشاء ، فقد كنت أشعر بالجوع إذ لم أتناول سوى الخبز والجبن للغداء . وكنت أيضا متشوقا لقصة أخرى من قصص العم زينو . شعرت بعد أن توصلت إلى فكرتى الرائعة أننى مثل العلماء ، وأردت أن أراها تتحقق أمامى فى عملية السرد .

وفعلا ما أن انتهت جدتى من تلاوة إحدى صلوات العشاء بعد أن استفاضت فى تلاوتها استفاضة مؤلمة ، حتى شرع العم زينو فى الحديث دون إذن أو مقدمات كعادته دائما .

قال العم زينو : - وفجأة خرجت من الأحراش جماعة من الأطفال . كانوا ستة فى الثامنة أو العاشرة من العمر ويرتدون سترات نظيفة فوقها مرايل . أخذوا يحملقون فى بافورد مما جعله يفكر للمرة الأولى فى مظهره . لا بد وأنه يبدو غريبا للغاية بقذارته ولحيته الطويلة بعد العيش فى الغابة هذه المدة الطويلة . لكنه حدثهم بصوت رقيق وهدأ من روعهم ، وتودد إليهم حتى قبلوا أن يعودوا به إلى العالم المتحضر . كان هؤلاء الأطفال ينتمون إلى أحد فصول مدرسة الأحد التى تديرها إحدى الكنائس المعمدانية المتزمتة التى تقع على الطريق المؤدى إلى هذا المكان ، وقابلوا بافورد بالصدفة وهم يبحثون عن البيض الملون بمناسبة عيد الفصح . تبين له فيما بعد أنه لم يضل طريقه بالدرجة التى تصورها ، ولم يتوغل بعيدا عن العمران تماما فقد كانت بالقرب منه مستعمرة صغيرة قديمة لا يفصله عنها سوى ميلين فقط ، وكان أهل المستعمرة ذلك اليوم قد خرجوا فى رحلة إلى الخلاء بمناسبة عيد الفصح .

كل ما فى الأمر أن ذهن بافورد رودس كان مشغولا طوال تلك الفترة بالتفكير فى تلك المرأة من الهنود الحمر ، وبالقلق على كلبه الأمين إلمر مما جعله لا يسمع نباح كلاب المستعمرة بتاتا على مدى سنة كاملة . لو كان قد اهتم بتفقد المكان حوله كما ينبغى لوجد المستعمرة . لكنه لم يفعل . هذا كل ما فى الأمر .

ما علينا . قاده الأطفال خارج الغابات إلى المستعمرة ومن هناك سلك الطريق الصحيح عائدا إلى بيته . كان يخشى العودة . تصور أن البيت لا بد وأنه تهدم وصار أطلالا فى غيبته ، وأن زوجته وأولاده قد استقر بهم المقام فى ملجأ الفقراء منذ وقت طويل . تحير كيف يشرح للناس غيبته وتساءل ترى هل سيصدقه أحد ؟

لكنه حين اقترب من المنزل ورآه غلبته دهشة عظيمة ، فقد أعيد إصلاحه وتجديده ، وبدا متألقا وأفضل مما كان عليه فى عهده . استُبدل السقف القديم بآخر جديد من القصدير ، ونزعت من على الجدران جلود القنافذ ، وطلى البيت كله باللون الأبيض ، بينما وقفت على حافة الساحة الأمامية سيارة جديدة ماركة فورد .

وبالطبع تصور أن زوجته قد اتخذت رجلا آخر رفيقا لها أثناء غيابه ، وأنهما لن يحتاجا إلى وجوده فى شيء الآن . لكنه رغم ذلك صعد إلى باب المنزل وطرقه . لم تتعرف عليه زوجته إلا بعد دقيقة أو دقيقتين ، لكنها حين فعلت كادت تنفجر من السعادة ، واحتضنته بشدة ، وخرج الأطفال جريا للقائه فى ملابس جديدة جميلة ، وأخذوا يتقافزون حوله . كان أفضل ترحيب يتمناه المرء .

وبعد أن هدأت المشاعر قليلا بدأ يستفسر منها عن الأحوال . من أين جاءت بالأموال لإصلاح المنزل وشراء العربة الفورد الواقفة أمام البيت ؟ أجابت بأن الفضل يعود لإلمر . لقد وجد إلمر طريقه فى النهاية ، وعاد إلى البيت منذ عام . وحين رأى حال الأسرة المتدهور خرج وحصل على عمل . قال بافورد إنها أخبار عظيمة حقا وأنه فخور بكلبه ، ثم سأل عن العمل الذى

التحق به فأخبرته أن إلمر قد حصل على وظيفة مدرس بالمدرسة الثانوية ، وأنه يقوم بتدريس الحساب والعلوم الطبيعية ويتقاضى مرتبا طيبا إذا اخذنا فى الاعتبار انعدام خبرته فى هذا المجال . رد بافورد بأن كلبا فى مثل هذا الذكاء لا يحتاج خبرة ، وأنه ينوى أن يجعل إلمر يعلمه كيف يتشمم الأرض ليقتفى أثر القنافذ ، وأنهما سيتبادلان الأدوار بحيث يصبح بافورد الكلب ويصبح إلمر الرجل ، إذ ربما كان هذا هو الوضع الصحيح الذى كان ينبغى أن تكون عليه الأمور منذ البداية .

قال أبى : « حسنا . إننى سعيد لأننى استمعت إلى المزيد من هذه الحكاية » . ثم أخذ يدلك ظهر رقبته وأضاف : « لكن الشىء الذى أود أن أعرفه هو أين يعيش بافورد الآن ؟ لقد بحثت عنه طول اليوم ولم أعثر على أثر له ، لا قطعة من جلده أو شعرة من شعره . تكلم يا عم زينو . أخبرنا أين ذهب بافورد ؟ »

لكن العم زينو لم يجب بالطبع ، بل نظر فى هدوء إلى الفراغ الرهيب أمامه ، وأخذ يتأمل العدم الذى يتعلق بين قصة وأخرى . ومن المحتمل ألا يكون قد أدرك أن أبى يتحدث إليه فقد رفع فى هوادة ملعقة من عصيدة الذرة إلى فمه .

استند أبى إلى ظهر كرسيه وقد جرحت مشاعره وأحاسيسه . قال : « كلا . لن تخبرنا بالطبع . أعرف هذا . ليتنى ما سألت » . ثم أطلق تنهيدة آسية ونظر إلى حجره وقال : « حسنا . الآن سأحكى أنا لكم قصة . لقد جاء دورى » . مال إلى الأمام فى مقعده ، وفرد كفيه على المائدة ، ثم حدق بتركيز فى وجه العم زينو فبدا مثل سِنَّور يوشك أن يثب . قال : « كان يا ما كان ، كان هناك فتى طيب كريم لم يؤذ أحدا فى حياته قط . لن أذكر اسمه لكنه كان حقا طيبا إلى أقصى حد . ذات يوم وقع هذا الفتى فى غرام فتاة رائعة من ساكنى الجبال ، فتزوجها وعاش مع أسرتها فى التلال ، وكان يقوم بأعمال المزرعة نيابة عنهم . لم يكن يرى بأسا فى هذا ، وسارت الأمور على ما يرام باستثناء أمر واحد . لقد كان فى هذه الأسرة جيش من الأعمام الغريبى الأطوار

الذين يزورون الأسرة دائما ، وكانوا فى معظمهم ظرفاء ومسلين . وقد تآلف هذا الفتى الطيب - ولنسمه جو - مع هؤلاء الأعمام ونشأت بينه وبينهم علاقة طيبة . كان يحب أن يتحدث إلى هؤلاء الزوار ليتعرف عليهم عن قرب ، فقد كان يهوى أن يكتشف الدوافع التى تحرك البشر . لكن أحد هؤلاء الأعمام - ولنسمه العم زد - استعصى عليه ففشل فى فهمه رغم محاولاته المستميتة . أجل فشل تماما وأزعجه هذا الفشل وتسلط على عقله حتى أصبح لا يستطيع أن يفكر فى أى شىء سوى هذا العم زد ، وأطواره الغريبة . ويؤسفنى أن أخبرك يا عم زينو أننى لا أعرف نهاية هذه القصة . لكننى أظن أن هذا الأمر ظل يؤرق هذا الفتى الطيب حتى انتهى به إلى الجنون فألبسوه قميص المجانين ، وحملوه إلى حيث يعيشون » . توقف عن الكلام وحدق واجما فى طبقه الذى لم يتناول منه شيئا تقريبا ثم قال : « لكن كما قلت من قبل : إننى لا أعرف حقا نهاية هذه القصة » .

أنبته جدتى فى نبرة أرق من العادة فقالت : « وبعد يا جو روبرت . أنت لا تريد أن تخرج عن حدود اللياقة » .

وقف قائلا : « كلا .. بالطبع لا . إذا أذنتم لى سأخرج إلى الشرفة وأدخن سيجارة . ربما صفا ذهنى . لا أدرى ماذا ألم بى » . أمسك بمقبض الباب وتعثر فى فتحه لحظة ثم خرج وأغلقه وراءه .

تبادلت أمى وجدتى النظرات ، وقالت جدتى : « لا يبدو جو روبرت طبيعيا . تصرفاته غريبة . هل هو مريض ؟ »

قالت أمى : « لا يبدو لى معتلا » .

قلت لهم : « إنها قصص العم زينو . إنها تثيره وتوتره وتدفعه إلى الرغبة فى عمل شىء ما . لكنه لا يدرى ماذا » .

قالت أمى : « إنها مجرد قصص . ليس من المفروض أن يفعل الإنسان أى شىء إزاء القصص » .

أردت أن أرد لكننى أحجمت ، فلم أكن أستطيع أن أخبر أمى أنها لا تفهم

أبى ، وأنه من النوع الذى يحتاج دائما إلى القيام بفعل ما .. إلى تغيير نظام العالم بطريقة أو بأخرى .. إلى إحداث الفوضى إذا استطاع ، أو على الأقل خلخلة النظام بعض الشيء .

قالت جدتى : « لا أستطيع أن أفهم كيف يتوتر إنسان إلى هذا الحد بسبب بعض القصص التى لا تضر ولا تنفع » . ثم نظرت إلى ضيفنا فى رقة وقالت : « إن العم زينو لا يستطيع أن يؤذى ذبابة » .

حدقنا فيه نحن الثلاثة فرأينا رجلا عجوزا مستكينا يكاد ألا يشغل الكرسى الذى يجلس عليه . لم يبد عليه أنه لاحظ نظراتنا ، وكان واضحا أن جدتى كانت على حق فيما قالته . حقا . إنه لا يستطيع أن يؤذى ذبابة .

بعد ذلك تشكل شروده الهائم فى شكل صوت وكلمات فعاد إلى الحديث ثانية . قال العم زينو : « هذا يذكرنى بقريبتى آنى باربرا سوريلز ، التى كانت تعيش قرب مصب خليج إمبر . كانت لها مزرعة بديعة هناك مساحتها مائة فدان أو نحو ذلك ، لكن لم يكن لها رجال يقومون بأعمالها ، فابنها الكبير مات وهو فى الثامنة ، والآخر - لودن - رحل إلى كاليفورنيا على ظهر دراجة بخارية . لكن الله عوضها بزوج ابنتها . كان اسمه جو روبرت ، وكان ماهرا فى أعمال الزراعة ، فلم يكن هناك ما تشكو منه فى هذا الصدد . لكن هذا الجو روبرت كان من النوع الذى يتفنن فى الشقاوة والشيطنة ويمارسها طوال الوقت . وهكذا حدث ذات مرة أن أرسل الابن لودن إلى أمه آنى باربرا هدية عبارة عن صندوق من الحلوى الفاخرة ابتاعه فى مدينة سانت لويس ... »

كان هذا أكثر مما أحتمل .

لقد كان العم زينو يحكى قصة عنا . كنت أعلم ما سوف يحكيه ، فلقد عشت أنا نفسى تلك الأحداث . وها هو يجعل القصة تتمركز حول أبى . أزعجتنى هذه الحقيقة وأقلقتنى . كانت العلاقة بين أبى والعم زينو متوترة بما فيه الكفاية ، وربما يغضب أبى حين يعلم أنه الآن قد تحول إلى شخصية فى حكايات العجوز .

قفزت من مقعدى دون استئذان ، وخرجت إلى الشرفة . كانت تسبح فى الظلام مثل أحلام دب نائم . حجبت السحب المعبأة بالمطر ضوء النجوم ، فلم يبق من نور سوى بصيص ضئيل يتسرب من خلف ستائر حجرة الطعام . لم يكن أبى يدخن . كان فقط يجلس فى هدوء فى كرسى يستند بظهره تماما إلى جدار المنزل .

سألت : « أأنت هنا ؟ »

استغرق وقتا طويلا قبل أن يجيب : « أجل . أنا هنا يا جيس » .

- « هل أنت بخير ؟ »

مرت فترة صمت أخرى ترامت إلى سمعى خلالها غمغمة العم زينو الرتيبة عبر الباب .

- « أظن أننى بخير . لا بد أننى أصبت بالبرد ، فمنذ فترة وأنا أشعر بالدوار ، وبنوع من الضعف العام بعض الشىء ، وكأننى فقدت جزءا كبيرا من وزنى فجأة وبسرعة » .

- « هيا . عد معى إلى الداخل وتناول شريحة من فطيرة التفاح . ربما شعرت بالتحسن بعدها » .

لكنه جلس دون حراك . لم أسمع صوت الريح ولا أى صوت آخر . فقط غمغمات خافتة غير واضحة تنبعث من العم زينو وهو يحكى قصته . قال فى صوت خافت : « فطيرة التفاح .. أجل .. هذا دواء لا بأس به » . لكنه لم يتحرك من مكانه لفترة أخرى . أخيرا نهض من مقعده ببطء لكنه ما أن خطا خطوة واحدة حتى ابتلعته الظلال الكثيفة وغاب عن عينى .. فى تلك اللحظة انتهت قصة العم زينو وصمت الليل كله .

صانع التابوت

حين جاء العم رانكين لزيارتنا أحضر معه تابوتا لينام فيه . وضعه على حصانين خشبيين حملناهما من كشك النجارة إلى حجرته فى الطابق العلوى . حاولت أن أتخيله نائما لكننى فشلت تماما . بت أعتقد أننى إذا تسللت إلى حجرته فى منتصف الليل فسوف أجده ممددا فى تابوته ، وقد وضع يديه المعروقتين على صدره واحدة فوق الأخرى على شكل صليب ، وسوف أرى عينيه الغريبتين مفتوحتين شاخصتين تحدقان أمامه فى الظلام . لم أجرؤ على اختبار صحة هذه الصورة التى رسمها خيالى . كان يبعث الخوف فى نفسى وربما فى نفس أبى أيضا ، على الأقل فى البداية ، وإن كان لم يظهر هذا أبدا . عامل العم رانكين بشىء من الاستخفاف والاستهتار والممازحة ، لكنه رغم ذلك كان يقينا يشعر بالحيرة والعجب من أمر ضيفنا الغريب الذى أنفق أغلب سنىَ عمره يعد العدة لينام إلى الأبد فى قبره البارد .

كنا كثيرا ما نستضيف أعماما وعمات يضربون فى الأرض ويرتحلون هنا وهناك . كانوا جميعا من عائلة أمى وكانوا يثيرون فضول أبى دائما ، ويشغلون باله بأمورهم العجيبة . لذا كان يسر دائما إذا جاء أحدهم ، فقد كانت هذه الزيارات تكسر الرتابة المعتادة التى تتسم بها الحياة فى مزرعة بين الجبال . وقد شعر بسعادة خاصة لزيارة العم رانكين إذ سبقته إلينا شهرته ، كما يسبق الشفق حلول الظلام . ولم يخيب العم رانكين توقعاتنا .

كان نحيلا ، طوله حوالى خمس أقدام وثمانى بوصات ، ويبدو عليه الهزال فلم يكن يكسو جسده أى شحم أو عضلات . كان « جلدا على عظم » ولاشىء آخر . تذكرت هذه العبارة المألوفة وأدركت أننى لم أر فى حياتى

شخصا ينطبق عليه هذا الوصف سوى العم رانكين . كانت عظام يده ورأسه تبرز تحت جلده المصفر الذى يشبه جلد الرق فى لونه ونسيجه ، ويلتصق بعظامه كما يلتصق قفاز الجراح بيده . كان رأسه خاليا تماما من الشعر ، لونه يميل إلى الاصفرار وليس ورديا كالعادة . أما أنفه فكان مسحوبا إلى أسفل وجهه بصورة حادة ، وكانت عيناه فى لون رواسب القهوة السوداء ، وكانت كبيرة وغائرة فى جمجمته وتحيط بها هالات ضخمة تضاهى فى سوادها سواد إنسانى عينيه الهائلين . كانت هاتان العينان تعبرانك وتنظران خلالك إلى ما وراءك فيخيل إليك أن العم رانكين يستطيع أن يراك دون أن ينظر إليك ، وكان هذا يبعث فى النفس إحساسا غريبا مقلقا .

اتسمت حركاته كلها بالجدية والتدبر والتمهل ، ولم يحدث أن رأيته يبتسم مرة واحدة . كان جلده جافا مثل نشارة الخشب ، فإذا لمس أى سطح خدش أذنك صوت همس خشن وكأنك تسمع خشخشة فأر يتحرك داخل كومة من أوراق الشجر الجافة ، أو ثعبانا ساما يحتك جلده بحافة المائدة ، أو غطاء نعش أسود من الحرير ينزلق من فوق تابوت . لم أتعود هذا الصوت أبدا ، وكنت كلما سمعته أشعر أننى أحدق فى بئر سحيقة لا أعماق لها .

والحق أننى فشلت تماما فى التعود على أى شىء يتعلق بالعم رانكين ، ولم يكن هذا لأنه يتعمد مضايقتنا ويسعى إليها عن عمد . على العكس كان دائما يحاول أن يتجنب إزعاجنا . ورغم ذلك كنت أشعر فى حضوره وكأننى أقف وظهرى إلى منحدر صخرى شاهق لا أتذكر مكان حافته .

وكان أبى يعانى من نفس القلق والتوتر فى وجوده ، لكنه يخفيهما بنجاح . كان يداعب العم رانكين ويمازحه ولكن دون جدوى . ولو كان يحاول أن يؤانس رياح منتصف الليل لوجدها مهمة أسهل . كان مرحه يسقط فى هوة خاوية وينطفىء فلا ترتد منها أصداء ضحك . والحق أننا لم نكن واثقين أننا نريد حقا أن نسمع الضحك الذى يمكن أن يرتد إلينا من هذه الهوة . كنا ندرك أنه لن يكون ضحكا ودودا كضحك الرفاق .

ورغم ذلك ثابر أبى ، واستمر يمازح العم رانكين ، ويسخر منه ،

ويزداد تهورا فى هذا . وكانت حركاته وإشاراته تزداد توترا وارتباكا فى كل مرة . ذات ليلة أخذ يلوح بيديه على مائدة العشاء حتى قلب الملاّحة .

سدد العم رانكين نظرة جادة مهيبة إلى الملح المسكوب ، ونطق جملته المميزة : « هذا يعنى أن شخصا ما سيموت عما قريب » .

قال أبى : « ماذا ؟ أهذا ما يعنيه سكب الملح ؟ » كان واضحا أنه وصل إلى قمة اليأس والقنوط الآن . التقط الملاّحة وأخذ ينثر الملح فى كل مكان فوق مفرش المائدة الأخضر وهو يقول : « هذا جميل . هذا رائع . الآن سنقضى على كل الجيش الألمانى » .

قال العم رانكين : « لا ينبىء الملح المسكوب بموت من نريدهم أن يموتوا » . نظر إليه أبى نظرة ملتاثة ثم قال : « حسنا . بموت من ينبىء الملح إذن ؟ من هو الشخص الذى سوف يتجه إلى الرفيق الأعلى » ؟

لكن العم رانكين لم يجب ، وكأن رماد جثث الموتى المحروقة قد تراكم أمام فوهة حنجرته فسدها .

لم يكن الملح المسكوب سوى واحد من العديد من نذر الموت القريب التى كان العم رانكين يراها حوله . فالقطة السوداء إذا عبرت أمامك نذير موت وشيك ، وكذلك الهلال الجديد إذا أبصرته من فوق كتفك اليسرى ، وأسراب الغربان إذا طارت أمام القمر المكتمل ، والبومة إذا نعقت عند حلول الظلام ، وأى سلم يستند إلى الحائط باعوجاج فى أحد الزوايا ، وأيضا أخشاب منزلنا القديم إذا طقطقت أثناء الليل . كان يرى فى كل هذه الظواهر المألوفة علامات تنذر بموت شخص ما عما قريب ، وكانت طريقته فى إعلان هذا ونغمة صوته وهو يقول « شخص ما » جديرة بأن تجعل من يسمعه يظن أنه المقصود بهذا ، وتجعله يعيد النظر فى خططه ومشروعاته ، خاصة إذا كان ينتوى السفر بالطائرة أو الذهاب فى رحلة لصيد الدببة .

قال أبى متهكما : « قد يحتاج الأمر إلى طوفان مثل طوفان نوح ليحمل كل الضحايا الذين رأى نذر موتهم » . لكننى تبينت فى صوته تظاهرا مهزوزا بالشجاعة واللامبالاة .

أثرت فينا جميعا النبوءات الحمقاء التى كان العم رانكين لايفتأ يتفوه بها ، وكان تأثيرها مضاعفا فى حالتى إذ كنت فى الحادية عشرة من عمرى . وجدت نفسى أفكر فى وضع الهلال الجديد بالنسبة لكتفى اليسرى تلقائيا ، وكنت أحذر ألا أنظر إلى القمر حين يكتمل ، فمن يدرى متى تطير الغربان أمامه ؟ بدأت أيضا أتعامل بحرص شديد مع الملاّحة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد امتد تأثيره إلى جوانب أخرى من حياتنا . كنت قبل أن يأتى لا أتذكر أحلامى أبدا ، أما الآن فكنت لا أستطيع نسيانها مهما أردت وحاولت .

كنت أتصور أنه سيرفض ، لكننى حين رجوته أن يسمح لى برؤية تابوته بدا عليه السرور لاهتمامى وفضولى . كان التابوت - بصرف النظر عن الهدف النهائى منه - قطعة مبهرة من الشغل اليدوى تثير الاعجاب حقا - وذلك رغم وزنه وحجمه الهائل الذى اكتشفناه ونحن نجاهد لنحمله على السلالم إلى الطابق العلوى . كان طوله ثمانى أقدام وعرضه أربعا - أى كان حجمه أكبر بكثير من حجم العم رانكين ولابد أنه كان يبدو حين ينام فيه وحيدا مثل لؤلؤة وحيدة ترقد فى علبة من علب المجوهرات . كانت زوايا التابوت موصولة بدقة وحذق ، فلم أتبين مواضع وصلات الخشب حين أجريت فوقها أطراف أناملى . أخبرنى العم رانكين بفخر أنه صنعه من خشب شجرة جوز هائلة سوداء ، وأن قاعه وجوانبه قد خرطت من ألواح كاملة . كانت مؤخرته محلاة بثلاثة أشكال من الخشب المخروط بالغة الأناقة ، بينما زين مقدمته إفريز معقد التصميم من الخشب الرقيق المشرشر . أما الغطاء الذى كان يترقب بلهفة الانتهاء من صنعه ، فسوف يكون له ثمانى مفصلات نحاسية على شكل فراشات لتثبته فوق التابوت .

لم يكن التابوت على صورته النهائية ، فالغطاء لم يكتمل . هكذا قال . ورغم جمال الصندوق ودقة صنعه ، فهو لا يعد شيئا إذا قورن بالغطاء حين يفرغ منه . كان الغطاء الذى لم يكمله بعد يرقد على منضدة العمل فى كشك النجارة بالمزرعة ، يحميه غطاءان من الجوخ الأخضر ، فوقهما غطاء قديم

من المشمع ، حال لونه من كثرة الاستخدام والتعرض للجو - وهو نفس الغطاء الذى كان يدثر به التابوت حين يرتحل به فى لوريه الصغير المفتوح للهواء .

أزال الأغطية التى تلفه حتى أرى النقوش التى حفرها بيده على سطحه . كانت حوافه جميعا مزينة بأكاليل متشابكة معقدة من الكروم والتفاح والورود والأقاحى حفرها بدقة شديدة مبينا كل ملامحها حتى عروق الأوراق ، بينما توسطت الغطاء صورة محفورة كبيرة نوعا لجمجمة الموت ، ولفت نظرى التشابه البيّن بين هذه الجمجمة وبين العم رانكين ، بحيث بدت مثل صورة رسمها لنفسه ، وذلك باستثناء الفجوة المقبضة التى حلت مكان أنفه المدبب مثل المنقار . ماعدا ذلك كانت صورة حية لرأس العم رانكين ، أو بمعنى أصح صورة ميتة . وتحت الجمجمة رأيت مكانا فارغا حدده بإفريز . أخبرنى أنه يزمع أن يحفر فيه شعارا فور أن يستقر على واحد : مثلا « هيا إلىّ يا ملاك الموت الجميل » ، أو « يأتينا الموت العذب بالراحة والهدوء » ، أو « ما أروع الراحة الأبدية » ، أو عبارة أخرى مماثلة لم يلق بها القدر بعد فى طريقه . كان لا يزال فى طور التنقيب عن شعار مناسب . وتحت هذه المساحة الفارغة حفر صورة لحمل نائم ، أو هكذا وصفه . والحق أنه بدا لى وكأنه قد نام نوما أبديا لا تراوده الأحلام .

كلفه هذا العمل العظيم خمسة وعشرين عاما من عمره أنفق منها سبعة على الغطاء وحده ، ورغم ذلك لم يكتمل بعد . لكن الناظر إليه كان يدرك على الفور أنه يستحق كل هذا الجهد وكل هذه السنين ، خاصة حين يكتمل فقد حرص الرجل على صنفرة خشبه لتنعيمه ، ودهنه بالزيت ثم طلاه بالورنيش وصقله حتى غدا داكنا ، أملس كالحرير ، وناعما مثل بطن قشر البيض .

اقترح أبى أن يكون الشعار المحفور على التابوت : « أيها الموت . أين كنت طوال حياتى » ؟ ورغم ذلك فقد أعجب بالتابوت مثلى ، وأغدق الثناء على العم رانكين ، لكنه بعد فترة غير رأيه بالنسبة للشعار ، واقترح أن يحفر العم رانكين على التابوت عبارة « العمل رقم واحد » وذلك لأن صنع التابوت هو العمل الوحيد الذى قام به العجوز فى حياته كلها .

تحدثنا عن نوم العم رانكين فى تابوته وحاولنا أن نتخيل شعورنا لو فعلنا ذلك . كان رأيى أنه سيكون شيئا مخيفا ومثيرا فى نفس الوقت ، لكننى لن أشعر بالاختناق أو نقص الهواء ، بل سأشعر ببرودة وظلام الأبدية . فكرت أن الإنسان حين يعتاد النوم داخله فسوف يحلم أحلاما هادئة فى الشتاء ، ويسمع أصواتا تأتيه من خلف القبور .

سأل أبى : « وماذا تقول أصوات الموتى فى ظنك ؟ »

قلت : « لا أعرف . لا أستطيع أن أتخيل هذا الجزء . ما رأيك أنت ؟ ماذا تظنهم يقولون ؟ »

قال : « لا أدرى . كل ما أعرفه أننى كلما تخيلت نفسى راقدا فى قبر أشعر برغبة فى هرش مؤخرتى » .

تملكتنى رغبة لأن أجرب النوم فى التابوت ، أردت أن أتسلل إلى حجرة العم رانكين فى غيابه ، وأرقد فى تابوته لأختبر الأمر بنفسى .

قال أبى : « لا أنصحك بهذا . إننى لا أومن كثيرا بنذر الشؤم وحسن الطالع ، ورغم ذلك فلا أعتقد أن النوم فى التوابيت طوال الوقت يجلب الحظ السعيد . إننى شخصيا لا أتلهف على الموت ، فهو آت لا محالة ، مثل زيارة لطبيب الأسنان يعرف الإنسان أن عليه أن يقوم بها إن عاجلا أم آجلا » .

– « لا أعتقد أنه مثل زيارة لطبيب الأسنان . أعتقد أننا سوف ننعم بالسكون التام » . [كانت زياراتى لأطباء الأسنان عادة تتميز بالصخب والضوضاء] .

– « إذا كنت تنشد السكون التام فسوف تستمتع بوقتك تماما حين ترحل عن الدنيا . فالمقابر تلتهم الضوضاء تماما ، كما يلتهم العم رانكين عشاءه» .

فهمت قصده . فقد كان العم رانكين يأتى على كل ما فوق طبقه تماما ، فتعجب أنه لم يلتهم أيضا الرسوم المنقوشة عليه : الجسر الصينى الأزرق الصغير والشجرة المكتنزة المجاورة له والطائر ذا العنق الطويل . كان يترك

الطبق نظيفا تماما حتى من عظام الدجاج وآثار الدهون . ورغم ذلك لم يحدث أننى شاهدته يأكل أبدا ، أو يستخدم الشوكة والسكين والملعقة . كنت أرى الطبق أمامه يمتلىء بالطعام الساخن ويتصاعد منه البخار ، فإذا حولت عينى عنه ثم تصادف أن نظرت إليه مرة أخرى وجدت الطبق نظيفا تماما ، ورأيت فمه ساكنا لا يمضغ بينما أخذت عيناه ترمقاننى أو - بمعنى أصح - ترمقان شيئا ورائى بنظرة متأملة تقشعر لها الأبدان .

قال أبى : « خطرت لى فكرة . لماذا لا نسرق التابوت ؟ »

- « لماذا بحق السماء ؟ »

- « أليس لديك فضول من أى نوع ؟ أنا شخصيا أود أن أرى ماذا سيفعل العجوز حين لا يجد تابوته » .

تضاربت مشاعرى تجاه الفكرة . لم يخفنى أن أنظر إلى التابوت أو أن ألمسه . أما أن نسرقه ! تغيرت صورته فى ذهنى فى ضوء هذه الفكرة ، فبدا أكبر حجما وأعمق سوادا وأثقل وزنا وأكثر عمقا . شعرت أننا سنعبث بقوى غامضة لا نعرف عنها شيئا ، وأن ثمة عظاما فى العالم سوف تأسى لفعلتنا . قلت : « لا أظن أنها فكرة جيدة ؟ »

- « لماذا ؟ »

-« إنه ثقيل . لقد كدنا نحن الثلاثة أن نفشل فى حمله إلى الدور العلوى فما بالك إذا كنا اثنين ؟ لن نستطيع أن نحركه قيد أنملة » .

قال : « أنت على حق . سأفكر فى حل على أى حال » .

- « ربما كان من الأفضل ألا تحاول ، فالعم رانكين من فصيلة الأعمام الذين يحسن بالإنسان أن يتركهم وشأنهم » .

قال : « حقا ؟ » ثم نظر إلىّ فى تعجب باسم وسأل : « هل يخيفك ويرهبك هذا العجوز يا جيس ؟ »

- « إنه يختلف عن الأعمام الآخرين الذين نألفهم » .

قال : « لا تشغل بالك . لقد خطرت لى الآن فكرة وأعرف ماذا سنفعل » . لكنه حين أعقب هذا بضحكة خافتة شعرت بالقلق .

* * *

لا أدرى أى قوة سحرية خارقة للطبيعة استخدمها أبى للتأثير على أمى ، ولابد أنها كانت قوة تفوق الخيال وإلا لما وافقت على معاونته . وربما كان السبب أكثر بساطة . لقد كانت هى الأخرى تمتلك روح الدعابة والمشاغبة ، وإن ظلت ساكنة فى العادة ، وكان أبى يستطيع أن يستنهضها فى الوقت المناسب حين يلح ظرف هام وعاجل .

وقد كان هذا الظرف ـ بالنسبة لأبى ـ أحد تلك الظروف الهامة الملحة . فمنذ وصول العم رانكين وأحوال الأسرة تتغير تدريجيا : قلّت أحاديثنا العابرة ، ولمساتنا العابرة ، وكذلك ضحكاتنا .. لا يعنى هذا أننا غرقنا فى الكآبة وتملكتنا الأفكار العابسة طوال اليوم ، لكننا يقينا غدونا أكثر وجوما وخيم علينا جو من الجدية الهادئة .

وقد كان أبى لا يطيق مثل هذا الجو ، وربما أحس وقتها أنه يحارب من أجل الإبقاء على صحته النفسية .

وأيا كانت الوسائل التى يستخدمها فى تحقيق مآربه فقد كانت دائما تنجح . ذات عصر أحد أيام الجمعة عادت أمى إلى البيت وقد أحضرت معها هيكلا عظميا أخذته من فصل العلوم الصحية بمدرستها الثانوية . أعلم يقينا أنها لم تسرقه فقد كانت لا تحيد أبدا عن الطريق السليم ، ومن المرجح أنها طلبت أن تستعيره خلال العطلة الأسبوعية قائلة : « لا أدرى لماذا يريده زوجى . لكنه يظن أنه يحتاجه لأمر ما » .

وهكذا أصبح لدينا هيكل عظمى ، وفى حالة رائعة أيضا . كانت أجزاؤه موصولة بالأسلاك بصورة متقنة ، وكانت العظام بيضاء ناعمة والأسنان كاملة . تساءلت أين حصلت عليه المدرسة فقال أبى إنه كان لأحد لاعبى خط

الدفاع فى فريق البلاك بيرز الذى تصادف أن جرى فى إحدى المباريات فى الاتجاه الخطأ وسجل ضربة ركنية لصالح فريق هياواسى كاتاماونتس . قلت : « العب غيرها » ، فقال : إنه هيكل امرأة قاتلة أعملت الفأس فى تقطيع أوصال حماتها وزوجها وأطفالها الأحد عشر وكلب الأسرة المدلل ، وحين أدركت ما اقترفت يداها ضربت نفسها بالفأس وانتحرت .

قلت : « ولا أصدق هذا أيضا » .

قال أبى : « هذا هو الفرق بيننا وبين العم رانكين . لو سمع هذه القصة لصدقها على الفور . وهل تعرف ماذا سيقول حينذاك ؟ »

– « سيقول : فى وسط الحياة نخوض بحار الموت » .

قال أبى : « بالضبط » .

كانت خطته بسيطة . لم يكن ينوى أن يفعل بالهيكل العظمى شيئا سوى أن يضعه فى التابوت حيث ينام العم رانكين . قال : « سيكون ذلك درسا له » . ثم قرر بعد ذلك ، من وحى الفكرة ، أن يزيل من صندوق الكهرباء الصمام الذى يتحكم فى أنوار حجرة النوم بالطابق العلوى ، حتى يصعد العم رانكين إلى حجرته فى الظلام ، ويفاجأ هناك بشريكه اللامتوقع فى الفراش . « سأتعلل بأن عطبا قد أصاب أسلاك هذا الجزء من البيت لكننى شارع فى إصلاحه . وحتى يحين الوقت أجمع كل الشموع التى بالمنزل وأخفيها » .

كانت خطة أبى هذه المرة من الخدع البسيطة التى تخلو من التعقيدات ، فانتهينا من تنظيم خطواتها وترتيبها بسهولة . تناولنا عشاء ليلة السبت فى صمت ذاهل ، كعادتنا منذ وصول العم رانكين الذى مارس خفة يده المعهودة فى إخفاء الطعام دون أن يترك منه ذرة على طبقه . بعد ذلك ودعنا بصمته الهامس وصعد إلى حجرته . كان أبى قد كذب عليه بشأن الأسلاك من قبل ، وتظاهر بالبحث عن الشموع التى كنت قد قمت بإخفائها فى صندوق علف فى الحظيرة .

لم نسمع صوتا له ، لكننا جلسنا إلى المائدة فى صمت وأحسسنا بوقع

خطواته عبر المنزل على جلودنا . أدركنا متى فتح باب الردهة الغارقة فى الظلام ، ومضى يتحسس خطواته خلالها إلى السلم ، ومتى اعتلى الدرجة الأولى منه ، وقبض بيده الجافة على حاجزه . شعرنا بكل درجة يصعدها وأحسسنا به يتوقف أعلى السلم ليعرف موضعه ويجد طريقه فى الظلام الحالك . شعرنا به يقطع الردهة العلوية فى خطوات بطيئة حذرة ، ويفتح باب حجرته وينزلق فى ظلامها إلى حافة التابوت ويشرع فى خلع ملابسه .

بعد ذلك لم ندرك شيئا . خذلتنا حواسنا المشحوذة وأخيلتنا فى تلك اللحظة الحاسمة ، وفشلنا فى التكهن بما سوف يحدث فجلسنا صامتين ننتظر .

دام جلوسنا الصامت فترة طويلة ، وتبادلنا النظرات ولا أدرى ماذا كنا نتوقع بالضبط من العم رانكين . هل كنا نتوقع صرخة تجمد الدماء فى العروق ؟ أو صوت ارتطام وانهيار مصحوب بسيل من اللعنات المدوية ؟ أو ربما توقعنا أن نرى العجوز يطلق ساقيه الناحلتين للريح ويفر عاريا وسط ليل أكتوبر خارج المنزل . ويبدو لى الآن أننا كنا واهمين حين توقعنا أن نرى أيا من تلك المشاهد التى تُظهر خوف الإنسان من الموت ، فقد كان ولع العجوز بهذا المخلص الأسود وتعلقه به أعمق من إدراكنا ، ولم يكن ثمة شىء يتعلق بالموت ليدهشه .

قبعنا فى أماكننا وقتا طويلا .

قالت أمى أخيرا : « حسنا يا جو روبرت . لم تنجح مزحتك الصغيرة هذه المرة » .

تنهد قائلا : « لو كان شىء ما قد حدث - أيا كان - لشعرت ببعض الرضا » .

قالت : « وبعد كل ما تكلفته من عناء لإحضار كومة العظام هذه ! اسمعا . عليكما أن تصعدا إلى حجرته فى الصباح ، وتحضرا هذا الهيكل العظمى . إذا لم أعد به إلى المدرسة باكر الاثنين سأكون فى مأزق حرج » .

قال أبى : « حاضر يا سيدتى » . وكان صوته أجوف يحمل رنة الهزيمة .

فى صباح اليوم التالى هبط العم رانكين من حجرته إلى مائدة الإفطار وقد تأنق استعدادا للذهاب إلى الكنيسة . كان قد عثر فى الجانب الآخر من « تيركى نوب » على طائفة صغيرة من المعمدانيين تمارس عقيدة غريبة ، ويخصص واعظها كل خطبه الدينية لتأكيد سلطة الموت الرهيبة النهائية على الحياة ، وقد اجتذبت هذه الكنيسة المبنية بطوب من رماد الفحم والأسمنت عمنا زانكين كما تجتذب شجيرات الورد الخنافس اليابانية .

قام أبى بمحاولتين هزيلتين أثناء الإفطار لدفعه إلى الكلام . سأله : « هل نمت نوما عميقا فى الليلة الماضية يا عم رانكين ؟ »

أجابه « نعم » بصوت يشبه أنفاس ريح صحراوية خافتة توشك أن تخمد .

– « أرجو ألا تكون قد وجدت بقا فى الفراش ، أو أى شىء مزعج من هذا القبيل » .

أجابنا نفيا بصوت كأنه ينبعث من أعماق القبور ، فحنى أبى رأسه فوق طبقه وتناول قطعة من البيض فى وجوم .

حين انصرف العم رانكين ليذهب إلى الكنيسة دفع أبى كرسيه بعيدا عن المائدة وقال : « هيا يا جيس . فلنذهب وننقذ هيكلنا العظمى » . كان وجهه كئيبا كوجه كلب بوليسى .

ثم ازداد الحال سوءا إذ لم نجد الهيكل العظمى فى التابوت ولا فى أى مكان آخر من الحجرة . ولا فى أى من غرف الطابق العلوى الأخرى . لم نجد له أثرا فى حجرة النوم أو حجرة الخزين أو الحمام ، أو فى الغرفة الصغيرة أعلى غرفة الخزين ، ولا فى أى غرفة من غرف الطابق الأسفل . فتشنا ونقبنا فى كل ركن وزاوية ، وقلبنا البيت رأسا على عقب ولم نجد أثرا له ، ولا حتى عظمة أصبع صغيرة .

تساءل أبى : « ماذا فعل به بحق السماء ؟ »

قلت : « لا أدرى » .

نظر إلىّ نظرة جامدة ذاهلة وقال : « اسمع يا جيس . هل تظن أنه أكله ؟ »

قلت : « لا أعتقد هذا » . لكننى تذكرت كل العظام التى اختفت من على طبقه - عظام السناجب والأرانب والدجاج وشرائح لحم الخنزير .

- « لقد فعلها يقينا .. أعتقد أن العجوز أكل هذا الهيكل العظمى » .

- « أهذا ما تنوى أن تقوله لأمى ؟ أتريدها أن تخبر إدارة المدرسة الثانوية بأن عمنا قد التهم الهيكل العظمى الذى استعارته من فصل دروس الصحة ؟ »

قال : « لا أدرى بتاتا » .

حين علمت أمى بالأمر سألته نفس السؤال : « ماذا سأقول لهم فى المدرسة ؟ »

قال أبى : « من الأفضل أن تكذبى عليهم » .

صاحت فى عويل : « أكذب ؟ لا أستطيع أن أكذب عليهم . لا أعرف كيف ! »

قال : « إنه أمر سهل . سنسهر الليلة وسأعلمك » .

* * *

فى عصر ذلك اليوم جعلنى العم رانكين أصحبه إلى جبانة اكتشفها ليرينى إياها . كانت عتيقة مهجورة تغطيها الأعشاب والأشواك البرية ، أحجارها غارقة فى الطحالب الكثيفة والنباتات الطفيلية المتساقطة ، ولا يميز بعض قبورها سوى شواهد نحيلة من الطين الجاف تحمل أسماء ورسومات

بدائية استخدمت فى حفرها أدوات الزراعة البسيطة مثل الأجنات وأجزاء من الفئوس وما شابه ذلك .

سألته : « لماذا جئنا إلى هنا ؟ ماذا هنا لنراه ؟ »

نظر إلىّ فى دهشة وقال : « كل شىء » . ثم لوح بذراعه فى الهواء حوله ليشير إلى العالم الذى يستحوذ على اهتمامه : عالم القبور والأعشاب والأشواك البرية ، وربما أيضا عالم الديدان القابعة تحت الأرض تلتهم الجثث فى هدوء. قال : « ألا تشعر بالسلام هنا ؟ أليس من العار أن يترك الناس بقعة جميلة كهذه دون عناية واهتمام ؟ أليست موقعا رائعا لبناء بيت قريب من المزرعة ؟ »

ربما كانت بقعة جميلة كما قال ، لكنها بالنسبة لى كانت جبانة ، ولم أشعر بأى رغبة فى استثمار أموالى فى عقار من هذا النوع . سرت قشعريرة باردة فى ذراعى وقلت : « لا أدرى » .

قال : « هيا نتجول بين القبور وننظر إلى بعض الشواهد » . وكان صوته حالما حميما .

وهكذا بدأنا الجولة ، وكان العم رانكين يتوقف أمام كل شاهد فى تأمل منتش عميق ، فيحملق فيه ويقرأ ما كُتب عليه فى صمت ، ثم يحملق فيه فترة أخرى ، ويهز رأسه فى خشوع وبعدها يخطو أعلى التل إلى الشاهد التالى ، وقد عقد يديه خلف ظهره كفيلسوف .

صحبته فى جولته وأنا أشعر بالملل والوحشة .

قال : « إذا وجدت شعارا يصلح لأن أضعه على غطاء تابوتى قل لى » .

- « ما رأيك فى هذا إذن ؟ « *رحل لكنه بقى فى الذاكرة* » . »

قال : « إقرأ اسم صاحبه . رودنى والش . هل سمعت عن أحد يدعى رودنى والش » .

قلت : « كلا . ولكنهم دفنوه سنة ١٩١٠ » .

- « هل تعرف أحدا يحمل اسم عائلة والش فى هذه المقاطعة ؟ »

- « لا » .

- « أترى الآن ؟ لقد رحل فعلا لكنه لم يبق فى الذاكرة على الإطلاق . إنه شعار شائع ، تراه كثيرا ، لكنه لا يصلح ، فالناس لا يذكرونك بعد الموت . لذلك عليك أن تقوم بكل الاستعدادات بنفسك مسبقا » .

سألته : « ما رأيك فى هذا ؟ « *لقد بَذَلَت جل جهدها* » . »

- « ألا يعنى هذا بوضوح أنها لم تحقق شيئا يذكر ؟ »

- « وجدت آخر ، « *ينتظرك يوم أكثر إشراقا* » . »

أصدر صوتا من أنفه وقال : « ماذا يقصدون ؟ الخميس القادم مثلا ؟ »

مضينا فى تجوالنا وسط القبور ، وفى كل مرة أقرأ عليه شعارا أجده حاضرا بتعليق نافذ . وجدتنى فى النهاية أقر بخبرته فى هذا المجال وأعجب بها . لقد أنفق فى دراسة هذا الموضوع وتأمله وقتا طويلا حتى غدا خبيرا فيه . وزاد من إعجابى أن تلك الشعارات لم تصبه بالكآبة أبدا ، بل على العكس ، كان سروره يزداد كلما ازداد عدد الشواهد التى يقرأها ، وكلما ازدادت شعاراتها حزنا وأسى . ولو كان شخصا آخر غير العم رانكين لوصفت التعبير الذى ارتسم على وجهه بالبهجة والإشراق .

قرأت بصوت عال : « *رحل إلى مكان أفضل* » .

قال : « وكيف يعرفون هذا ؟ أراهنك أن هذا المدعو وليام جيننجز ارتكب الكثير من الأفعال الدنيئة التى لم يسمعوا بها أبدا » .

- « *أيها القبر أين انتصارك* ؟ »

- « لنفترض أن هذا المكان حيث نقف الآن هو أرض المعركة التى نشبت بين الموت والأحياء . من فى رأيك كسبها ؟ »

- « ذهب *ليخفف من وطأة الظلام* » .

قال : « آه . هذا الشعار قد ينفع . يتضمن احتمالات .. سأفكر فى هذا الشعار » . ثم أخرج من صدر سترته مفكرة صغيرة وقلما من الرصاص مما يستخدمه النجارون ودونه . خطر لى أنه لابد وقد كون ركاما من هذه الكتابات على مر السنين ، ومن المؤكد أنها مادته المفضلة للقراءة - إلى جانب قصة أيوب وصفحة الوفيات ومراثى أرميا .

أما الشعار الذى فاق الجميع وتألق بينها فى رأيه فكان : « *أوج الحياة هو موسم الموت* » . فاض بالسزور حين عثر عليه ، ودونه فى مفكرته ووضع تحته خطين . قال : « تحمل هذه الشواهد كنوزا من الحكمة لو أن الناس انتبهوا إليها ووعوها » . ومن فرط سعادته أبدى استعدادا لترك المكان والعودة إلى المنزل ، ولا أستطيع أن أقول إن قراره هذا قد حطم قلبى .

وما أن عدنا إلى المنزل حتى اتجه على الفور إلى الحجرة الصغيرة المتفرعة من الردهة المجاورة للمطبخ ، حيث مدفأة الفحم والمذياع ، فقد كان يحرص على متابعة برنامج إذاعى يبث عصر كل أحد تحت عنوان « تأملات » ولم يحدث أن فاته أبدا . كان البرنامج عبارة عن موسيقى بطيئة على آلة الأرغن ، تصاحب صوت رجل يقرأ مقاطع من كتاب يحوى تأملات حزينة كئيبة ، وكان هذا بمثابة الجرعة المنشطة التى يحتاجها العم رانكين بالضبط .

أما أنا فقد صعدت إلى الطابق العلوى وأنا أغالب اليأس ، ولكن يحدونى الأمل فى العثور على الهيكل العظمى المفقود ، وذلك رغم علمى أن أبى قد فتش المكان مرة أخرى أثناء غيابنا أنا والعم رانكين خارج المنزل . دلفت إلى حجرته وفتشتها فى هدوء لكننى لم أعثر على أى أثر للسيد العظمى . وفى تلك اللحظة جذبنى منظر التابوت المهيب القابع فوق القوائم الخشبية فاتجهت إليه ، ووضعت خدى على جانبه الأملس لأستمتع ببرودة ونعومة الخشب . ثم جذبت كرسيا إلى جواره لأنظر داخله فبدا لى آنذاك مغريا ، عذبا وهادئا . لم أكن من قبل أهتم بالتوابيت لكن طول التعرض لتأثير العم رانكين غير نظرتى للأمور ، فبدأت أفكر أن الموت قد لا يكون كريها كما يقولون ، فإذا

مت لن أضطر إلى النهوض من الفراش مبكرا فى صقيع الصباح لأحلب بقرات عجوزا مخبولة ، ولن أضطر إلى حفظ جدول الضرب واسم عاصمة ولاية نورث داكوتا ، أو إلى تناول فطائر دقيق الذرة الخشن المقلية باردة كلما شعرت جدتى بالكسل وتقاعست عن الطهى .

نزعت حذائى العالى الرقبة ، وخطوت داخل التابوت ورقدت فيه . كان إحساسا رائعا فى البداية . لم يكن ملمس القطيفة السوداء اللامعة باردا كما توقعت ، بل كان دافئا وناعما ، فقد زوده ببطانة من القطن . تبدت لى الجوانب المغطاة بالقطيفة السوداء عالية شديدة الانحدار ورأيت كيف يبدو سقف الغرفة من داخل صندوق ، وجعلنى هذا المنظور الجديد أشعر وكأنى أغوص وأغوص إلى ما لا نهاية ، وأن العالم يتراجع وينحسر . انتظرت أن يزول هذا الاحساس لكنه لم ينقشع أبدا . ظل السقف يتراجع بعيدا عن ناظرى ، وكذلك الحجرة والبيت والمزرعة والسماء - رأيتها تطفو بعيدا إلى أبدية لا يمكن الوصول إليها . بدأت أفكر أن التابوت يشبه الكرة الحديدية المجوفة التى اخترعها وليام بيب لاستكشاف أعماق البحار ، مع فارق وحيد هو أن التابوت كان يغوص فى مواد صلبة بدلا من المياه ، ويوشك أن يسقط مخترقا أرض الغرفة ، ثم أساسات المنزل ليغطس فى أعماق الأرض حيث سيمكننى أن أرى مخلوقات لم يبصرها أحد من قبل ، ولم ترد على خيال قط - حيوانات من معادن براقة تسبح فى شرايين العالم وتتعقب مسار حياتها الغامضة إلى مصيرها الذى تكتنفه الأسرار .

ثم غلبنى النوم .

وما أن أغلقت عينى حتى هاجمنى طوفان من الصور والأحلام المتلاحقة . رأيت سماء تمتلىء بنجوم تشكلت فى صورة شعار على شاهد قبر لا يمكن قراءته ، ورأيت سفينة كبيرة صامتة ، أشرعتها من الحرير الأسود ، ترتفع من على سطح محيط أبنوسى وتطفو عاليا إلى السماء لتخترق القمر المكتمل مباشرة . ورأيت سربا من الغربان يطير فى عاصفة ثلجية ثم يتحول إلى قطرات مطر من الدم يهطل ويلوث الأرض المغطاة بالجليد باللون

القرمزى ، ورأيت راهبا لا يبعث مظهره على الارتياح يفتح بابا يضيئه ضوء برتقالى فى جانب أحد الجبال ويخطو خارجه . كان يرتدى ثوبا فضفاضا أسود ، وأخذ يشير بيديه المعروقتين إشارات سرية كالسحرة فيجعل عددا من الهياكل العظمية المدببة تنهض من بطن الأرض ، وتضحك ضحكات خافتة .

لم تكن أى من هذه الرؤى تبعث على الخوف ، بل كانت كلها مريحة مهدهدة ، وبدأت أدرك أن الموت هو مرعى الرؤى حيث يُنتزع الحلم من نخاع النجوم .

لكن رؤيا واحدة أزعجتنى ولم أجد فيها عزاء . كانت منظر الموت نفسه . رأيتنى فى الحلم أقف فى فتحة باب ضيق لا يتصل بأى بناء ، وسط سهل جدب مقفر . لم يكن شىء ورائى أو أمامى سوى الريح الخاوية ، وفجأة ظهر وجهه الممصوص المتوتر من الهواء وقد اشتعلت عيناه الغائضتان فى وجهه بلهب مجنون ، وحين نظر إلىّ وأنا أقف فى فتحة الباب القابضة الضيقة عرفنى ، ومد مخلبه المشتعل بومض البرق وداعب خدى . انتفضت من صدمة لمسته وارتعدت ، وصرخت صرخة رهيبة مدوية ، صرخة حادة تهز أعماق النفس .

وصرخ الموت أيضا ، وقفز إلى الوراء مبتعدا عنى ، وبدا جليا أنه قد فزع بدوره . تقابلنا أنا والموت وجها لوجه ، وأفزع كل منا الآخر فزعا بالغا . ثم اتضح لى بعد ذلك أننى لم أكن نائما ، ولم أر الموت والباب المفتوح فى حلم ، بل كنت مستيقظا وراقدا فى تابوت العم رانكين . ولما كان العجوز لا يتوقع أن يجدنى هناك فقد جعلته المفاجأة يطلق صيحة عالية . وكانت الكلمة التى صاح بها هى نفس الكلمة التى تطلقها الشخصية الفكاهية داجوود فى صحيفة الفكاهات .

كانت المرة الوحيدة فى حياتى التى سمعت فيها شخصا يتفوه بهذه الكلمة .

بعد ذلك سمعت العم رانكين يندفع خارج الحجرة وينطلق هابطا السلم .

نهضت من رقدتى ببطء فلم أكن قد أفقت تماما من النوم أو من تأثير إيقاظى بهذه الطريقة الخشنة . أخذت وقتى فى التسلق خارج التابوت والبحث عن حذائى وارتدائه فى ضوء الغسق المعتم الذى لف الحجرة . وترامت إلىّ من المطبخ فى الدور الأسفل أصوات نقاش حاد ساخن ، وبت واثقا أن العم رانكين لم يستمتع باكتشافى نائما فى تابوته ، وها هو فى الدور السفلى يثير العائلة ضدى .

جلست فى الكرسى المستقيم الظهر وأخذت أحملق فى الأرض . أدركت أن ثمة عقابا ينتظرنى لكن ذلك لم يشغلنى . كنت فى حالة ذهول . لقد ارتحلت إلى العالم الآخر ووجدته مكانا ساحرا ، فهل تخيفنى بعد ذلك بضع لسعات من أحد فروع الأشجار ؟ حتى الحرمان من مشاهدة أفلام رعاة البقر أيام السبت لمدة شهر بدا أمرا هينا لا يثير خيبة الأمل . إذا كان الموت مسليا كما وعد التابوت وأنا داخله ، فبمقدورى أن أشنق نفسى حينما أشاء ، وأستمتع إلى الأبد بعرض مجانى شيق يتفوق على أى فيلم من أفلام رعاة البقر .

استمرت الضجة فى الدور السفلى طويلا ، فقبعت فى مكانى أنظر إلى حذائى حتى توقفت ، ثم سمعت صوت أقدام أبى والعم رانكين تصعد الدرج . حين دلفا إلى الحجرة أضاء أبى النور ، فإذا بكل الأفكار الغريبة التى كانت تموج برأسى تطير بعيدا مثل سرب من الطيور أفزعه عيار نارى .

قال أبى : « جيس . لقد قرر العم رانكين أنه لا يستطيع البقاء معنا أطول من ذلك ، فلديه مهمة عاجلة ملحة تتطلب رحيله » .

قلت : « حقا ؟ » ونظرت إلى العم رانكين لكنه لم يستدر إلىّ بل اتجه إلى تابوته ، وأخذ يسوى بطانته المخملية حيث كنت أرقد ، ثم فحصه فحصا شاملا ليتأكد أن خشبه لم يصب بأى ضرر .

قال أبى : « أجل . يقول إن عليه أن يرحل للأسف . لذلك أرجو أن تساعدنا فى حمل التابوت » .

قلت : « بالطبع . بكل سرور » .

كانت مهمة حمل التابوت أسفل الدرج وخارج المنزل أسهل بكثير من حمله إلى أعلى . وضعناه برفق على أرض الشاحنة ، وذهب العم رانكين إلى كشك النجارة حيث أحضر الغطاء ووضعه بحرص شديد فوقه . تركناه هناك يغطى كنزه الثمين ويثبته بالحبال بإحكام شديد ، وعدنا إلى المنزل حيث جلسنا إلى المائدة فى المطبخ ، وصب أبى قدحا من القهوة لنفسه وآخر لأمى .

بعد دقائق عاد العجوز . نهض أبى وتصافح الاثنان ثم استدار إلى أمى وانحنى لها نصف انحناءة بطيئة جافة ، ووجه إلىّ نظرة عميقة جياشة متقدة خرج بعدها وأغلق الباب وراءه ورحل . لم يتفوه بحرف واحد . ثم سمعناه يدير محرك الشاحنة .

جلس أبى وأخذ يرتشف قهوته ، ثم طرفت عيناه وقال : « أخيرا ! كان عبئا وانزاح . لم أدرك معنى هذه العبارة حقا حتى هذه اللحظة » .

أومأنا أمى وأنا موافقين . أحسسنا وكأن بيتنا الطوبى القديم قد غدا أخف وزنا حولنا بعد أن غادره التابوت .

قالت : « أعترف أننى أشعر بالراحة أيضا » .

تثاءب أبى وتمطى ثم قال : « لا أدرى كيف تشعرون جميعا ، أما أنا فقد استنفد العم رانكين طاقتى وأرهقنى ، وسوف أتجه إلى الفراش الآن مهما كان الوقت مبكرا » .

راقتنى هذه الفكرة أيضا ، رغم أنه لم يكن قد مضى وقت طويل على الفترة التى نمتها فى التابوت . دخلت حجرتى ومكثت فترة أقرأ فى كتاب من سلسلة كتب الأبناء هاردى ثم أطفأت الأنوار وكلى أمل أن أرى المزيد من الأحلام الممتعة التى زارتنى فى التابوت - لكن ذلك لم يحدث . كان نومى لطيفا هادئا وادعا وخاليا من الأحلام - حتى حوالى السادسة صباحا حين استيقظت فجأة ، مرة أخرى ، على صوت صراخ ، وكانت الصرخة هذه المرة حادة مدوية - صرخة حقيقية تجمد الدماء فى العروق . ومضت لحظة قبل أن أدرك

أن الصرخة انطلقت من أمى وهى أسفل بالمطبخ . ارتديت سروالى سريعا وجريت حافيا ودون قميصى إلى مصدر الصوت .

كان أبى قد سبقنى إلى هناك بلحظة دون أن يسوى ملابسه أو يقفل أزرارها . سألها : « ماذا حدث » ؟

لم تنطق ، بل استندت إلى الباب وقد غاضت الدماء من وجهها ، وأشارت بأصبع ترتعش إلى الثلاجة المفتوحة . هناك ، على طبق تزينه أوراق الخس ، رأينا جمجمة بشرية وقد استقرت فى كل فجوة من فجوات العينين زهرة كريزانثيمام حمراء براقة ، بينما تدلى من بين أسنانها اللؤلؤية ثعبان صغير ميت من ثعابين الذرة .

انكمشت أمى فى حضن أبى وقالت : « كنت أحضر بعض اللبن لأصنع عصيدة الشوفان » .

قال : « لك الحق أن تفزعى . تُرى ماذا فعل ببقية الهيكل العظمى ؟ »

علمنا فيما بعد أن العم رانكين فك الهيكل العظمى إلى أجزاء خبأها فى كل أرجاء المنزل ، فإذا ذهب أحد يبحث عن مبرد أو قطعة من الدوبار اكتشف إحدى عظام أصابع القدم أو عظام اليد . إن جسم الإنسان البالغ يشتمل على عدد مائتين وست من العظام ، لكن العم رانكين وجد ثلاثة آلاف وأربعة وثلاثين مكانا لتخبئتها . بل إننى ومنذ عدة أيام فقط ، أى بعد مرور عشرين عاما ، عثرت فى صندوق قديم للأدوات على عظمة ركبة ، وقد أثارت فى نفسى ذكريات رقيقة حنونة .

إبليس يتحدث

دارت الأيام وتقدم العمر بالدكتور ماكجريفى فلم يعد يستطيع ركوب حصانه . وأسعدنى هذا ، فقد كان الحصان يخيفنى . كان يدعى « إبليس » وكان الاسم ينطبق عليه تماما . كان جوادا فحلا لونه أسود لامع مثل لون بقايا الزيت فى قاع برميل ، وأظن الآن أن ارتفاعه حين يقف كان يبلغ ستة عشر شبرا . فى آخر العصر كان ظله يبدو لى أعمق قتامة من أى ظل آخر . وكان مزاجه حادا فقد كان يدير عينيه فى شراسة فى كل اتجاه ، ويلوى شفته بعيدا عن شكيمة اللجام فى كل مرة يعبر أمام بيتنا حاملا الدكتور ماكجريفى فى زيارة لأحد المرضى ، أو عائدا به إلى بيته عند آخر الطريق الذى يظلله جبل إمبرماونتين .

يقرر الأطفال أحيانا أن شيئا ما يبعث الخوف فى نفوسهم ويتشبثون بهذه الفكرة . فالصبى الذى لا يتورع عن تحدى أعتى بلطجى فى المدرسة ومناهضته قد يشعر بالذعر الشديد أمام دجاجة يتصور أنها سوف تنقر يديه . وترى البنات أيضا فى بعض الأحيان يخترن أحد الأعمام ليختبئن منه حين يأتى للزيارة ويسترقن النظر إليه خلسة من وراء الأبواب ، أو من خلف الأرائك . فالأطفال هنا يختارون هذه المخاوف الوهمية ولا يعرفون لماذا . لكنها تمنحهم متعة خفية .

وفى حالتى كان الدكتور ماكجريفى يخيفنى تماما مثل حصانه « إبليس » ، وكان شطر كبير من خوفى له ما يبرره . لقد كان ماكجريفى ممن كنا نسميهم بأطباء الخيول ، أى أنه كان شخصا يمارس الطب البيطرى دون مؤهلات أو تدريب رسمى ، ولهذا فقد ارتبط فى ذهنى منذ طفولتى المبكرة بالدماء والمرض والذعر الذى تعانيه حيوانات مزرعتنا ـ بالأنين المتحشرج

فى حلوقها وصرخاتها الحادة الغريبة . ومن المرجح أن الرجل لم يكن أسوأ من عشرات أطباء الخيول المنتشرين فى جبال ولاية كارولينا ، لكننى لم آلف أبدا طريقته العنيفة الوحشية فى معاملة الحيوانات ، وهو يفتح فمها بشراسة ، أو يدفعها بكتفه ليطرحها أرضا فوق التبن .

حتى أدوات مهنته كانت توحى بالقسوة ، مثل المقبض ذى اليدين الطويلتين الذى يستخدم فى خصى الخيوانات ، والمنشار القصير ذى الأسنان الكبيرة الذى يستخدمه فى قص قرون الثيران المخصية ، ومثل الجفت الضخم والحقن الهائلة الحجم . كذلك كانت الأدوية والعقاقير التى يحفظها فى زجاجات كبيرة بنية وزرقاء تبدو متوعدة ، وتبعث على الاشمئزاز وتوحى الأسماء اللاتينية التى تحملها بالسحر الأسود . وحينما كنت أرغب فى الشعور بشىء من الإثارة قبل النوم كنت أرقد على ظهرى ، وأحدق أمامى فى الظلام وأردد تلك الأسماء همسا .

كان جونسون جيبس يضيق ذرعا بهوايتى للخيالات المخيفة ، فقد كان يعدنى محظوظا لأننى أعيش مع أبوى بل وجدتى أيضا ، كما أن لى عددا كبيرا من الأعمام والعمات . كانت هذه الحياة تمثل فى نظره ترفا فائضا عن الحاجة . لذا كان يقول حين أفضى إليه ببعض من أحلامى ومخاوفى الجامحة : « لقد ضعف عقلك وبدأت تخرف يا جيبس . إنك تتحدث تماما مثل البنات » . وكانت نبرة الازدراء الساحقة التى يضفيها على كلمة « البنات » تخرس لسانى لفترة بعدها .

ورغم ذلك فقد كان يشاركنى شعورى إزاء الدكتور ماكجريفى إلى حد كبير . لم يكن يخشى الحصان مثلى لكنه كان يتوجس شرا من راكبه ، فقد كان مظهره - مثل حصانه الأسود - يوحي بالغموض والظلام . كان الدكتور يرتدى صديريا أسود واسع الأكمام بدرجة لا تناسب حجمه ، وقبعة من الجوخ الأسود انبعجت قمتها فلم يعد لها شكل محدد ، وكان يجذب حافتها العريضة دائما إلى أسفل لتغطى جبينه . وفى ظل هذه القبعة كانت عيناه تلمعان ببريق غريب خلف عويناته الخالية من الاطار .

والحق أن عاداته النفسية أيضا كانت غريبة الأطوار ، فكان لا يكف عن الغناء بصوت خافت رتيب وهو يمضى فوق حصانه ، ولطالما أرهفنا السمع لنميز كلمات أغنيته فلم نلتقط منها بالطبع سوى كلمات قليلة متناثرة ، أعملت فيها خيالى حتى بت أتصورها تعويذة سحرية شريرة يرددها فى غدوه ورواحه . كان يبدو دائما مستغرقا فى أفكاره غافلا عما حوله ، فإذا حدثه أحد لا ينظر إليه ، وإذا سمع أصواتا غريبة لا يلفت رأسه فى اتجاهها ليستطلع مصدرها . كان فقط يغمغم لنفسه طول الوقت . ورغم ذلك لم يكن يفوته شىء مما يجرى حوله .. حدث مرة أن جاء ليفحص إحدى بقراتنا ، وترك حقيبته مفتوحة بجوار الحائط الداخلى لإحدى الزرائب ، فتسللت اليها لأفحص محتوياتها . كان وقتها يتحدث إلى أبى خارج باب الحظيرة ، وكان من المحال أن يرانى ، ولكن ما أن انحنيت فوق الحقيبة لأنظر داخلها حتى سمعته يقول : « ابتعد عن الحقيبة يا ولد ، فيها أشياء قد تضرك » . كان لصوته خشخشة جافة تشبه صوت أوراق الشجر حين تحترق ، فانتفضت فى التو بعيدا عن الحقيبة السوداء ، وكأننى وجدت داخلها ثعبانا ساما .

أما أسوأ عاداته قاطبة ، والتى جعلتنا أنا وجونسون نخافه وننفر منه ، فكانت معاملته المشينة لكلبتنا الودودة البشوشة « كوينى » التى كان لا غنى لنا عنها فى حراسة الماشية وتنظيم عملها . لسبب ما ، بل وبدون سبب على الإطلاق ، ترسب فى نفس الدكتور ماكجريفى شعور بالكراهية المريرة والنفور تجاه كوينى ، وكان ينتهز أى فرصة ليضربها بالعصا أو يقذفها بالأحجار . وقد أثارت تصرفاته هذه غضب كوينى فأصبح العداء متبادلا بين الطرفين . كانت حين تسمع دقات حوافر « إبليس » على الحصى تسرع بالاختباء خلف الشجرة التى تقع على حافة فناء الدار ، وهى تحتضن الأرض فى توتر وترقب ، وحين يمر الحصان أمام الشجرة تقفز من خلفها وتنقض على ساقيه فوق الحوافر لتشد بأسنانها الشعر الحريرى الذى يغطيهما . لم يكن « إبليس » يأبه لها فيما يبدو ، ولم تكن خطواته تضطرب بسبب هذه الضجة المفاجئة سوى لحظة ، أما الدكتور ماكجريفى فكان يشتعل غضبا وتتجمد

النغمات الخافتة الرتيبة على شفتيه لتتحول إلى جملة يقشعر لها البدن فيقول : « سآتى فى إحدى الليالى المظلمة وأقتل هذه الكلبة بالسم » .

وحين ماتت كوينى فى أوائل شهر سبتمبر قال أبى إن وفاتها كانت طبيعية بسبب تقدم السن ، لكن ذلك لم يقنعنى ولا جونسون أيضا . بكينا قليلا ونحن نحفر لها قبرا تحت شجرة البرقوق ذات الفروع المدببة ، وقررنا أن تصلُّبَ جثتها والتواء أطرافها وتقلصها لا ينم عن ميتة طبيعية .

قال جونسون : « لقد فعلها ونفذ وعيده . لديه الكثير من السموم والمواد الغريبة فى حقيبته السوداء . أنا واثق أنه قتلها » .

أحسست بلهب يسرى فى وجهى وعنقى . قلت : « ليته ابتلع السم بدلا منها - كم أود أن أجعله يتجرع نفس الكأس » .

قال جونسون : « لا تحمل هما . سيأتى عليه الدور » .

لا أعرف ماذا قصد جونسون بهذا التهديد الغامض ، ولا أعتقد أنه هو نفسه كان يدرك ما يعنيه . كان الانتقام من العجوز يبدو أمرا مستحيلا ، فقد كان عظيم البأس ، وحليفا لقوى الظلام بينما نحن مجرد صبيين ضعيفين . أصابنا هذا الإدراك بالمرارة وأوغر صدورنا وجعل خيالاتنا الانتقامية أكثر عنفا وقسوة .

قلت مقترحا : « يمكننا أن نجمع بعض الأشواك البرية ونضعها تحت بردعته » .

ورد جونسون باقتراح آخر : « أو نملأ جوالا بالعناكب السوداء السامة ، ثم نطلقها فى حقيبته المتهالكة » .

- « أو نضع بعض الشحم على جذع الشجرة الذى يعبر الجدول فوقه إلى المخزن ، حيث يحتفظ بالطعام باردا فتزل قدمه ويسقط فى الماء ويغرق » .

- « أو نسرق حصانه ونخفيه فى مكان ما فى الغابة » .

ردنا هذا الاقتراح الأخير إلى صوابنا ، فقد كنت أخاف « ابليس » خوفا يمنعني من المساعدة في تنفيذ الفكرة .

أنزلنا جثة « كويني » في الحفرة البسيطة التي تحف جوانبها جذور النباتات ، وأهلنا عليها التراب برفق قدر ما استطعنا . وقفنا فترة نحملق في كومة التراب ثم استدرنا عائدين ، وأعتقد أن كلا منا أراد أن يرتل صلاة قصيرة على روحها ، لكنه خجل أن يفعل ذلك أمام الآخر .

مضينا نفكر في طرق للانتقام لكننا احتفظنا بالأمر سرا لأن أبي كان على علاقة ودية مع الدكتور ماكجريفي ، وحين تمتم جونسون معبرا عن نفوره قال أبي : « تمهل . تمهل . قد يكون العجوز مختلا بعض الشيء لكنه لا يقل مهارة عن أي طبيب بيطري في هذه الناحية ، وهو الوحيد الذي لا يشرب حتى يفقد وعيه تماما » .

قال جونسون : « لا تعجبني طريقته في معاملة الحيوانات . إنه يدفع العجول الصغيرة بعنف ويركلها بقدمه » .

قال أبي : « قد يكون متخلفا من الناحية العلمية ولكن ليس لدينا غيره . وتستطيع أن تدرك من هذا كَمَّ الفرص المتاحة أمامك يا جونسون ، فأنت تستطيع أن تلتحق بكلية الطب البيطري ، ثم تعود إلينا هنا وسط الجبال وتقدم لنا خدمات جليلة » .

قال جونسون : « أنا ؟ كلا . لن أقبل هذا العمل ولو كان المقابل ملايين الدولارات . إنني لا أتحمل رؤية الحيوانات تتألم » .

- « لابد أن تتغلب على هذا الضعف وأن تنحي مشاعرك الشخصية جانبا » .

- « لقد فعل ماكجريفي هذا بأكثر مما ينبغي . هل تحب أن يجري عملية جراحية لك ؟ »

تمسك بحبال الصبر ونظر إلينا قائلا : « إن به شيئا من الخبل هذا كل

ما فى الأمر . يقولون إنه مازال يحمل داخله رصاصة أصابته من الكوبيين أثناء الحرب الأسبانية الأمريكية . إنه لا يتعمد الإساءة إلى أحد ، وأرجو أن تتحسن نظرتكما إليه . فلتحاولا » .

وعدناه أن نفعل ونحن ننوى ألا نفى بالوعد . كان جونسون فى رأيى قد اقترب من قلب الحقيقة ، وأمسك بمربط الفرس حين وجه إلى أبى سؤاله . فحين راقبت الدكتور ماكجريفى وهو ينشر قرنى أحد الثيران المخصية بمنشاره الضخم القصير ، تخيلت كيف يكون حالى لو أنه أجرى عملية لبتر ذراعى . كان جونسون يربط الثور فى جانب الزريبة ويشل حركته ، بينما نقوم أنا وأبى بإدارة رأسه إلى الخلف حتى يغشى البياض عينيه ، ويغطى الزبد شفتيه ، ويتساقط فوق أيدينا وأرجلنا . كانت العملية تبدو لى وكأنها تستغرق دهرا بأكمله . أو كيف يكون الحال لو هجم علىّ وهو يحمل مقبضى الإخصاء ؟ حين راودتنى الفكرة شعرت بعصائر معدتى تتخثر .

طرحت السؤال على جونسون ونحن نرقد فى الفراش فى ظلام حجرة النوم : « هل حدث أن تخيلت الدكتور ماكجريفى يجرى لك عملية بتلك المعدات الطبية التى يستخدمها مع الحيوانات » ؟

رد سريعا : « كلا . وليتك لم تذكر هذه الفكرة الآن وأنا على وشك النوم » .

قلت : « لقد اقتربت ليلة عيد القديسين . فكر فى هذا » . سمعته ينقلب على جنبه . قال : « لقد فكرت طويلا ولم أحرز أى تقدم . ما الذى يدور برأسك ؟ »

قلت : « لا شىء . علينا أن نزور الدكتور ماكجريفى فى تلك الليلة ، هذا كل ما فى الأمر » .

أصدر صوتا نابيا ينم عن نفاد الصبر وقال : « لقد اعتبرت هذه الزيارة أمرا مفروغا منه منذ زمن طويل . تصورت أن لديك فكرة نيرة » .

ـ « ألديك أنت ؟ »

قال : « لا . لكننى أتضرع كل ليلة ليسوع كى يلهمنى مكيدة خسيسة » .

* * *

مع اقتراب ليلة عيد القديسين أصبحنا ـ أنا وجونسون ـ نصغى باهتمام خاص لذكريات أبى التى يقصها علينا حول مائدة العشاء ، فقد كانت تدور حول كل المكائد الخسيسة التى سمع بها فى طفولته . وحرصنا بصفة خاصة على تمييز المكائد التى سمع بها من تلك التى شارك فيها ، ولم نجد صعوبة فى هذا . فإذا استهل الحديث قائلا : « سمعت ذات مرة أن بعض الصبية الأشرار ... » ثم توقف وانخرط فى الضحك حتى يغلبه السعال ، أدركنا على الفور أنه كان طرفا فى تلك المكيدة ، وأن ذكراها مازالت لذيذة حلوة .

لكن المعابثات التى قصها علينا لم تفدنا بشىء ، فقد كان بعضها غبيا يفتقر إلى الخيال ، والبعض الآخر شديد التعقيد . كنا قد اتفقنا ـ أنا وجونسون ـ على تجنب المكائد الغبية المعتادة مثل سد فوهات المداخن ، أو إتلاف الأبنية الخارجية الملحقة بالبيوت ، لكننا أيضا لم نتصور أنفسنا نقوم بفك سيارة موديل فورد ثم إعادة تجميعها فوق سطح أحد الأجران .

قال جونسون : « كانت بدايات أبيك لا تبشر بالخير ، لكنه تحسن كثيرا بلا شك على مر السنين » .

إلا أن ملحوظة واحدة علقت بذاكرتنا وذلك حين قال : « إن أفضل أنواع المعابثات قاطبة هى التى تثير الخوف ، فهذا هو لب ليلة عيد القديسين » .

أضافت أمى : « على ألا تسبب الأذى لأحد على الإطلاق » .

قال بسرعة : « أجل بالطبع على ألا تسبب الأذى لأحد على الإطلاق » .

وهكذا كان علينا أنا وجونسون أن نعتمد على قدراتنا العقلية وقرائحنا وحدها فى هذا الأمر ، واكتشفنا أنها ليست بالقوة التى تصورناها . فكرنا فى النواطير وفى الساحرات بقدورهن التى تغلى ويتصاعد منها البخار ،

والعفاريت التى تثير الشغب ، والأشباح التى تنوح وتئن ، لكنها بدت جميعا مثل الصور التى تعلقها المدرسة على جدران الفصل فى هذه المناسبة ، والتى لا تثير أدنى درجة من الخوف مهما بلغ عددها .

سألنى جونسون : « كيف تبدو الأشباح فى رأيك ؟ »

- « أعتقد أنها بيضاء ، تهتز وتتماوج وتزوم عاو عاو » .

هز رأسه عابسا وقال : « أليس لديك شىء أفضل من ذلك ؟ »

قلت : « فلتكن أرجوانية » ، ثم هبط علىّ إلهام مفاجىء فاستدركت : « بل اجعلها حمراء ، مخضبة بالدماء فى كل مكان » .

قال جونسون : « وتسيل الدماء من فمها » .

قلت : « وتتسرب من عيونها القبيحة » .

- « الآن بدأنا نتقدم . أى شبح تختار ؟ »

قلت : « شبح نابليون » .

نظر إلىّ نظرة تفيض باشمئزاز لا حد له ، وقال : « لقد سرقت فئران الحقل عقلك يا جيس » .

- « شبح من إذن ؟ »

- « ألم نسمعهم يقولون إن زوجته ماتت منذ بضع سنوات ؟ أراهن أنه كان يعاملها معاملة فظيعة ، ولو كانت تتحمل رؤية ابن الحرام هذا مرة أخرى لطاردته وأقضت مضجعه » .

- « ولكن كيف نقلد شبحها ؟ إننا لا نعرف شكلها » .

قال جونسون : « المهم أن يكون شبح امرأة . هذا يكفى .. سيدرك على الفور أنه شبح زوجته » .

- « ستظهر فى غلالة نوم أنثوية » .

قال جونسون : « وفوق رأسها باروكة شعر مستعار - شعر أبيض طويل مخيف ، وتسيل الدماء من كل جزء فيها ، ستظهر أمامه فجأة خلف زجاج نافذة حجرة النوم وتصيح « عووو ..عووو .. لقد آذيتنى يا ماكجريفى أذى عظيما ، وها أنا ذا قد عدت من العالم الآخر لأطاردك إلى الأبد » .

أضفت : « ولن أدعك تنعم بالسلام بعد اليوم » .

ومضى جونسون مرتلا : « وحين تحل ساعتك الأخيرة سأكون فى انتظارك خارج بوابة الحياة » .

قلت : « ترى ماذا كان اسمها ؟ من الضرورى أن نعرف اسمها » .

أخبرتنى أمى أنها كانت تدعى إستر ، وكانت أعذب خلق الله وأفضلهم . قالت : « كانت إنسانة لطيفة ممتعة تفيض بالبشر دائما ، ولا تغيب الابتسامة عن وجهها أبدا ، وكانت نموذجا للصبر الجميل . كنت أتطلع إليها وأنا طفلة صغيرة وأعجب بجمالها ، وأتمنى أن أشبهها حين أكبر » . ومضت لتصف كيف ماتت مسز ماكجريفى بمرض السل ، وكيف أثر موتها فى زوجها . قالت : « تغير بعدها واتسم سلوكه بالغرابة والشذوذ . مسكين . كانت صدمة مروعة بالنسبة له » .

لكن هذه القصة الحزينة لم تلن قلوبنا ، فقد جعلناها صلدة كالحجر .

قال جونسون : « إستر .. عووو ... ألا تعرف زوجتك إستر ؟ لقد عادت من القبر » .

واجهتنا بعض الصعوبات فى صنع الشبح . جمع جونسون الدم الناتج عن ذبح دجاجة لوجبة عشاء يوم الأحد ، وخضب به بعض الستائر القديمة المهملة التى وجدها فى غرفة الخزين العلوية . لكن الدم لم يلبث أن تحول إلى لون بنى باهت حين جف على القماش ، ولم يعد لافتا للنظر . وجدنا أفضل لون للدم فى أحد درجات اللون الأحمر لنوع من طلاء الأظافر يدعى « نار العاطفة المشبوبة » ، فابتعنا ست عشرة زجاجة منه من حانوت فيرجيل كامبل . نظر إلينا السيد كامبل وقتها متعجبا وقال : « ستكونان أيها الشابان

أجمل فتيان الحفل بكل تأكيد » ، فأخبره جونسون بأننا سنستخدمه فى طلاء بعض النماذج الصغيرة للطائرات .

أما فى حالة الباروكة فقد حالفنا النجاح . أخذ جونسون قبضتين من الحبال القصيرة المجدولة ، وعقدها بعضها بالبعض بحنكة ومهارة ، ثم حل كل حبل إلى فروعه ومشطها جميعا حتى بدت للناظر من زاوية معينة مثل شعر امرأة ماتت منذ ثلاث سنوات ـ خاصة إذا كان هذا الناظر مثلنا تلح عليه هذه الصورة فى كل لحظات يقظته .

كنا قد ربطنا عودين على شكل صليب ثبتنا أعلاه ثمرة قرع كبيرة بمثابة رأس ، وأسدلنا فوقه ثلاث طبقات من الستائر البيضاء الشفافة غطته تماما ، ورسمنا فوقها خطوطا من الطلاء الأحمر فى كل مكان . ثم أحضر جونسون عودا أشعل طرفه وغرسه فى الثمرة فأحدث ثقبين للعينين وثقبا للأنف لوثنا أطرافها جميعا بسخاء بالطلاء الأحمر . بعد ذلك ثبتنا الباروكة فوقها .

لكننا حين وضعنا شبحنا وسط كومة من التبن فى المخزن أعلى الجرن ، ووقفنا نتأمله من بعيد شعرت بخيبة الأمل . بدا تماما مثل مجموعة من الستائر القديمة الملوثة بطلاء الأظافر ، وفوقها كومة من الحبال القصيرة المجدولة . لاحظ جونسون خيبة أملى فقال : « لا تحكم عليه قبل أن تمنحه الفرصة المناسبة . من الطبيعى أن يبدو هزيلا تافها هنا فى مخزن الجرن فى وضح النهار . لكنك لو رأيته يطل عليك ، من خلف زجاج النافذة فى الظلام الحالك فى ليلة عيد القديسين ، وسمعت أناته وتأوهاته الشبحية ، فسوف يختلف شعورك إزاءه ، خاصة إذا كنت عجوزا وبك مس من الخبل ، ولم تقدم فى حياتك سوى الخسة والشر » .

قلت متنهدا : « أرجو أن يصدق ما تقول » .

قال : « سيصدق بكل تأكيد . أتظننى لا أعرف كيف أبث الرعب فى قلوب الناس ؟ »

حدث هذا قبل ليلة عيد القديسين بيومين ، وحين حل العيد كنت قد

اقتنعت بوجهة نظر جونسون ، بل وأصابتنى رغبة محمومة للبدء فى تنفيذ الخطة على الفور مما اضطر جونسون إلى طرحى أرضا عنوة والجلوس فوقى . سألنى : « متى ستتعلم شيئا من الصبر ؟ سيفسد اندفاعك كل شىء » .

صحت لاهثا : « دعنى أنهض . لقد تعلمت بعض الصبر » .

كنا على ثقة من أن أبى سيحكى لنا قصصا على مائدة العشاء - قصصا عن الأشباح أو عن المعابثات التى تحدث ليلة عيد القديسين ، لكنه ظل صامتا وأخذ يحدق فينا بنظرة متأملة حادة ، وأخيرا سألنا ماذا ننوى أن نفعل . قال : « لا أريدكما أن تفعلا شيئا يلحق الأذى بأحد أو يتلف أى ممتلكات أو عقار . هل هذا واضح ؟ »

قال جونسون : « أجل يا سيدى . لن نفعل شيئا سيئا » .

- « وأنت يا جيس ؟ »

قلت أجل يا سيدى وأنا أتلوى داخل ملابسى ضيقا بالانتظار . كان الظلام قد حل بالخارج ولم يبدأ جونسون بعد فى التمهيد لمغادرتنا المائدة .

قال أبى : « وشىء آخر . لقد قضيت يوما شاقا وأحتاج للنوم . إذا عدتما دقيقة واحدة بعد العاشرة فلا أود أن أعلم بهذا . لا أريد أن أرى أنوارا أو أسمع ضجيجا »

قال جونسون : « حاضر يا سيدى . سندخل فى هدوء تام مثل ... مثل الفئران » . كنت أعلم أنه كان ينوى أن يقول مثل فأر يتبول على قطعة من القطن ، لكنه غير رأيه .

قال أبى : « أجل . هدوء الفئران لا بأس به ، وأضف إليه ظلام الخفافيش . أتسمع ؟ » .

- « أجل يا سيدى » .

وأخيرا تركنا المائدة ودلفنا إلى الخارج . كانت ليلة نموذجية لعيد القديسين كما تصفه كتب الحواديت - صافية ، هادئة ، نسائمها ساكنة . تراءت

أنوار البيوت المنتشرة من بعيد كنقاط برتقالية ، وبين الحين والآخر كان يتردد نباح كلب لا يلبث أن يصمت . أشرقت بعض النجوم المتفرقة هنا وهناك فى السماء الشرقية ، أما النجوم الغربية فذابت أنوارها فى ضوء القمر المكتمل الذى تربع فى جلال فوق قمم التلال مثل عجلة من الصقيع الأبيض . بدا جونسون أطول فى ضوء القمر فاقتربت منه قليلا ونحن نمضى فى الطريق .

قال : « لماذا ارتديت سروالا من القطيفة المضلعة ؟ ألم تجد شيئا غيره . إنه يحدث صوتا يسمع على بعد نصف ميل » .

دلفنا إلى الجرن وجمعنا أشلاء شبحنا . حمل جونسون الرأس والملابس ووضعت أنا العودين المتقاطعين على شكل صليب فوق كتفى ، وعدنا بأحمالنا إلى الطريق مرة أخرى . كان كل شىء يبعث على الإثارة بما يرضينى ، ضوء القمر الذى يصبغ التلال والأشجار والأحجار بلون الفضة ، وقمم الجبال التى تخترق سواد الأفق المائل للزرقة . وكان صوت وقع أقدامنا على حصى الطريق مصدرا للسلوى لا ينقطع . أخذت كل هذه التفاصيل تفعل فعلها فى نفسى ، ودار بخلدى أننى الآن أخوض تجربة الليل صدقا ، وأختبر بنفسى معناه الحقيقى ، وبدأت أعجب كيف يجرؤ الناس على الخروج إليه عبر الزمان . أدركت أن العالم يمتلىء بأشياء وقوى اتفق البشر على تجنب التفكير فيها تماما ـ أشياء وقوى تتطلب منا أن نتفكر فيها طويلا وأن نسترضيها . كانت المسافة إلى بيت الدكتور ماكجريفى ميلين على الأقل ، وكان أمامى وقت طويل لأجول بأفكارى فى دروب لم أطرقها من قبل . تتابعت أعمدة سور الأسلاك واحدا تلو الآخر ، وبدت بقع الطحلب المنتشرة فوقها مثل زهور فضية من كوكب أورانوس .

وفجأة توقف جونسون وتطلع أمامه . كنا قد أشرفنا على نهاية الطريق ونهاية خطوط الكهرباء ، إذ لم يكن الدكتور ماكجريفى قد اهتم بإدخال الكهرباء إلى بيته . تشابكت فروع أشجار البلوط الهائلة فوق الطريق فحولته إلى كهف مظلم تخطه فتحات مستطيلة ضيقة . قال جونسون : « سنتنحى عن الطريق هنا ونشق طريقنا إلى البيت عبر المرعى حتى لا يفطن إلى مجيئنا » .

خطونا فوق السور ، وكانت حشائش المرعى باردة مبتلة . لم نبصر بيت ماكجريفى من موقعنا فقد كان يبعد حوالى مائتى ياردة خلف حافة الظلال الكثيفة ، ورغم ذلك خفض جونسون رأسه وحنى كتفيه ، وتقدم إلى الأمام على أطراف أصابعه . كانت هذه طريقته - كما قال لى - فى التحرك مثل الذئاب .

حين بلغنا الظلال توقعت أن أرى نورا ينبعث من البيت ، لكننا غرقنا فى ظلال الشجرة الكثيفة فاستغرقنا وقتا حتى تبيناه . كان ظل الشجرة يمتد فوقنا مثل أطلال سقف قديم ، فلم نبصر شيئا فى البداية سوى خطوط من ضوء القمر تتخلل الفروع العارية الكثيفة . ثم أبصرنا شبح البيت القديم المتداعى ورأينا وهجا برتقاليا مذهبا ينبعث من جزئه الخلفى .

همس جونسون : « إنه فى المطبخ فى مؤخرة البيت .. صدفة طيبة » .

وكانت صدفة طيبة حقا . كان قد قال لى من قبل إن علينا أن نقطع الخمسمائة ياردة الأخيرة زاحفين مثل الجنود والهنود الحمر حتى نتجنب اكتشاف أمرنا . وبدا هذا الاقتراح مثيرا فى حينه ، لكننا لم نتوقع أن نجد الأرض باردة بهذه الصورة المخيفة .

وهكذا تسللنا نحو البيت وقد حنينا هامتينا وثنينا أرجلنا فى وضع نصف إقعاء غريب . كنت قد شاهدت البيت من قبل مرات لا حصر لها ، لكنه بدا مختلفا هذه المرة - بدا رماديا تخطه الظلال ، طويلا ، نحيلا ، وحيداً بائسا . لكن هيكل الشبح الذى كنت أحمله صرفنى عنه ، فقد أخذ يشتبك بالشجيرات حولى ، ثم يصطدم بفكى حين أنتزعه منها ، بينما ظلت لفافات الستائر تنفلت من يدى جونسون وتنهرس تحت قدميه بين الحشائش فتنطلق منه اللعنات .

ورغم ذلك وصلنا أخيرا إلى نافذة المطبخ ووقف كل منا على جانب منها . أومأ إلىّ إيماءة بطيئة جادة ، ثم شببنا على أقدامنا لننظر إلى الداخل .

رأينا حجرة كبيرة لكنها بدت صغيرة دافئة فى ضوء مصباح الكيروسين الذى اعتلى المائدة فوق مفرش من المشمع ، واحتل موقد الأخشاب مساحة كبيرة من الغرفة بينما شغل شبح حصانه الأسود الهائل « إبليس » مساحة

أكبر . كان الدكتور ماكجريفى يقف أمام الموقد وظهره لنا ، يقلب شيئا فى قدر كبير دون أن ينظر خلفه حتى إلى حصانه . ترامت إلى أسماعنا غمغمته الرتيبة المنغمة ، وصاحب إيقاعها حركة يده . ثم حمل القدر إلى المائدة حيث وضع وعاءين للحساء فملأهما عن آخرهما . تصاعد البخار منهما برتقالى اللون فى ضوء المصباح . عاد بالقدر إلى الموقد وأغلق غطاءه بإحكام ثم قال : « هيا يا إبليسى . عشاؤنا جاهز » .

اقترب الحصان الهائل بأنفه من المائدة فى حرص ، وما أن لمس البخار منخاريه حتى سحب رأسه إلى الخلف فجأة ، ودارت عيناه النديتان فى مقلتيهما والتمعتا ببريق أصفر . حك الأرض بحافره مرة فشعرت بهزة تسرى فى البيت كله من خلال كتفى المستندة إلى الحائط .

سأله ماكجريفى : « هل الحساء ساخن جدا ؟ انتظر لحظة وسوف يبرد » . جذب المُبرِّد فوق ماسورة الموقد ثم اتجه إلى دولاب الحائط وأحضر فنجانا وصب لنفسه بعض القهوة من إناء على الموقد ، ثم فتح فرن تسخين الطعام وأخرج منه أربع فطائر وضعها على مفرش المائدة المشمع المزين بالمربعات . بعد ذلك جذب مقعدا مستقيم الظهر وجلس إلى المائدة . « كل بعض البسكويت حتى يبرد الحساء » . فتح إبليس فمه لاويا شفتيه ، والتقط فطيرة برشاقة وأناقة وكأنه إحدى سيدات المجتمع تتناول بسكويتة ، ثم مضغها فانتثر الفتات من فمه فى كل مكان .

استند ماكجريفى بمرفقيه على المائدة وأخذ يحتسى قهوته ، ثم قال : « يبدو لى يا إبليس أنك تزداد سوادا كل يوم » .

أجابه الحصان بإيماءة قصيرة غريبة .

– « إذا ازددت سوادا سأرسم عليك بقعا بيضاء حتى يتمكن الناس من رؤيتك ليلا » .

رد « إبليس » بنخرة هادئة .

التقط ماكجريفى ملعقة معدنية كبيرة ، واختبر حرارة الحساء . هز

رأسه وقال : « لقد برد الآن بما يكفى . هيا جربه . سنتناول بعده كعكة صغيرة جاهزة ابتعتها من المتجر » .

اقترب إبليس بأنفه من وعاء الحساء فى حرص ، لكنه ما لبث أن ابتعد عنه حثيثا وهز رأسه .

– « ماذا بك ؟ هل تقول إن الحساء ينقصه النخاع ؟ لا يا إبليس إن فيه الكثير من النخاع الطيب . لقد وضعت فيه نصف عظمة رجل بقرة » .

لكن الحصان لم يتقدم إلى المائدة ، وأخذ يحرك شعر ذيله كالمنشة .

– « أليس بالحساء ما يكفى من الدماء والعظام ؟ لا تكن أحمق . أى نوع من الدماء والعظام تريد ؟ »

حك الحصان الأرض بحافره ثلاث مرات .

سأله الدكتور ماكجريفى : « دماء آدمية ؟ كلا . لا أصدق أنك تريد دماء بشرية فى حسائنا . من أين أحصل عليها ؟ »

رمى برأسه فجأة إلى الخلف ، وحين انعكس ضوء المصباح على عينيه بدا وكأن نارا تشتعل داخل جمجمته والتمع عرفه .

– « ماذا تقول ؟ أتقول إن بعض الصبية الحقيرين يسترقون النظر علينا عبر نافذتنا الصغيرة ؟ » أدار ماكجريفى رأسه ناحيتنا ، والتمع زجاج نظارته بوهج الضوء كنصل سكين يبرق فى ضوء القمر .

– « من تظنهم يكونون ؟ »

حينئذ تكلم إبليس ـ كان صوته فريدا ليس فى العالم مثله . جاء عميقا مفعما بالغموض يتفجر قوة كصوت صخرة كبيرة تنشق ، وبدا وكأنه ينبعث من آبار مهجورة وكهوف تسكنها الأشباح وقبور عفنة تنشق من باطنها . لفحتنى موجات من الحرارة والبرودة وتصببت عرقا ووقف الشعر على رقبتى وذراعى متصلبا كأسنان الريش . قال إبليس : « فلندعهم إلى العشاء » .

كان الخوف قد شلني عن الحركة حتى هذه اللحظة ، ومنعني من الفرار جريا . لكن دعوة إبليس الودودة عززت شجاعتي فألقيت بالعصا الخشبية التي أحملها إلى الأرض ، وانطلقت عدوا مثل أرنب يحس بأنفاس كلاب الصيد تجد في أثره .. جريت لا ألوي على شيء عبر الحفر الطينية والأشواك البرية والشجيرات الحادة المسنونة ، وربما أيضا عبر سور الأسلاك الشائكة ، إذ أنني لا أنكر على الإطلاق أنني توقفت في عدوي لأتسلقه .

جريت على طول الطريق المفروش بالحصى حتى تقطعت أنفاسي ، وبت عاجزا عن العدو . تمزقت ملابسي في كل مكان وانهمر عرقي غزيرا وسالت دمائي ، وتوالت شهقاتي ، وبت عاجزا عن التنفس بصورة طبيعية معقولة . شعرت بأنني هدف عار وسط الطريق تسهل إصابته ، فاتجهت إلى حافته وأقعيت وسط بعض شجيرات الساسفراس لأنتظر حتى أسترد أنفاسي كي أتمكن من العدو مرة أخرى لمسافة ميل أو خمسة أميال أو عشرة .

سمعت خطوات على الطريق تقترب مني ، ودعوت الله أن يكون القادم جونسون جيبس . كنت أعلم أنني لن أتحرك من مكاني قبل أن أتبين ملامح وجهه ، لذلك حين ناداني : « جيس . جيس . أين أنت » ؟ لم أتحرك رغم أنني ميزت صوته .

حين أصبح على مسافة قريبة تسمح لي بأن ألمسه إذا مددت يدي قلت في صوت خافت : « إنني هنا يا جونسون » .

سألني : « ماذا تفعل هنا وسط الشجيرات ؟ »

قلت : « أختبيء لأنقذ نفسي » .

- « عن أي شيء تهذي ؟ لماذا لم تناولني الهيكل لأجهزه حتى نخيف العجوز ؟ »

- « أمجنون أنت ؟ بعد أن هدد إبليس بالتهامنا » ؟

- « هدد بماذا ؟ »

- « ألم تسمعه يتكلم ؟ »

- « أبدا . ماذا قال ؟ »

- « قال : فلنلتهم مخيهما وعظامهما » .

- « هل أنت واثق من هذا ؟ أواثق أنت أنه لم يقل شيئا آخر ؟ » ثم انخفضت نبرة صوت جونسون وغدا عميقا ذا رنين أجوف ، وقال : « فلندعهم إلى العشاء » .

أجل . كان نفس الصوت الذى سمعته عند النافذة ، فانقضضت عليه ، وأخذت ألكمه فى صدره بقبضتى . لم يحاول أن يصد ضرباتى فقد كان مستغرقا فى الضحك تماما . ضربته حتى أصابنى الإعياء لكنه لم يشعر بلكمة واحدة من فرط سعادته .

قلت : « لم يكن من العدل أن تخدعنى هكذا . لم يكن من العدل أبدا . لقد اتفقنا أن نكون شريكين فى هذه الخدعة أنا وأنت . كانت لعبتنا معا أنا وأنت بمناسبة ليلة عيد القديسين » .

كانت قهقهاته قد تحولت إلى ضحك خافت فقال : « دعنى أخبرك بما حدث » .

قلت : « لا . لا تقل شيئا . لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة » .

مشينا نحو المنزل . كان لا يزال منخرطا فى الضحك الخافت وكنت لا أزال أشعر بالغضب الشديد .

- « دعنى فقط أخبرك . »

صحت فيه : « اخرس . ألم أقل لك من قبل أن تغلق فمك ؟ »

قال : « اسمع يا جيس . » لكنه توقف عن الكلام حتى احتوانا ظل المنزل ، ثم قال فى هدوء : « هناك شيء لابد أن تعرفه رغم غضبك . لم يقتل الدكتور ماكجريفى كلبتنا كوينى بالسم . لقد كنا مخطئين فى هذا » .

قلت فى إعياء : « كفاك يا جونسون »، فانخرط فى ضحك خافت مرة أخرى . قال : « ليتنى أستطيع أن أكف عن الضحك . إن ضلوعى تؤلمنى حيث انهلت على باللكمات » .

كان البيت ساكنا غارقا فى الظلام ، فتذكرنا تحذير أبى لنا بأن نلتزم الهدوء عند عودتنا . دخلنا المنزل عبر غرفة الجلوس ، ووصلنا إلى بهو الطابق الأرضى فى سلام ، وذلك رغم أنفاسى الحادة الخشنة التى خلتها تكاد من فرط علوها أن توقظ أهل المنزل جميعا . ثم تحسسنا طريقنا فى الظلام إلى السلم وبدأنا نصعده ، وما أن وصلنا إلى منتصفه حتى ظهر أمامنا فجأة أعلاه شبح أبيض رمادى يرفّ نحونا .

صاح الشبح الرمادى : « اللعنة والهلاك . الهلاك لمن يقض مضجع الليل » .

قال جونسون : « يا إلّهى . خذ بيدى يا جيس . إننى أكاد من فرط الخوف أن أصاب بنوبة قلبية . كيف بالله سنتحمل هذا الرعب المهول ؟ »

ثم أشعل ثقابا فرأينا أبى فى ضوئه يرفع ثنايا الملاءة التى غطته ، ويرمقنا من تحت طرفها وقد بدا عليه السرور والغيظ فى آن واحد مثل قطة فاجأها أحد وهى تسطو على جرة القشدة . هز رأسه فى كدر وقال : « كان ينبغى أن تشعرا بالخوف ـ لو كان لديكما بعض الخيال لأصابكما الفزع . هذه هى مشكلة ليلة عيد القديسين هذه الأيام . لم يعد لدى أحد أى قدر من الخيال » .

شعرت بوخزة شفقة تجاهه فقلت : « أنا خفت » .

أشرقت أساريره وقال : « أحقا يا جيس ؟ »

– « أجل . لقد شعرت بالخوف حقا . بعض الشىء » .

قال جونسون : « لكنك تخاف بسهولة ، أليس كذلك ؟ »

بدأت ألكمه مرة أخرى محاولا أن أصيب أضعف ضلوعه وأكثرها رقة .

الأمنيــة

النوم . هذا المحيط الغريب المثير الذى لا قرار له . طفوت من أعماقه حثيثا وأنا أصارع الحيرة والبلبلة مثل غطاس يغالب الأمواج ليطفو إلى سطح العالم . حين فتحت عينى رأيت منارا شاحبا غائم الملامح يتعلق أمامى فى الظلام . كان وجه أبى العريض .

كان يردد فى نبرات خافتة : « استيقظ يا جيس . عليك أن تستيقظ الآن إذا كنا ننوى الرحيل » .

– « كم الساعة الآن ؟ » خرجت الكلمات من فمى متثاقلة لزجة .

قال : « حان وقت الرحيل . لقد جمعت أشياءنا ومعداتنا . التزم الهدوء ولا توقظ أمك وجدتك . سأنتظرك أسفل فى المطبخ » . ثم غاب مصباح وجهه الخافت عن عينى ، وسمعته يمضى خارجا من الغرفة فى خفة وهدوء تاركا بابها مفتوحا .

جلست فى السرير وطوحت ساقى فوق حافته . أوشكت أن أخاطب الفراش المواجه لفراشى قائلا *هيا يا جونسون . استيقظ . حان وقت الرحيل .* لكننى أدركت حين انحسرت عنى أمواج النوم أن الفراش خاوٍ ، هجره صاحبه إلى الأبد .

أن تصحب أباك فى رحلة لصيد الأسماك مسألة طبيعية مألوفة ، بل وموغلة فى القدم .. قد لا تكون مثيرة بنفس القدر مثل تجربة الجنس أو الموت أو اكتشاف أسرار حياة الحيوانات ، لكنها رغم ذلك لا تزال تحمل قدرا

من ظلال الأساطير يجعلها تسلب لب صبى فى الثانية عشرة . أضف إلى ذلك أنها كانت المرة الأولى منذ زمن طويل التى أنفرد فيها بصحبة أبى لفترة .

ارتديت ملابسى فى هدوء وكفاءة بقدر ما استطعت فى ظلام الغرفة ، لكن الأمر لم يسلم بالطبع من الأخطاء ، فقد ارتديت قميصى القطنى وظهره إلى الأمام ، ثم أخذت ألفه حول جسدى حتى اتخذ وضعه السليم . حملت جوربى وحذائى الثقيل فى يدى حتى لا أحدث ضجة دون قصد وأنا أهبط السلم ، ثم تسللت من الحجرة فى هدوء وقصدت المطبخ . كنت على يقين تام أننى تحركت فى رقة وهدوء مثل ندف الأزهار البرية التى تنثرها النسائم ، وأن حركتى لم تكن لتوقظ قضاعة أو تزعج نومها .

ورغم ذلك استيقظت أمى . وجدتها جالسة إلى المائدة مع أبى وهو يحتسى قهوته بصوت مسموع من فنجان يتصاعد منه البخار .

قالت فى مرح : « صباح الخير يا جيس . لقد نهضت مبكرا هذا الصباح » .

نظرت إليها بصعوبة بعينين نصف مفتوحتين فى الضوء الأبيض العادى .

قال أبى : « يبدو لى أنه لم يستيقظ بعد . ما هذا سوى شخص يمشى أثناء نومه ضل الطريق إلى هنا » .

قلت : « لقد استيقظت » . لكن الجملة خرجت من فمى فى صورة تثاؤب حاد النبرة .

قال : « تناول بعض القهوة . إنها كفيلة بتشغيل المحرك » .

قالت أمى : « أتسمح لطفل كهذا بشرب القهوة يا جو روبرت ؟ »

قال : « بكل تأكيد . إننى أريد رفيقى فى رحلة الصيد يقظا ومتأهبا للعمل » . تناول فنجانا أزرق من الرف ، وصب فيه قليلا من القهوة وكثيرا من اللبن ، ووضعه إلى جوارى على المائدة حيث جلست على كرسى وقد

أرخيت جسدى وأخذت أرتدى حذائى . قال : « جرب هذا وسترى مفعوله السحرى » .

وهكذا ومنذ بدايته اكتسب يوم السبت هذا من شهر سبتمبر ذلك العام أهمية خاصة ، فقد بدأ بأول فنجان من القهوة تناولته فى حياتى . احتسيتها ببطء وكرهت طعمها كرها جما .

قالت أمى : « من الواضح أنكما متحفزان تماما لبدء الرحلة ولا تطيقان الانتظار . ولكن لا تدعا الحماس يدفعكما إلى التهور . الزما الحذر وأنتما فى البحيرة » .

سألنى : « هل أعجبتك القهوة ؟ »

قلت : « نعم إنها حقا .. حقا لذيذة » .

- « حسنا هل أنت مستعد لاقتفاء أثر الفريسة ؟ »

- « بكل تأكيد » .

قال : « لا تسهرى فى انتظار عودتنا يا حبيبتى . قد نغيب أسبوعا ، وقد يعجبنا الحال فنقرر أن نمضى حياتنا كلها فوق ذلك القارب » .

قالت : « إذا اصطدتما بعض الأسماك فاحرصا على تنظيفها قبل العودة . إنها تبدو قبيحة بما يكفى حتى بعد تنظيفها ، فإذا لم تنظفاها فلن ألمسها بل ولن أنظر إليها » .

قال : « إنك للأسف لا تقدرين الأسماك الجيدة حق قدرها » . ثم انخرطا فى قبلة طالت حتى مللت النظر إلى الحائط حيث أدرت وجهى . بعدها قال : « هيا بنا يا جيس » ، فخرجنا من المنزل وركبنا السيارة .

كانت خلفية العربة البونتياك القديمة تمتلىء بأدوات الصيد ، إلى جانب سلة طعام كبيرة . استدار أبى فى مقعد القيادة ودار ببصره فوق عتادنا فى الضوء المنبعث من لوحة عدادات السيارة الأمامية ثم قال : « إذا كنا قد نسينا شيئا ، فعلينا أن نستغنى عنه » ، وأدار المحرك وانطلقنا .

كان صباحا رطيبا ، وسطع ضوء الفجر أبيض فكسا المشرق بمسحة من شحوب . وشت أوراق الأشجار على جانبى الطريق - أشجار الزان والبلوط والخروب - بمقرب الخريف ، إذ بدأت ألوانها تكتسى صفرته النحاسية . بدا أبى أسعد حالا عما كان عليه منذ أسابيع عديدة . أخذ ينظر إلىّ بين الحين والآخر ويغمز بعينه ، لكن غمزته كانت حزينة . قال : « سيكون اليوم باردا . هل أحضرت سترتينا كما طلبت منك ؟ »

- « أجل يا سيدى » .

قطعنا بالعربة مسافة ثلاثة وعشرين ميلا على الطريق الأسفلتى ، ثم مضينا وسط التلال فوق طريق ترابى ، ثم انحرفنا إلى ممر ملىء بالحفر تفرشه أوراق شجر الصنوبر المدببة وينتهى إلى شاطىء البحيرة .

كان الهواء عند البحيرة أشد برودة ، فارتديت سترتى الصوفية الخضراء وأنا أغبط أبى على سترته المصنوعة من فراء الغنم التى بدا داخلها ينعم بالدفء الشديد . وقف إلى جوار العربة لحظة يحدق أمامه . رأينا لوحا خشبيا واهيا يمتد من حافة الشاطىء إلى باب كوخ صغير متداع يقف على قوائم فوق البحيرة . ومن مدخنته الدقيقة المصنوعة من الصفيح تصاعد خيط دخان داكن يتلوى ، مما جعل البناء يبدو وكأنه عنكبوت مائى هائل تنمو من جسده شعرة وحيدة جامحة . عبرنا اللوح الخشبى إلى الكوخ فى خطوات متأنية حذرة ونحن نسحب قدما أمام الأخرى دون أن نرفعها ، وحين نظرت إلىُ المياه الباردة أسفله ، وتصورت نفسى أسقط فيها ، سرت القشعريرة فى جسدى ، ثم طرق أبى الباب .

فتحه رجل عجوز ضئيل الحجم ، وأطل برأسه خارجه . نظر إلينا دون أن يُظهر شيئا من الترحيب . ثم سأل : « ماذا تريدان ؟ »

قال أبى : « صباح الخير يا سيدى . إننا نطمع فى استئجار أحد قواربك ، فقد فكرنا فى قضاء بعض الوقت فى الصيد » .

قال : « تريدان قاربا إذن » ، ثم اشرأب برأسه ومد رقبته حول فتحة

الباب وبصق كرة من اللعاب الملوث بالتبغ فى المياه . حين خطا إلى الأمام اكتشفت أنه أحدب الظهر ، لكن ذلك لم يدهشنى فقد بدا متسقا مع سلوكه . فتح الباب وقال : « حسنا . ادخلا إذن » .

دخلنا ودارت أبصارنا فى الغرفة البدائية الوحيدة . جذبتنا مدفأة الخشب التى تتوسطها وتصدر صوتا خفيفا متقطعا . اتجهنا إليها وقربنا كفينا منها لتمتص الحرارة الطيبة التى تبعثها .

وقف العجوز الضئيل إلى جوارنا يتأملنا من أعلى إلى أسفل . كان يحاول أن يقيمنا . قال : « لا أعرف إذا كان الجو سيسمح لكما بالصيد فترة كافية اليوم . يبدو لى أنها ستمطر » .

قال أبى : « إذا أمطرت فسوف نعود . لقد نوينا أن نقوم بهذه الرحلة منذ فترة طويلة . يبدو أن فرص الذهاب للصيد قد باتت قليلة » . صافح العجوز وقدم نفسه إليه ، ثم وضع كفه فوق رأسى وقال : « وهذا ولدى جيس » .

هز العجوز رأسه محييا ومد يده إلىّ . كانت صلبة خشنة فى ملمس الحديد الصدىء .

قال : « أهلا . اسمى جون كلينشلى لكنهم يدعوننى دائما ساك ، ولا أعرف لماذا » . كان صوته خافتا مشروخا فبدا مثل صوت عمود معدنى صدىء ينثنى . كانت حدقتا عينيه بنيتين داكنتين ، وبياضهما مشوب بالصفرة . ولما كان جسده منحنيا إلى الأمام فقد بدا وهو يحملق إلى أعلى ناظرا لأبى مثل رجل يطل ببصره إلى الخارج من أحد الكهوف . حك أنفه بعقلة إبهامه وقال : « حسنا . أظن أن لدى قاربا لكما إذا استقر عزمكما على الخروج إلى البحيرة . ربما نلتما صيدا طيبا قبل هطول المطر . ربما . من يعرف » .

سوى أبى معه التفاصيل الخاصة بالإيجار ثم مضينا إلى الخارج ، ونقلنا معدات الصيد وطعامنا إلى القارب ، ثم تسلقنا حافته ونحن نجاهد ألا تبتل

ملابسنا . ثم دفعت القارب بعيدا عن الشاطىء مستخدما مجدافا ثقيلا من صنع اليد . دار المحرك عند المحاولة الرابعة فوجه أبى القارب ناحية الحافة الطويلة البعيدة المنخفضة من البحيرة . نظرت خلفى فرأيت العجوز فوق المعبر الخشبى يرقبنا . لوحت بيدى إليه فأومأ برأسه إيماءة خفيفة لا يكاد المرء يلحظها . كانت قاعدة القارب العريضة تجعله صعب التوجيه ، كما كان حجمه الكبير لا يتناسب مع قوة محركه الصغير مما قلل من سرعة اندفاعه .

لم نكن قد توغلنا بعيدا فى البحيرة حين رأينا بقعة أعجبتنا بجوار مرتفع صخرى منبسط يبدو ملائما للصيد . لكن المياه كانت عميقة هناك ، ولم تكن سلسلة المرساة طويلة بما يكفى . كانت أرض القارب مغطاة بطبقة رقيقة من الطين المبتل ، أخذت تتدحرج فوقها ثلاث علب للطعم معدنية فارغة ، وتروح جيئة وذهابا تحت أقدامنا . تخلصت منها أخيرا بأن ملأتها بالمياه وألقيت بها لتهبط حثيثا إلى قاع البحيرة . ثم وصلنا إلى مكان آخر أعجبنا ، مياهه ضحلة ، ترتفع منها أعواد نبات الغاب وتطفو على سطحها بين الحين والآخر فقاعات من غاز الميثان . كانت البحيرة عميقة على الجانبين ، مما أضاف إلى جاذبية المكان ، بل وجعله يبشر بصيد وافر .

ربط أبى فى طرف شصه طعما صناعيا من ثلاثة أجزاء بدا كوجه أحمر اللون به عينان سوداوان جاحظتان . حين رفعه فى الهواء ليفحصه ندت عنى ابتسامة عريضة فقد بدا مثل كائنات الفضاء المخيفة كما تصورها المجلات الفكاهية . وجد صعوبة فى البداية فى طرح سنارته على الماء . عند المحاولة الأولى هبطت على بعد ست أقدام فقط من القارب . غلق قائلا : « لم أمارس الصيد منذ زمن طويل » . لكنه استرد إيقاعه السابق أخيرا ، وأخذ يقذف الشص بدقة لمسافات بعيدة . قال : « أجل . هذا أفضل » .

قلت : « إنها أفضل من لا شىء بكل تأكيد » .

– « اسمع نصيحتى يا جيس . لا أحد يحب الأطفال طويلى اللسان » .

مكثنا هناك وقتا طويلا نصطاد دون أن يحالفنا الحظ ، فارتحلنا إلى منطقة أبعد فى البحيرة وتوقفنا عند منحدر طينى حاد . غيّر أبى نوع الطعم

أربع مرات دون أن يشم رائحة أي صيد ، وبعد ما يقرب من الساعة جذب شصه إلى القارب . كنت قد يئست قبله من المحاولة وكففت عن تبديد طعمي من الديدان الحمراء غرقا في الماء ، واسترخيت في كسل مستندا إلى صندوق المحرك الأملس . جذب سلة الطعام وأعد شطيرتين وناولني واحدة ثم نظر إلى السماء . كانت الساعة قد قاربت العاشرة ولا ريب .

قال : « لابد أن أحدا قد أخبر السمك بمقدمنا فأخذ حذره » .

غمغمت موافقا وأنا أمضغ شطيرة محشوة بلحم الخنزير .

قال : « انظر . لقد وجدت زجاجة من النبيذ تركها الخال لودن خلفه . هل ذقت النبيذ من قبل ؟ »

- « لا يا سيدي » . أخرج فتاحة الزجاجات الحلزونية المتصلة بمطواة الجيب التي يحملها ، ونزع السدادة الفلينية وقال : « سأعطيك بعض النبيذ إذا وعدت ألا تخبر أمك » .

تناولت القدح المعدني وذقت الشراب الأحمر اللاذع وقلت : « إنه لذيذ جدا » . لكنني وضعته في سري في نفس قائمة المشروبات الكريهة مع القهوة . لم يكن مذاق هذا النبيذ يشبه من قريب أو بعيد الخمر التي شربناها مع الخال لودن على قمة الجبل .

قال : « أتظن أن بهذه البحيرة أسماكا ؟ » كانت أشعة الشمس أكثر دفئا الآن ، وسكنت حركة الهواء فخلع سترته الفرائية وجعل منها وسادة وضعها بجوار حافة المركب ، وأسند ظهره إليها وأخذ يأكل ويحتسي شرابه .

- « لا أعرف » .

انهمكنا في المضغ والتفكير ثم دخن أبي سيجارة .

قال : « سنحصل على بعض الأسماك » ، ثم قرب طرف سيجارته المشتعل من خيط الشص فوق الطعم فاحترق ، ثم ثبت بأسنانه ثلاث قطع من الرصاص على الخيط والتوت قسمات وجهه حين لامست أسنانه المعدن .

تناول من صندوق المعدات خطافا ذا أسنان مدببة ، وضغط فوقه كرة من لباب خبز شطيرته ، ثم ألقاه إلى المياه الضحلة قريبا منا . هز طرف عود السنارة ثم حركه فى تمهل جيئة وذهابا على حافة القارب . بعد دقائق قليلة جذب السنارة بحدة وأخرج سمكة صغيرة ذات زعانف مدببة . خلصها من الخطاف بحرص وهو يتجنب حوافها الشوكية وضربها بعنف على حافة القارب لتموت . صنع المزيد من كرات اللباب واصطاد أربع سمكات أخرى من نفس النوع .

وضعنا سلة الطعام جانبا ، وغادرنا تلك البقعة وأبحرنا مرة أخرى مسافة أبعد فى اتجاه المنبع . وجدنا قاربا آخر إلى جوار بقعة صخرية على يميننا ، فجعلنا مساحة واسعة بيننا وبينه ، والتزمنا المجرى الرئيسى للبحيرة لم نحد عنه . كان صمام الوقود مفتوحا على آخره والمحرك يدور بأقصى طاقته ورغم ذلك لم يندفع القارب بسرعة كبيرة . كانت المياه تلطمه على الجانبين ثم تنحسر مبتعدة وكأنها قفاز من المطاط ينسلت منه ، أما فى الخلف فكانت ترسم مثلثا طويلا حادا عريض القاعدة يتبعنا دائما . كان سطحه يبدو أملس ناعما للحظة ، ثم لا يلبث أن يطوى حافتيه إلى الداخل ويمتصهما إلى الأعماق تحت سطح مزركش فكأنه يلتهم نفسه بنفسه . ابتعدنا عن القارب الآخر حتى غاب عن أبصارنا وعرجنا إلى خليج ضيق تغطى الرمال شاطئيه الطويلين المتوازيين وتظلله أشجار الصنوبر الصغيرة التى تنمو على جانبيه . أوقفنا المحرك وقذفنا المرساة إلى الماء . كانت عبارة عن مثقالين مما يستخدم فى رفع النوافذ ثبتا معا بسلك . تناول أبى واحدة من الأسماك الصغيرة التى اصطادها وبدأ يقتلع عينيها بسكينه .

صحت : « أوف ! ما هذا ! ما الذى يدفعك إلى هذا ؟ »

- « ألا تريد أن تصطاد بعض الأسماك ؟ »

- « أوف . لا أعرف » .

- قال : « احتفظ باشمئزازك لنفسك يا جيسى » . ثم تناول صندوق ثقاب

صغير ووضع فيه تسعا من العيون التى اقتلعها . كانت العاشرة قد تحولت إلى كتلة هلامية وهو يحاول نزعها . بدت الأسماك بدون عيونها غبية بلهاء . ألقى بها جانبا على الرمال ثم ثبت خطافا أكبر بخيط السنارة ووضع إحدى العيون فوق طرفه المدبب ، ثم طوح السنارة إلى الأمام فى قوس بحذاء الشاطىء . راقبت العملية كلها وأنا أشعر بالقلق وعدم الارتياح .

فى الرمية الثالثة أصاب صيدا ثمينا فجذب الشص سريعا ليثبته فى حلق السمكة ، ثم بدأ يدير البكرة ليجذب الخيط . ارتفعت السمكة فى الهواء لامعة تنثر رذاذا كثيفا من الماء فى الضوء الباهر حولها ، ثم هوت إلى الماء فانطفأت لحظة التوهج فجأة . كانت سمكة قاروص جميلة . تركها تلهو فى الماء فترة قصيرة ، ثم جذبها إلى جوار القارب والتقطها بشبكة صغيرة . كان لها فم صغير ، يشى تعبيره بالذهول ، غاص فيه الشص إلى أعماق الحلق وكاد يبلغ البطن . استغرق أبى وقتا طويلا فى إخراجه وهو يغمغم أنه أكبر حجما مما ينبغى . كان طولها يزيد على القدم بقليل .

قال : « أرأيت ؟ الآن قد تأكدنا من وجود الأسماك هنا » .

كنت قد شرعت فى تثبيت شص بطرف خيط سنارتى . قلت : « دعنى أجرب هذا الطعم » .

ابتسم ابتسامة عريضة وناولنى علبة الثقاب وهو يقول : « ألا تشعر بالذنب والاشمئزاز لأنك ستستخدم هذه العيون فى الصيد ؟ »

قلت وأنا أزرعينى لأثبت إحدى العينين على الشص : « بل أشعر بالسعادة . بالسعادة التامة » .

خلال نصف ساعة اصطدنا ست سمكات عدا الأولى ، وكنت أشعر ببعض الضيق والحنق لأننى أضعت سمكتين كبيرتين بسبب لهفتى واضطرابى . لكننى كنت راضيا رغم ذلك فقد كان كل السمك الذى اصطدناه فى حجم السمكة الأولى .

ثم نفد الطعم .

سألته : « ما رأيك أن نرسو على الشاطىء ونصطاد بعض السمك الصغير لنستخدمه طعما ؟ »

قال أبى : « قد لا نكون فى حاجة إلى هذا . ربما يكون السمك قد تذكر الآن كيف يبتلع الشص . من المحتمل أننا علمناه الآن مايجب أن يفعله » . تخلص من الشص الخاوى وربط الطعم الصناعى الذى يشبه سكان كوكب المريخ فى طرف سنارته . راقبته باهتمام لبضع دقائق ، ثم استدرت إلى سلة الطعام وتناولت منها رجل دجاجة . كان النهار قد انتصف تقريبا .

قلت : « نسينا أن نحضر بعض الجبن ».

قال : « ومن يريد الجبن ؟ إنه يصيب الإنسان بالإمساك ».

طوح سنارته فى هدوء لمسافة ثلاثين قدما ناحية المجرى الرئيسى ، ثم بدأ يجذبها . تردد لحظة وكأن الخيط قد اشتبك فى شىء ، ثم جذب القضيب بعنف فغاص الشص فى حلق الفريسة . وفى لحظة بدا وكأن قوس قزح قد أشرق على الجانب الأيسر من القارب : كانت سمكة كبيرة تهتز فى الهواء بعنف وتحاول بكل قواها أن تتخلص من الأسر . أخذ أبى يجذب الخيط بسرعة على البكرة ، وأصبح الخيط مشدودا ، ثابتا ، ثقيلا ، متوترا . انعكست الشمس صفراء ذهبية على صفحة البحيرة المتماوجة ، يقطعها الخيط الأخضر الضارب للزرقة المشدود بصورة دائمة . أمضى ما يقرب من ثلاث دقائق يلهو بالسمكة قبل أن يلتقطها ويقتلها . كانت صيدا فاخرا فقد بلغ طولها حوالى ثمانى عشرة بوصة .

قلت : « إنها رائعة » .

– « هل نحتفظ بها أم نعيدها إلى الماء ؟ »

– « لقد ماتت . كيف تعيدها الى الماء ؟ إنها حقا رائعة » .

غمس يديه فى البحيرة ثم مسحهما على صدر قميصه القطنى الأزرق ، وتناول جناح دجاجة من السلة وأخذ يقضمه وهو يرشف من زجاجة النبيذ .

« هل تريد المزيد من الخمر ؟ »

قلت : « كلا شكرا . إننى أشرب هذا الشاى المثلج » كفانى ما شربته من ذلك النبيذ !

رفع المرساة من الماء وجدف فى اتجاه الشاطىء الرملى بأحد المجاديف الخشنة وأرسى القارب على حافته ، وغرس مقبض المجداف على عمق قدمين فى الرمال ، ولف حوله سلسلة المرساة . انتهيت من رجل الدجاجة وقذفت العظمة إلى الماء وتسلقت خارج القارب إلى الشاطىء ووقفت مترنحا .

انهمك أبى فى جمع الأخشاب الجافة التى تلقيها المياه إلى الشاطىء ، وسرعان ما أوقد نارا . ثم عاد إلى القارب ، وبدأ فى تنظيف الأسماك . قال : « لقد أصدرت أمك أوامر مشددة بهذا ». كان يغرس النصل فى ضربات عصبية مرتبكة ، ثم يجريه من الظهر إلى الخياشيم ، ويخترق عضلات الحلق وجلده السميك إلى البطن ليكشط جدرانها ويخرج الأمعاء . قال : « انظر . إنها أم . علينا من الآن ألا نشير إلى هذه السمكة الكبيرة بضمير المذكر » . ثم أرانى عنقودا طويلا من البيض .

قلت : « ألق به إلى الماء . ربما يفقس البيض » .

قال : « سيفقس إذا رقدت عليه » .

مرر حبلا خلال أفواه الأسماك وخياشيمها ، ثم ربطه إلى حلقة فى مقدمة القارب وتركها تغتسل فى المياه . عاد إلى الشاطىء وجمع المزيد من خشب الوقود ، وجلس إلى جوار اللهب الضئيل يدخن سيجارة ويسحب أنفاسها عميقا ، نادانى قائلا : « جيس . أحضر سترتى وما بقى من تلك الزجاجة » . أحضرتهما فجعل من السترة وسادة ، ورقد على جانبه مستندا إليها ، وأخذ يدخن ويحتسى النبيذ . كانت الشمس بيضاء خاملة .

* * *

برد الجو ونشطت الريح مرة أخرى فأيقظتنى لذعاتها الحادة . اختفت الشمس خلف سحابة رمادية طويلة معتمة ، فلم أتبين الوقت لكننى خمنت أنه

حوالى الرابعة بعد الظهر . كان أبى مستغرقا فى قيلولته متدثرا بسترته الضخمة من الصوف وفرو الغنم ، ولم يبق من النار سوى الرماد وبعض أطراف الأغصان الجافة . ذرعت الرمال الخشنة جيئة ورواحا وأنا أتأمل الجو ، وأنظر إلى الشمال حيث استدارت سلسلة السحب الداكنة ، وتجمعت فى شكل سهل سماوى معشب يموج بزغب الأوز . ثم توجهت إلى أبى وجذبته مرارا من قميصه عند المرفق . قلت : « لقد غامت السماء وأظلمت » .

هب واقفا وجال ببصره فى السماء قال : « يحسن بنا أن نعود » . ثم أهال بقدمه الرمال فوق الرماد البارد .

قلت : « الجو بارد » .

ركبنا القارب وخرجنا إلى المجرى الرئيسى . ذرع ببصره البحيرة وكأنه لا يعرف يقينا أى اتجاه يسلك .

أبحرنا فى اتجاه الجنوب الغربى تحت سماء تزداد ظلاما فى كل لحظة . تخبط القارب الثقيل وهو يشق طريقه حثيثا وسط الأمواج العالية التى أهاجتها الرياح ، وتسللت إلى أنوفنا عبر المياه رائحة الطحالب الباردة وأشجار الصنوبر الغارقة فى الظلام . قطعنا مسافة طويلة .

قال : « انتظر لحظة . أظن أننا قد عبرنا المنعطف الذى نقصده وخلفناه وراءنا » .

استدار بالقارب عائدا واتجه بنا صوبه ، لكنه لم يكن سوى خليج مستطيل ضيق تحفه الصخور ، ويشبه صناديق الأحذية ، فاستدرنا خارجين منه .

قال أبى : « سنبحر قريبا من الشاطىء فى طريق العودة . سيمكننا هذا من رؤية نهاية معظم هذه الخلجان الصغيرة » .

قلت : « الأفضل أن نجده سريعا » .

ترامى إلى سمعنا دبيب المطر من الطرف الشمالى للبحيرة ، فكأنه

صوت صحف تُفرد صفحاتها . قلت : « ليتنا أحضرنا معاطفنا الواقية من المطر ! »

قال : « ليتنا أحضرنا شعلات الاستغاثة . إنها ما نحتاجه حقا » .

كان المطر فوقنا الآن ، ينهمر باردا كالثلج ويغطى سطح البحيرة بطبقة من الزبد الرمادى . بدا التيار أشد اندفاعا والأمواج أقل ارتفاعا ، فصحت : « لابد أننا اقتربنا من السد » . ورغم قعقعة الأمطار الرمادية المنهمرة التقطت أذناى هدير الأمواج عند السد . كان هديرا قويا مستمرا كصوت أشجار تتهاوى . استدرنا بالقارب وتراجعنا إلى الخلف ، وسرنا بحذاء الشاطئ الأيمن قريبين منه .

قال أبى : « لقد توغلنا بعيدا أكثر مما ينبغى » .

كانت الأمطار قد بللتنا تماما ، فأخذنا نرتعد من البرد بينما تحول الطين المبتل على أرض القارب إلى وحل لزج . لم أكن قد رأيت أبى فى مثل هذه الحالة المزرية من قبل لكننى لم أشعر بأى رغبة فى السخرية منه فى تلك اللحظة . كانت قطرات المطر تئز وتتقافز فوق سطح المحرك الساخن ، وكنا نجاهد لنزيح المياه المنهمرة عن أعيننا .

أخيرا عثرنا على المكان المنشود ، ورسونا بالقارب على الشاطىء وربطناه . التقط أبى صندوق معدات الصيد بينما حملت السنانير والأسماك التى اصطدناها . تركنا ما تبقى من متاع خلفنا ، وقطعنا الجسر الخشبى جريا إلى الكوخ الصغير القابع فوق قوائمه الخشبية وسط المياه .

ما أن دلفنا إليه حتى شعرنا بالحرارة الشديدة والاختناق ، فألقينا بما نحمله إلى الأرض ونزعنا سترتينا . ذهبنا إلى حيث يقف الأحدب ضئيل الجسم إلى جوار الموقد الرائع الذى توهج فى أماكن عدة بلون الكهرمان ، وتحلقنا جميعا حوله . بدت عينا الرجل أقل لمعانا وأكثر صفرة فى ضوء المصباح الكولمان المعلق من عارضة خشبية فوقنا ، والذى كان يصدر أزيزا متحشرجا . كان يقف وقد عقد يديه أمامه .

قال : « لقد قلت لكما إنه من المحتمل أن تسقط بعض الأمطار » .

قال أبى : « وقد صح توقعك تماما » .

سألت : « كم الساعة الآن ؟ »

جذب ساعة مستديرة من صدر سترته وفتحها : « لقد جاوزت الساعة بخمس وعشرين دقيقة » .

– « الساعة الرابعة ؟ »

قال : « الخامسة » . ثم أعاد الساعة إلى مكانها فى حركة هادئة لا مبالية .

أخذ المطر يقرع سقف الكوخ وحائطه الشمالى ، وحملق العجوز فينا ونحن نرتعد من البرد ، ثم استدار بسرعة وكأنه قد اتخذ قرارا مفاجئا ، واتجه إلى كومة من الأجولة الفارغة بجوار الحائط ، وأخذ ينقب داخلها ثم عاد إلى مكانه بجوار الموقد ، وقد حمل فى يده قنينة كبيرة امتلأت إلى نصفها بسائل شفاف مثل المياه . قال : « هاكما . قد يساعدكما هذا بعض الشىء على التخلص من الصقيع الذى تسلل إلى عظامكما » .

نظر أبى إلى القنينة وسأله : « وما هذا الشراب إذن ؟ » أجاب العجوز بأن رفع غطاء القنينة وفتحها ، وتناول منها جرعة كبيرة ثم ناولها لأبى . تلوثت شفتاه حيث شرب ببقعة من سائل بنى غليظ .. رفع أبى القنينة إلى ضوء المصباح ونظر خلالها ثم قال : « حسن . فى صحتك » ، وشرب ثم استدار إلىّ وقال : « لا أستطيع أن أعطيك شيئا من هذا الشراب ياجيس . ستسلخنى أمك لو فعلت » .

قلت : « لا بأس عليك . أنا بخير » . كنت على ثقة أن مذاقه لن يقل سوءا عن مذاق النبيذ أو القهوة .

رشف رشفة أخرى ثم ابتسم وارتجف جسده وأعاد الزجاجة للعجوز وقال : « لا بأس به على الإطلاق » .

قال العجوز : « إنه مشروب جيد فى تقديرى » ، وتناول جرعة أخرى دامت طويلا ، ثم أضاف : « هذا طبعا رغم أننى لا أعرف من صنعه أو كيف وجد طريقه إلى هذا الكوخ » . وناول أبى الزجاجة مرة أخرى .

قال أبى : « لابد أن بعض الصيادين الذين يمرون من هنا قد تركوه خلفهم سهوا » . ثم أخذ رشفة صغيرة وأعاد الزجاجة إلى العجوز قائلا : « شكرا » .

تناول العجوز رشفة أخيرة ، ثم وضع الغطاء على الفوهة وأحكم تثبيته ، ووضع القنينة على رف متمايل بعيدا عن الموقد .

سأله أبى : « إلى متى سيستمر المطر فيما تعتقد ؟ »

حك الرجل خصلة مشعثة من الشعر الأبيض فوق أذنه اليسرى ، ورفع إحدى حمالتى سرواله وقال : « من الصعب التكهن بهذا . من يدرى ؟ لن يستمر المطر الغزير لفترة طويلة ، لكن الأمطار الخفيفة قد تستمر لمدة يومين أو ثلاثة » .

قلت : « إننى جوعان » .

قال أبى : « هذا من سوء حظك ياجيس . إن طعامنا فى الخارج يتحلل تحت الأمطار » .

قال العجوز : « ليس بالكوخ شىء يؤكل سوى بعض الخبز الجاف ووعاء من الدهن » .

قلت : « لدينا أسماك » .

قال أبى : « حقا . لقد أصبت . لقد اصطدنا بعض الأسماك » .

شرعنا فى العمل لإعداد الطعام . حمل العجوز السمكات الثمانى إلى أحد الأركان ، وأخذ ينظفها بسكين نصله كنصل المنشار ، بينما أزاح أبى غطاء وعاء الدهن . كان لون الدهن رماديا متسخا فأعمل فيه أبى مطواة

جيبه ، وأخذ يزيل الطبقة الرمادية حتى وصل إلى جزء أبيض إلى حد ما ، فاقتطع منه بضعة مكعبات ووضعها داخل غطاء الوعاء المقلوب . عاد العجوز بالأسماك وقد نظفها تماما من قشورها فى وقت لا يكاد يذكر ، فنظر إليها أبى وقال : « فلنعلقها خارج الكوخ تحت المطر بضع دقائق ، إنه ينهمر غزيرا بما يكفى لتنظيفها » . رفعت شرائح الخبز التى وضعناها على الموقد لتتحمص ويحمر لونها . جذبتها بسرعة بيدى العارية وألقيت بها داخل حقيبة ورقية ، ثم انهلت بقبضتى عليها لأسحقها . وضع أبى المزيد من أخشاب الوقود فى خزان الموقد ، ووضع فوقه غطاء وعاء الدهن المعدنى وداخله مكعبات الدهن ، فقد كان هذا الغطاء مقلاتنا . أحضرنا الأسماك من الخارج حيث غسلها المطر ودفسناها داخل الحقيبة الورقية حيث الخبز المجروش وهززناها بعنف . كان الدهن قد ذاب فوق الموقد وأخذ يفرقع ويطشطش فوضعنا فيه الأسماك . ملأ صوت القلى الكوخ بأزيزه وطقطقاته ، وكانت رائحته غريبة ، شحمية ورائعة . بعد ذلك أخذنا نصنع على مهل بعض العصى الصغيرة المدببة لنستخدمها فى رفع الأسماك من المقلاة .

لم نتحدث كثيرا أثناء الأكل . تناول أبى والعجوز الويسكى مع الطعام ، أما أنا فكان علىّ أن أقنع بماء المطر الذى أحضرته من دلو بالخارج . لم يضايقنى هذا .

سألنى أبى : « كيف حالك الآن ياجيس ؟ أما زلت تشعر بالجوع ؟ »

قلت : « أنا على ما يرام ولم أعد جوعانا بكل تأكيد » .

رمقنى العجوز بنظرة جانبية .. كنا ثلاثتنا نفترش الأرض متربعين وقد أسندت ظهرى وكذلك أبى إلى كومة أجولة الجوت الفارغة التى غطتها الآن قشور الأسماك . كانت أمواج البحيرة تتقافز وتتلاطم تحت أرض الكوخ ، بينما أخذ المطر يصطدم به فى هبات عشوائية . كان أحد الجدران قد تحول إلى اللون الأسود فى الأجزاء التى نفذت داخلها مياه الأمطار .

قدم أبى إلى العجوز سيجارة من نوع « الجمل » فقبلها بلهفة وقال :

« ستكون هذه أول سيجارة جاهزة أدخنها منذ أسبوعين » . ونفض بإبهامه القوى اللسان الورقى الأصفر المتصل بكيس من أكياس التبغ يتدلى من جيب فى صدر سترته . أشعل أحد أعواد ثقاب المطبخ بظفر إبهامه ، وأمسك بالسيجارة بطريقة رجل تعود على لف سجائره بنفسه ، فضغطها بشدة بين الإبهام والسبابة حيث يلتصق الورق كما اعتاد أن يفعل مع السجائر المنزلية التى يستخدم لعابه فى لصقها ، ويخشى ألا يكون اللصق محكما . سأل أبى : « إنك رجل متعلم . أليس كذلك ؟ » نطق كلمة متعلم بلهجة غير المتعلمين .

هز أبى كتفيه وقال : « لقد ذهبت إلى المدرسة إذا كان هذا ما تعنيه . لكننى لا أعرف إلى أى مدى يجعلنى هذا رجلا متعلما » .

قال العجوز : « أجل . كنت واثقا أنك رجل متعلم . أستطيع أن أخمن نوعية الشخص من سلوكه . حينما جئتما ـ أنتما مثلا ـ هذا الصباح لاستئجار قارب لم تتصرفا وكأنكما من علية القوم .. وكأنكما تمتلكان الأرض وما عليها . وهكذا أدركت أنكما متعلمان . سأعطيكما مثالا . منذ أسبوع فقط أو ما يقرب من أسبوع جاء إلى هنا رجل يحيط نفسه بهالة من الأهمية كأهل الشمال أصحاب النفوذ . كان يقود عربة كبيرة فارهة فى لون الربسوس . جلس داخلها على الشاطىء هناك وأخذ يطلق بوقها عاليا . قلت لنفسى حين سمعته : « فلتطلق البوق حتى تسقط مؤخرتك من طول جلستك فلن أذهب إليك هناك » . أطلق البوق مرة ثانية ثم رابعة وخامسة ، لكننى قلت فى نفسى ، إذا كنت ترغب فى قارب أيها السيد فعليك أن تأتى إلى هنا على قدميك وتطلبه . لست عبدا لك ولا لأحد سواك . وفى النهاية اضطر إلى المجىء بنفسه سيرا على الأقدام ، ودخل إلى هنا . يا آلهى ! لم أسمع فى حياتى أحدا يتحدث بمثل هذه الصلافة وتلك التعالى . لم أجد أمامى سوى التظاهر بالصمم . قال : « هل تؤجر القوارب هنا ؟ » مضيت أتظاهر بأننى لم أسمع ما قاله فأجبت : « لقد سمعت أنها ذهبت إلى المستشفى الذى يقع على الطريق إلى مدينة سيدرافيل » . قال : « هل تؤجر القوارب هنا ؟ » فقلت : « سمعت أنها تعانى من بعض المتاعب النسائية » ، ثم سألته : « أأنت المحصل ؟ » فاحمر وجهه وغدا فى لون البنجر . قال فى صوت منخفض لا تكاد تسمعه :

يالك من عجوز أحمق أصم ! ثم أضاف : ماذا بك ؟ ألا تسمعنى ؟ » توقف الرجل فى حديثه ، وغمز لنا بعينه غمزة أربكتنا ، ثم أخرج النصل المشرشر الذى استخدمه من قبل فى تنظيف السمك ، وأمسك به فى يده فى هدوء واسترخاء . قال : « لم أقل شيئا على الفور . فقط أبرزت سكين التنظيف القديم هذا وأمسكته هكذا بخفة وقلت له : اسمع يا سيد . قد أكون عجوزا أحمق وأصم لكننى سأجعل زوجتك أرملة سعيدة إذا لم تسرع بالخروج من هنا فى التو . لم ينطق بكلمة واحدة بل أدار ظهره إلىّ وخرج . ساعتها قلت لنفسى : ليس إلا رجلا عاديا مثلى . رجل جاهل لا يعرف شيئا . حالفه الحظ فكون ثروة فى لحظة ما من حياته لكنه لم يكن أفضل منى فى البداية . هل تفهم الآن كيف أدركت أنكما متعلمان ؟ »

قال أبى : « ليس التعليم مقصورا على المدارس . هناك أنواع أخرى » ، وكان صوته يشى بالحكمة والإعجاب وشىء من الحزن .

لم يبد على العجوز أنه سمعه ، فقد مضى فى حديثه . قال إنه كان مزارعا فى يوم من الأيام يمتلك مزرعة تربو على الستين فدانا ، وكان يزرع القطن والتبغ والفول السودانى وبعض الخضراوات التى يبيعها فى السوق . كانت زوجته امرأة طيبة أنجبت له أربعة أطفال ، لكنهم ماتوا جميعا قبل أن يتم أكبرهم عامه العاشر . قال : « أعتقد أن موتهم تسبب فى وفاة زوجتى فى النهاية . هدتها الأحزان المتوالية وأصابتها بنوع من الخلل العصبى » . مكثت فى المستشفى ثلاث سنوات . « بذل الأطباء أقصى ما لديهم لعلاجها ولكن دون فائدة » . انتهى الأمر بموتها . لم يكن قد رأى أحدا من قبل فى مثل هذا الشحوب . بعد ذلك لم يدر ماذا حدث بالضبط . أنفق كل مالديه من مال وكل ما استطاع أن يحصل عليه لدفع تكاليف المستشفى والأطباء . قال : « زهدت فى كل شىء .. أحسست بأنى لم أفعل شيئا طوال هذه السنوات الثلاث سوى اقتلاع الجذور » . انغمس فى الشراب حينذاك ، وكان يشرب كل ما تطوله يداه . قال : « دمرنى الشراب . حطمنى . لكننى أيها الصديقان كنت غافلا عن كل شىء . فكرة واحدة كانت تدور برأسى دائما : لو كان فى السماء إله حقا لما عاملنى معاملة لا أرضاها لكلب أجرب ؟ كم من ليال قضيتها آنذاك

مفترشا الحقول تحت الأمطار » . فى نهاية المطاف باع ما تبقى من المزرعة وكان معظمه قد غطته النباتات البرية والأعشاب . ألحقه زوج أخته بوظيفته الحالية . قال : « إنها وظيفة لا تصلح لرجل لكن هذا لا يهمنى ، فلم أعد أيها الصديقان رجلا . لقد نبذتنى الأقدار ورمتنى كأوراق كيزان الذرة . كل ما أهتم به الآن هو تنظيم مؤنتى . عندى كوخ فى الغابات هناك على بعد ثلاثمائة ياردة ، وسقفه متين محكم وهذا كل ما يعنينى » . تحدث بكل هذا فى صوت حالم دافىء ينبض بالحنين والحب ، وكأنه كان يقص علينا سيرة صديق حميم . كان العجوز يبدو راضيا عن الصورة التى تشكلت فى ذهنه عن حياته ، وكأنها تمثال أثرى عتيق لأحد الآلهة يكمن جماله فى ملامحه التى أتى عليها الزمن .

نظرت إلى أبى . كان يجلس مسترخيا ساكنا وقد رقدت ذراعاه فى حجره مثل عودين من الحطب . أومأ برأسه مرة إيماءة متأنية جادة . كانت الأمطار الغزيرة قد توقفت . سمعنا اصطخاب الموج فى البحيرة ، ورذاذ المطر الخفيف الرتيب ، وصمت أشجار الأرز المبتلة .

قال أبى : « يحسن بنا أن نشرع فى العودة » . ونهض من جلسته بصعوبة وقد تقلصت عضلاته .

استغرق دفع إيجار القارب فترة ، فقد كان العجوز غير راغب فى انصرافنا ، وكان أبى يحاول أن يدفع له أكثر مما طلب . قال : « أرجو أن تعودا يا صديقىّ ، سيكون الصيد أفضل حين يصبح الجو أبرد قليلا » .

قال أبى : « اتفقنا . سنفعل ذلك » .

كانت الأمطار قد حولت شاطىء البحيرة إلى أوحال لزجة انغرست فيها سيارتنا البونتياك ، استغرقنا خمس عشرة دقيقة لنزحزحها من مكانها ، وعملنا فى صمت دون أن ينظر أحد منا إلى الآخر ، وأخيرا أطلقناها .

أخذنا طريق العودة الذى بدا أقصر مما كان عليه حين قطعناه فى الصباح . صدق قول العجوز عن المطر ، فقد ظل يسقط فى قطرات كبيرة

لزجة سرعان ما كانت مسّاحات السيارة تفرشها على الزجاج الأمامى . بدت البيوت والشجيرات الكثيفة المنتثرة على جانبى الطريق غائمة الملامح ضئيلة . انحدرنا وسط التلال ومضينا عبر الوادى الموحش للنهر . بدت مدينة تبتون رمادية تحت الأمطار الرمادية ، وخلت شوارعها من البشر . صعدنا الطريق الترابى إلى المنزل ، وأوقفنا السيارة فى الممر أمامه تحت أشجار البلوط .. مكثنا داخلها . كانت نوافذ المطبخ ترسل نورا أصفر دافئا . جلسنا صامتين ننصت إلى حفيف رذاذ المطر الخفيف فوق سقف السيارة .

ثم أغلق أبى عينيه وضرب عجلة القيادة بأسفل كفه المبسوطة أربع مرات ، وقال : « يا إلهى . يا إلهى . كم أتمنى لو أن جونسون لم يقتل » .

نجمة تتألق فى أمسية صيفية

لم تطلق جدتى فى حياتها ، وفق علمى ، سوى نكتة واحدة هادئة ، ورغم ذلك فقد أذاعها الراديو .

وقد أذاعها الراديو لأنها كانت قد اصطحبت العمة سامانثا بيرفوت إلى محطة الاذاعة لإجراء لقاء إذاعى . كانت العمة سامانثا تتمتع بشهرة واسعة بين سكان الجبال حيث نعيش ، فقد كانت عازفة بارعة على الكمان وآلة البانجو . كانت ابنة عم لجدتى وصديقتها الحميمة منذ الطفولة ، ولذا فمن المرجح أنهما كانتا فى نفس العمر ، لكن العمة « سام » ـ كما كنا نناديها ـ كانت تبدو أصغر سنا . كان شعرها الأشعث الفخارى اللون ينتثر حول وجهها فى رعونة ويزينه شريطان معقودان من الحرير الأزرق يتربعان فوقه وكأنهما فراشتان حطتا فوق سطح منزل مكسو بالقرميد . كان وجهها الذى يغطيه النمش يكاد يخلو من التجاعيد ، وكانت عيناها الزرقاوان المتوثبتان تلتمعان بروح المرح والدعابة الخفيفة . تكوّن لدى انطباع بأنها تهوى الألاعيب والمقالب مثل أبى ، وأن ذلك لا يثير اعتراض الآخرين بل يقبلونه لأن ... لا أدرى .. ربما لأنهم يقبلون أى شىء تفعله .

لكنها ، رغم كل شقاوتها وأحاديثها الجريئة وملابس أهل الفن الغريبة التى ترتديها ، كانت مهذبة وصريحة . لم يخدش براءتها الجوهرية كل ما مر بها من أحداث وتجارب طوال سنىّ تجوالها بفنها وموسيقاها ، كانت كل أقوالها وأفعالها تنبع منها بصورة طبيعية لا تكلف فيها مثل كبرياء القطة ، وتحت سطح عاداتها الصاخبة كانت تمتلك مخزونا من الكبرياء لا ينتمى بأى صلة إلى زهو وخيلاء القطط .

حين جاءت لتقضى معنا فترة ، خرجت من سيارتها الكاديلاك الطويلة الزرقاء زرقة السماء ، وكانت ترتدى جونلة من القطن الأزرق السميك على غرار راعيات البقر ، تتوقف عند منتصف الساق ، وفوقها بلوزة حمراء ، وفى قدميها حذاء برقبة طويلة من طراز أحذية رعاة البقر ، تزينه قطع مدببة من المعدن بصورة دقيقة معقدة . قررت فى نفسى أن أقوم بجولة متأنية حول هذا الحذاء حين تحين الفرصة . اعتلت درجات الشرفة الأمامية بسرعة وخفة مثل فتاة فى سن الحب والغرام ، وطوقت جدتى بذراعيها وضمتها إلى صدرها وصاحت : « آه . ما هذا يا آنى بربرا . لم تكبرى دقيقة منذ سبع سنوات ! إنك تجعليننى أشعر وكأننى شيء بال عليه فأر برى ثم دفنه » .

ضمتها جدتى بدورها إلى صدرها ، وهى تغمغم بعبارات المحبة ، وقد أغلقت عينيها .

بعد ذلك دارت علينا العمة سام واحدا واحدا بالتحية ، فأعلنت أن أمى تبدو كنجمات السينما ولها سمعة طيبة كمدرسة ، وقالت لأبى إنه لولا بخله وطيشه لكان فى غاية الوسامة ، وقالت لى كم هو رائع أننى قرأت هذا العدد الكبير من الكتب ، وأننى سأغدو عالما مشهورا فى يوم من الأيام . قالت : « آه . إننى أشعر بالفخر والزهو حين أراكم جميعا لدرجة تجعلنى أبكى » .

وكانت صادقة ، فقد انبعثت الدموع من عينيها الزرقاوين وترقرقت على وجهها الذى يتسم بشيء من الرجولة ، ويغطيه النمش .

قالت : « عذرا . سأحضر مناديلى الورقية من العربة » ، ثم هبطت درجات السلم إلى الفناء مسرعة فى خفة .

قال أبى : « لا تدعوها تركب السيارة . ستمضى بها وتتركنا » . لكنها لم تفعل . بحثت داخل حقيبة جلدية ضخمة وأخرجت حفنة من المناديل الورقية ، فجففت دموعها وتمخطت بصوت عال صريح ، ثم عادت إلى الشرفة تحمل الحقيبة من سيرها الجلدى المخصص للكتف ، فبدت مثل رجل يحمل دلوا من الماء . قالت : « سأجلس هنا على الفور فى كرسى هزاز . فرؤيتكم جميعا على هذه الصورة الرائعة أهاجت مشاعرى » .

أحضرنا مقعدا هزازا وجلست . بعد ذلك تسابقنا جميعا إلى سؤالها عن أى شىء ترغبه - أى شىء على الإطلاق ... قهوة ، عصير ليمون ، شاى ، إفطار ، غداء أو عشاء . لو كان لدينا صندوق يمتلىء بالجواهر لأفرغناه تحت قدميها . غلبتنى الدهشة وأنا أسمع أبى يعرض عليها أن يحضر لها وسادة .

قالت : « اعلم يا جو روبرت أن عجزى العجوز صلب إلى درجة لا تجعلنى أشعر بقيمة الوسائد » .

آه . كم أحببتها ! لقد قالت بصوت عال أمام الجميع كلمتين لم تكن أمى لترضى أن يخطرا ببالى فى حجرة صغيرة ، ورغم ذلك لم يهتم أحد . استعرضت فى عقلى سريعا قائمة الكلمات المحظور علىّ استخدامها - لا أقل من دستة - وتمنيت أن تنطق بها جميعا - كلمة كلمة - قبل رحيلها . وإذا استمرت على معدلها الحالى فلن يستغرق الأمر فى الواقع عشر دقائق .

قالت جدتى : « والآن حدثينا عن كل أخبارك يا سام » .

قالت : « لقد جئت لأعرف أخباركم لا لأضجركم بأخبارى » .

قال أبى : « تضجريننا ؟ لماذا إذن تكبدنا تكاليف مجيئك إلينا ؟ »

ضحكت ضحكة خفيفة ، وغمزت بعينها لأمى وقالت : « ألم أقل إنه بخيل وطائش ؟ أراهن أنه يبقيك على أطراف أصابعك ، ولا يدع لك فرصة للراحة والاسترخاء » .

قال أبى : « إن ما يشغلنى بالدرجة الأولى هو إبقاؤها على ظهرها » .

كانت جملة ناشزة فى غير موضعها جعلت أمى وجدتى توجهان إليه نظرات لائمة مؤنبة . لكنها أدخلت السرور إلى نفس العمة سام ، وجعلتها تضحك بشدة وتخبط ركبتيها . ثم انفجرت فى البكاء مرة أخرى وقالت : « لو كان داندى معنا لقال تعليقا كهذا . يا إلهى . كم أفتقده » . أخرجت من حقيبتها حفنة أخرى من المناديل الورقية ومسحت وجهها العريض .

علمت من أبى فيما بعد أن داندى هذا كان زوجها ، وكان ممثلا هزليا

فى العروض الموسيقية التى تقدم فى الأرياف يذرع خشبة المسرح متخايلا فى سروال واسع تزينه المربعات ، وقبعة قديمة مهترئة . كان دائما يفتتح فقراته التمثيلية بعبارة : « أتتنا أخبار سيئة جدا من مدينة ليمبر عند ملتقى الخطوط الحديدية » ، وكان أفضل مشاهده مشهدا يخلط فيه بين الطبيب البيطرى الذى أتى ليساعد فى ولادة عجل صغير ، وبين الطبيب البشرى الذى أتى للإشراف على ولادة زوجته لطفلهما الأول . بدأ حياته فى مسرح المنوعات والاستعراضات كعازف لآلة البانجو ، وحين فقد أسلوب العزف الذى كان ينتهجه شعبيته بدأ يلقى النكات القديمة والفكاهات البالية التى يحب هواة الموسيقى الريفية سماعها . (سألت : « لماذا لم يلق نكات جديدة ؟ » ـ قال أبى : « إذا كانت النكتة جديدة كيف تعرف أنها مضحكة ؟ إنها لم تضحك أحدا بعد ») ولما كان قدر الممثلين الهزليين عادة أن يُدخلوا السعادة إلى قلوب الجميع ما عدا أنفسهم ، فقد كان « جارنا داندى » ـ وهو اللقب الذى كانوا ينادونه به ـ إنسانا عميق الأحزان أفضى به الاكتئاب فى النهاية إلى الانتحار .

لم يكن موته سوى مصيبة واحدة ضمن مصائب عديدة ألقت بظلالها الكئيبة على حياة العمة سام ، فحين كانت فى السابعة عشرة ، وبينما كانت فى منتصف جولتها الفنية الأولى ، مات أبوها وكذلك أمها وشقيقتها الصغرى فى الحريق الذى شب فى بيت العائلة القديم فى مقاطعة تشيروكى ودمره تماما ، فغدا أثرا بعد عين . أما شقيقها الأصغر الذى نجا من الحريق فقد عاش عامين بعدها فى ألم فظيع حتى أدركته رحمة الله فأراحه الموت من عذابه . وأما الأخ الأكبر ، وكان مفتشا فى القطارات يشرف على الفرامل الإضافية ، فقد أصابه الشلل من جراء حادث قطار . كانت جدتها قد توفيت والعمة سام لم تزل بعد طفلة صغيرة ، أما جدها فقد قتله عيار نارى فى نزاع على الحدود حين كان فى السبعين من عمره .

قال أبى : « ورغم ذلك فقد تحملت كل هذه الشدائد المتوالية بصلابة . انظر إليها . إنها تعرف جيدا كيف تحيا مع مشاعرها ، فإذا شعرت برغبة فى البكاء فإنها تبكى أمام الجميع دون خجل ، ثم تنصرف بعدها إلى شئونها ، وإذا أحست بالرغبة فى الضحك لا تكتمه ولو للحظة » .

ومن حسن الحظ أنها كانت ترغب في الضحك معظم الوقت ، وبعد يوم أو اثنين لاحظت أنها بدأت تمكث على مقربة من أبى وهى تنتظر أن يدلى بملحوظة أو يطلق تعليقا فتنفجر فى عاصفة من الضحك الخالص . كان ذلك يشكل عبئا على أبى ويسبب له بعض التوتر ، فقد كان لا يعد نفسه من أهل الفكاهة أو المضحكين بل كان يرى فى نفسه ناطقا أمينا بحقائق الحياة التى يفضل الآخرون تجاهلها وإغفالها ، وحين كانت فكاهاته تفقد صبغة التهكم والسخرية كانت تجيء سخيفة باهتة . ورغم ذلك كان على استعداد لأن يحاول الترفيه عن العمة سام لكنه كان يفشل فى معظم الأحيان . وحين أدركت هى ما يجرى ابتعدت عنه قليلا فكوفئت بمشاهدته فى سلوكه العادى الذى كان يعد فى حد ذاته عرضا مسليا غير عادى .

وكان سلوك أبى آنذاك يكاد ينحصر فى محاولاته إغاظة العمة سام وتحديها كى تعزف لنا على كمانها أو جيتارها أو آلة البانجو . قال : « أعتقد أنك فقدت لمستك الساحرة ، وكنت طوال السنوات الماضية تخدعين جمهورك من الفلاحين الأغبياء فى حدائق الملاهى ، والحفلات الراقصة التى تقام فى الأسواق والميادين العامة » .

لكنها ظلت صلبة لا تلين . قالت : « لقد قطعت عهدا على نفسى ألا أعزف نغمة واحدة وأنا هنا إلا إذا صاحبتنى فى العزف آنى » .

الأمر إذن يتوقف على جدتى ! أذهلنى هذا الاكتشاف . قلت : « لم أكن أعرف أنها تجيد العزف » .

قالت العمة سام : « لكنها تجيده . حين كنا فتيات كانت تبزنى فى العزف وتدير رأسى » .

قلت : « لم أكن أعلم هذا . لم أسمعها تعزف أبدا » .

قالت العمة سام : « لقد قطعت على نفسها عهدا هى الأخرى منذ زمن طويل . لكن كم أتمنى ياجيس لو أنك كنت معنا فى ذلك الزمان البعيد ورأيتها آنذاك . لقد كانت فى غاية الذكاء والجمال وموهوبة حقا فى الموسيقى

والعزف . كنت دون مبالغة أعبدها ... لكنك طبعا لم تكن قد خطرت على بال أحد آنذاك » .

قال أبى : « ولم يخطر على بال أحد فيما بعد . لقد أتى إلى العالم دون تخطيط ، كإفراز ثانوى لآلية العصر » .

قلت : « لم لا نقنعها بأن تعزف لنا إذن ؟ إننى أود أن أسمعها » .

قالت : « سيكون ذلك أمرا صعبا للغاية . إننى أحاول إقناعها منذ أربعين عاما ويزيد » .

- « ولكن لماذا ترفض أن تعزف ؟ »

- « من الأفضل أن أدعها تخبرك بنفسها ، فلست واثقة أننى أفهم الأمر تماما » .

لكن جدتى رفضت أن تفصح لى بشىء . زمت شفتيها وهزت رأسها وقالت : « إنه عهد قطعته على نفسى ولن أرجع فيه » .

- « أى عهد ؟ »

قالت : « عهد شخصى » .ورفضت أن تتفوه بشىء بعد هذا .

لجأت إلى أمى طلبا للتفسير فأخبرتنى أن الأمر يتعلق بضغينة حملتها جدتى لأبيها طوال هذه السنين . وكان هذا بدوره اكتشافا مذهلا آخر . لقد كان لجدتى أب ! كيف يمكن أن يكون أحد أكبر منها سنا ؟! رأيت فجأة فى مخيلتى صورة عائلتى وقد اصطف أفرادها فى طابور طويل يمتد فى الماضى إلى عهد سيدنا نوح ، وكل منهم يحمل على التوالى وجها أكثر تغضنا وأعمق شبها بملامح عائلة سوريلز . لم تكن صورة تبعث الأمل فى النفس على الإطلاق .

سألت أمى : « ما الذى أغضبها من أبيها إلى هذا الحد ؟ »

قالت : « لقد منعها من مقابلة ملكة انجلترا » .

- « وكيف كانت ستفعل ذلك ؟ »

قالت : « حين كانت فى الرابعة عشرة من عمرها كانت عضوة فى الفرقة الموسيقية التى تصاحب أفضل فرقة رقص شعبى فى الجبال كلها . ودعيت الفرقة للمشاركة فى مهرجان فى اسكتلندا وتقديم عرضها أمام الملكة ، وكان أعضاء الفرقة سيقدمون للملكة بعد ذلك . كانت الرحلة تعنى الكثير بالنسبة لأمى ، وكذلك للجميع . كانت تراها شيئا رائعا أن نحمل موسيقانا ورقصاتنا عبر المحيط لتستمتع بها الملكة . تملكت الرحلة قلبها وحواسها ، بل لقد سمعت العمة « مينى لو » تقول إن جدتك كانت تتدرب أمام المرآة على الانحناء أمام الملكة لساعات طويلة » .

- « ورفض والدها أن يدعها تسافر ؟ »

قالت : « لقد كان جدك الأكبر بيرجاسون رجلا صارما متشددا فى أفكاره . كان محافظا ويخشى أن تقضى بقية حياتها فى الموسيقى والرقص » .

سألتها : « وما عيب ذلك ؟ » حاولت أن أتخيل جدتى تغنى أمام الجماهير ، وهى ترتدى ملابس تشبه ملابس العمة سام ، وتتبل جملها الورعة برشاش من الكلمات الخارجة واللعنات الأنيقة . لكننى سرعان ما تخليت عن هذه المهمة ، فقد بدت فوق حدود خيالى بمئات من السنين الضوئية .

قالت أمى : « أنا شخصيا لا أرى عيبا فى ذلك . لكن الناس فى تلك الأيام كانوا يفكرون بطريقة مختلفة . لقد كان جدى متدينا من الطراز القديم ، واعتقد أن الموسيقى والشهرة ستفسد أخلاق جدتك وستجعلها إنسانة سطحية تافهة مستهترة » . زفرت فى ضيق زفرة تشبه صوت السنجاب ثم قالت : « هل تتصور أن يخطر هذا ببال أحد عن جدتك ؟ »

قلت : « كلا يا سيدتى » . ولم أستطع أن أتصور هذا ، فقد كانت كل أسلاك خيالى قد احترقت تحت وطأة اكتشافات الساعات القليلة الماضية . « ألم يكن فى مقدورها أن تذهب دون إذنه ؟ »

- « لا . لم تكن لتفعل شيئا كهذا . لم تكن لتفعل شيئا دون أن يباركه والدها . وهكذا حلت العمة سامانثا مكانها فى الفرقة » .

- « أقابلت العمة سام ملكة انجلترا ؟ »

- « القصة كما سمعتها تقول إن أمى ابتلعت خيبة أملها ، وبذلت جهدا كبيرا فى تدريب العمة سام على المقطوعات الموسيقية ، وعلمتها كيف تعزف بعض الفقرات الصعبة المعقدة وهلم جرا . كان من الطبيعى والمتوقع أن تنشأ حزازات بين الفتاتين بسبب هذه الرحلة لكن ذلك لم يحدث أبدا » . توقفت فى حديثها ونظرت عبر نافذة المطبخ إلى الخارج حيث كان أحد طيور أبى الحناء ينقر دائرة الأرض الجرداء حول قرمة قطع الأخشاب بحثا عن طعام ، ثم قالت : « ألم تكن جدتك فتاة شجاعة حقا ؟ »

- « كيف كان شكل ملكة انجلترا ؟ ماذا قالت ؟ »

قالت أمى : « عليك أن تسأل العمة سامانثا عن هذا » .

قلت : « سأفعل » .

قالت : « إياك أن تسألها فى حضور جدتك » .

* * *

كان تحذيرا لا داعى له كما علمت من العمة سام ، فحين عادت من المهرجان فى اسكتلندا حكت لجدتى كل شىء مرات ومرات بتفصيل دقيق .

- « كيف كانت ملكة انجلترا ؟ »

قالت : « كانت لطيفة . كانت سيدة لطيفة جدا » .

- « هل كانت ترتدى تاجا كبيرا ؟ »

- « لم تكن ترتدى تاجا على الإطلاق . كانت ترتدى قبعة بيضاء من الطراز الذى يناسب حفلات الحدائق ، تزينها زهور من الحرير ، وكانت ترتدى قفازا أبيض فى يديها » .

- « إذن كيف عرف الناس أنها الملكة دون تاج ؟ »

قالت : « آه . كان من السهل أن تعرف أنها الملكة . لم يكن أحد ليخطئها أبدا » .

- « ماذا قالت لك ؟ »

- « قالت : شكرا لحضورك » .

- « وماذا قالت أيضا ؟ »

- « كان هذا كل ما قالته » .

- « وماذا قلت أنت ؟ »

- « لم أقل شيئا . انحنيت أمامها . علمتنى جدتك كيف أفعل ذلك . تدربنا على هذه الانحناءة حتى اعوجت عظام ركبتى » .

- « ألم تدعك إلى العشاء فى القصر ؟ »

ابتسمت العمة سام وقالت : « كلا . أعتقد أنها ربما أرادت أن تفعل لكنها نسيت .. كنا حشدا كبيرا وكان من العسير إطعامنا جميعا » .

قلت : « كم أتمنى أن أقابلها ! أريد أن أقابل ملكة انجلترا مهما كلفنى ذلك ؟ »

قالت : « ربما تقابلها يوما . سمعت أنها تُولِى العلماء المشهورين اهتماما بالغا . ما عليك إلا أن تنكب على كتبك » .

بدت فكرة معقولة ، فملكة انجلترا لديها دون شك مسئوليات كثيرة لا تدع لها وقتا للقراءة ، لذلك ستكون خطتى أن أقرأ أطول وأصعب كتاب فى العالم ، كتابا لم يقرؤه أحد من قبل ، ثم أذهب إليها لأخبرها بمضمونه . سترحب دون شك بهذه المعلومات .

قلت : « أعتقد أنك لن تنسى أبدا لقاءك بالملكة » .

قالت : « لدى أسباب عديدة تجعلنى لا أنساه » .

* * *

استغرق استجوابى هذا للكبار أربعة أو خمسة أيام بسبب حالة الاضطراب والارتباك التى عمت منزلنا فى تلك الفترة . فقد انتشر خبر وصول العمة سام لزيارتنا ، ولما كانت تتمتع بشهرة محلية فى المنطقة ، فقد تدفق الزوار على بيتنا دون انقطاع . لم أكن قد رأيت مثل هذا الحشد من البشر فى مكان واحد منذ جنازة جدى . كذلك لم يتوقف الهاتف عن الرنين ، فكأن قبيلة صديقات الخال لودن قد اكتشفت رقمه مرة أخرى . لكن أحدا لم يضق بهذه الفوضى ، ولا حتى أبى ، والواقع أننا كنا جميعا نشعر بالفخر والزهو لأن العمة سام قد اختارت أن تأتى إلينا ، فقد كان معروفا لدى الجميع أن لديها العديد من الأصدقاء من ذوى الشأن الذين يقيمون فى مدن أنيقة ، والذين يرحبون بزيارتها فى أى وقت تشاء .

أبدت صبرا جميلا مع كل هذا الحشد من البشر ، وكان معظمهم من الغرباء . بعضهم كانت تعرفهم من الماضى البعيد فتحييهم بحرارة دافقة ، أما الآخرون فكانوا يدعون صلات غامضة واهية ربطتهم بها يوما فلا تنكرها ، لكنها أيضا لا تدعى أنها تذكرها . كانت تقول : « يا إلهى يا عزيزتى [أو يا عزيزى] . أرجو أن تسامحينى . إننى لا أتذكر . لقد أصبحت ذاكرتى العجوز ضعيفة مثل « ريح » الفراشات » .

كان الجميع يطلبون منها بالطبع أن تعزف لنا لحنا قديما أثيرا أو لحنين ، لكنها كانت ترفض دون أن تؤذى مشاعرهم . فإذا ألحوا فى طلبهم كانت تشرح لهم أنها قطعت على نفسها عهدا يتعلق بابنة عمها آنى بربرا وعليهم أن يقبلوا هذا . وكان واضحا للجميع أن العمة سام ليست إنسانة مخادعة ، وأنها لا تضيع وقتها فى اللغو الفارغ .

كثير من الناس أتوا لأنهم استمعوا إليها فى البرنامج الإذاعى الموسيقى الذى كانت تبثه إذاعة مدينة ناشفيل فى ولاية تنيسى . لم أكن قد استمعت إلى هذا البرنامج أبدا ، فقد كان البرنامج الوحيد الذى تحظر جدتى علينا الاستماع إليه . لم أكن قد سألت نفسى من قبل لماذا لا تسمح لنا بسماعه ، أما الآن فقد بدا السبب واضحا . كانت الموسيقى تثير ذكرياتها وتبعث فى خيالها صورا

عما كان يمكن أن يتحقق لها ، وربما أثارت أيضا ضغينتها القديمة ضد والدها . كانت تريد أن تركز كل تفكيرها فى إدارة المزرعة وفى يسوع المسيح ، ونجحت فى تحقيق هذا دون ضجة .. حتى وصلت العمة سام . أما الآن ، وقد جاءت العمة سام ، فكنت تراها أحيانا تقف بعيدا خلف دائرة المعجبين التى تحيط بابنة عمها وتحملق فى الفضاء بنظرة شاردة يشوبها الحزن رغم هدوئها .

من منا يستطيع أن يسبر أغوار الدوافع التى تحرك البشر ؟ إن الناس فى هذا العالم يأتون من الأفعال ما قد يعجز المرء عن تفسيره ، ولو حاول أبد الدهر . ورغم ذلك فقد بدا لى على صغر سنى آنذاك أننى أفهم شيئا من دوافع ما تفعله العمة سام . لقد كانت صداقتها بجدتى دافئة حميمة ، لكنها كانت تشعر بشائبة تعكر صفوها ، بشرخ فى حجم الشعرة لا يمكن لأحد غيرها أن يراه ، إلا أنه يمثل رغم ذلك جرحا قديما غائرا لا يزال يؤلمها ويفصل بينهما . وكانت العمة سام قد عقدت العزم على إصلاح هذا الشرخ الطفيف ليعود للصداقة تماسكها القديم ، وقررت أن الفعل الذى سيحقق هذا الاكتمال ويحمل دلالته هو أن تعود جدتى للعزف مرة أخرى . كان ما تنشده فعلا رمزيا لا أكثر ، لكنها لم تكن لتقبل أقل منه وكان مهما بالنسبة لها .

خيل إلىّ أننى بدأت أفهمها قليلا . لقد كانت العمة سام غنية ومشهورة ، لكنها كانت أيضا وحيدة . كانت تفتقد الحياة العائلية ، ودفعنى هذا الإدراك إلى التفكير فى عائلتى وخفف من ضيقى بها ، ولكنه لم يوفق فى ترويضى تماما على قبول هذه الحقيقة المتعبة المملة . فكرت أنه إذا كان من المحتم أن تكون لى عائلة ، فإننى أفضل عائلة تضم بين أفرادها العمة سام .

جاءتنا ضمن المكالمات التليفونية مكالمة من محطة إذاعية فى مدينة آشفيل . طلبوا من العمة سام أن تحضر إلى الاستديو لإجراء لقاء معها ، فوافقت بشرط أن تصطحب معها بعض الأصدقاء . سألتنا : « هل تودون مشاهدة البث الإذاعى ؟ »

قلت : « أجل » .

وهكذا ركبنا جميعا السيارة الكاديلاك الكبيرة ، وقد ارتدينا أفضل ملابسنا ، واتجهنا إلى محطة « الإذاعة الرائعة لغرب ولاية كارولينا الشمالية » . كان هذا ما يعلنه المذيعون بعد ذكر الحروف الأولى من اسمها ، وكان أبى دائما يترجم هذه الحروف إلى كلمات مغايرة تشكل أسماء جديدة مضحكة .

حين وصلنا إلى محطة الإذاعة اصطحبونا فى جولة قصيرة شاهدنا خلالها صفوفا هائلة من الأزرار والعدادات ومفاتيح التحويل ، وحائطا تغطيه صور المشاهير الذين زاروا الدار ، منهم من كنت أعرفهم ومنهم من لم أسمع بهم من قبل . أشار قائدنا الشاب بفخر إلى مكان فارغ فى الحائط وقال : « هنا سنضع صورة الفنانة سامانثا بيرفوت » . وكان موقعها بين صورة فرقة « أصدقاء السماء الزرقاء » وبين صورة لهنرى والاس .

بعد ذلك قادنا إلى حجرة بها صفان من المقاعد التى تطوى ، وأخبرنا أننا سنجلس فيها ونراقب ما يجرى فى الاستديو عبر نافذة زجاجية كبيرة كاتمة للصوت . قالت العمة سام إن جدتى ستشترك معها فى اللقاء ، وسألتهم إذا كانوا يحتاجون لإجراء اختبار لصوتها . ردت جدتى أنها لا تعرف معنى اختبار الصوت هذا ، لكنهم لن يحتاجوا لإجرائه أيا كان حيث أنها لا تنوى أن تتحدث عبر الأثير .

أعقب ذلك جدل طويل ومتوقع ، لكن العمة سام انتصرت فى النهاية . قالت لجدتى إنها توشك أن تقوم بجولة فنية مع فرقة جديدة ، وأنهم يحتاجون لأكبر قدر من الدعاية الممكنة . قالت إنها تريد من ابنة عمها أن تتحدث عنها فى بضع كلمات بهدف الدعاية المحلية لاستمالة أهل المنطقة فهى لا تريدهم أن يظنوا أنها واحدة من عازفات حى بروكلين فى نيويورك اللاتى يحصلن على كل خبرتهن من الاسطوانات المسجلة . قالت إن حديث جدتى مجرد إجراء عملى لإنجاح المشروع . وحسمت هذه الجملة النقاش ، فقد كانت جدتى تفخر بفطنتها الثاقبة فى الأمور التى تتعلق بالتجارة والمال . ألم تكن دائما

تحصل على أفضل الأسعار كل سبت حين تذهب إلى السوق لشراء حصتنا الأسبوعية المتواضعة من الزبد والبيض ؟

كان الموضوع كله مثيرا للغاية ، ولم تخب توقعاتى إلا فى أمر واحد أصابنى بصدمة قاسية . كان المذيع الذى أجرى اللقاء يدعى ريد باسكوم ، ووجدته رجلا قصيرا بدينا أصلع الرأس بض اليدين ، وكنت قد تخيلته من صوته عبر المذياع فى شكل جون ويسمللر ، بطل أفلام طرزان ، ولكن أكثر تهذيبا وأناقة . ومما زاد الطين بلة أنه عاملنى كطفل وربت على رأسى .

جلسنا فى مقاعدنا وشاهدنا اللقاء عبر النافذة الزجاجية ، واستمعنا إليه من مكبر صوت صغير فى السقف . جرى اللقاء على ما يرام فى معظمه . تقدمت جدتى من الميكروفون فى خطوات عسكرية ، وقد زمت شفتيها وصرت أسنانها وكأنها ستواجه بتر إحدى ساقيها ، وحين قدمها المذيع إلى جمهور المستمعين حيتهم باقتضاب فى نبرات واضحة . كانت كل الأسئلة تقريبا توجه إلى العمة سام ، وانحصرت مهمة جدتى الرئيسية فى الوقوف أمام الميكروفون دون أن يصيبها الإغماء .

وحين شرحت العمة سام للمستمعين أنها جاءت إلى هذه المنطقة لزيارة أقاربها ، وخاصة ابنة عمها آنى بربرا سوريلز ، استدار السيد باسكوم إلى جدتى ووجه إليها سؤالا أو سؤالين تقليديين فأجابت باقتضاب وحسم .

بعد ذلك سألها أى آلة موسيقية تعزف ، فأجابت : « آلة نفخ ، فأنا بوق دعاية لابنة عمى سام » .

كانت هذه نكتتها الوحيدة التى سمعتها منها طوال حياتى . لم يضحك أحد منا ، ولو ضحكة خافتة ، ولا حتى أبى . مازلت أحتفظ فى ذهنى بصورتنا نحن الثلاثة وقد جلسنا فى الحجرة الصغيرة وفغرنا أفواهنا عن آخرها حتى غدت مثل أوعية الفحم . لكنها كانت بالتأكيد صورة رسمها الخيال فيما بعد مصوبا أخطاء الواقع . فالواقع أننا وقتها لم نفتح أفواهنا ، فقد حالت الصدمة دون ذلك .

صاحت العمة سام فى سرور : « هذا وعد منك إذن يا آنى بربرا ، وسوف أتمسك به » .

لم يفهم السيد باسكوم مغزى هذا الحوار فارتبك وبدت عليه الحيرة ، واستدار إلى العمة سام مرة أخرى ليختتم الحديث . مضى اللقاء إلى النهاية فى نعومة ويسر ، باستثناء لحظة حرج واحدة حين قال المذيع إن بعض الناس يدعون أن الموسيقى الشعبية قد تحولت إلى سلعة تجارية بدرجة كبيرة ، وابتعدت بونا شاسعا عن جذورها الريفية القديمة ، فردت عليه العمة سام قائلة إن بعض الناس لا يدركون الفرق بين روث البهائم وعجائن الفطائر .

أعقب ذلك عدد من الملحوظات السريعة ، ثم أشار السيد باسكوم إلى المهندس الإذاعى فانطفأت أنوار اللوحة التى تحمل عبارة « على الهواء » ، ودخل ثلاثتهم إلى الحجرة الصغيرة حيث نجلس وانشغلنا جميعا فى تبادل تحيات الوداع ، ووقعت العمة سام إحدى صورها التى تستخدمها فى الدعاية ، وكانت قد أحضرتها معها ، ثم غادرنا المكان .

فى طريق العودة مضت السيارة حثيثا ، وأخذت العمة سام تدندن بإحدى الأغنيات . كانت سعادتها تشرق من داخلها كأضواء الشموع ، وقالت مرة أخرى : « هذا وعد منك يا آنى بربرا وسوف أتمسك به » .

نظرت جدتى إلى الحقول الخضراء والصفراء التى تنزلق فى نعومة على جانب السيارة مثل مياه جدول رطيب ولم تقل شيئا . أدركنا ، أو أدرك ثلاثة منا حينذاك ، أن نكتتها الأولى كانت أيضا نكتتها الأخيرة .

* * *

لكن العمة سام اعتبرت النكتة وعدا ، ولذا بات لزاما على جدتى أن تعنى به مهما كلفها الأمر ، فقد كان أهون عليها أن تقضم ثعبانا ساما يتلوى من أن تحنث بالعهد . وهكذا ، فى آخر مساء قبل رحيل العمة سام ، تجمعنا كلنا فى الركن المقدس من المنزل - فى غرفة الاستقبال التى تنقصها التهوية .

لم تكن جدتى قد مست بأناملها آلة وترية منذ ما يقرب من الخمسين عاما ، لكنها وافقت أن تصاحب العمة سام بالعزف على البيانو . وكان البيانو فى حالة مزرية ، فلم يكن أحد فى المنزل يستخدمه ، كانت بعض مفاتيحه مكسورة والبعض الآخر به خدوش ، وكانت أنغامها غير مضبوطة ، والأوتار يعلوها الصدأ وتشوب لونها الخضرة ، أما النغمات القليلة التى كانت صحيحة فكان صوتها ضعيفا واهيا فى معظم الحالات .

ورغم ذلك تمت الصفقة ، فجلست جدتى على مقعد العزف المتأرجح المتهاوى ، ووقفت إلى جوارها العمة سام تحمل كمانها ، وبدأت تعزف لحن أغنية « هلموا إلىّ أيتها الفاتنات الرقيقات » . وقع اللحن غريبا على أذنى ولم أستسغه تماما . عزفتا المطلع مرتين ثم انطلقت العمة سام فى الغناء :

« هلموا إلىّ أيتها الفاتنات الرقيقات ..
واحذرن كيف تخطبن ود الرجال ..
فهم مثل نجمة تتألق فى أمسية صيفية ..
ما أن تتبدى فى السماء حتى تختفى .. »

غيّر غناؤها مذاق اللحن تماما ، فقد كان صوتها عميقا ، من طبقة الكونترالتو ، رخيما وكأنه خمر عتقت فى برميل من خشب السنديان حقبا طويلة ، وسخيا مثل قطعة من الديباج غمست فى النبيذ الفاخر وتشربته . بدأت ملامح الأغنية تتضح وتكتسب قوة وتأثيرا ، وفى منتصف إحدى اللوازم الموسيقية المتكررة توقفت العمة سام عن الغناء والعزف ، فلم تزد الموسيقى عن النغمات الايقاعية التى تعزفها جدتى ، رغم المفاتيح الكثيرة الناقصة . استمرت جدتى فى العزف دون تلعثم ، رغم لمسة من تردد وحيرة ، وبدت لى تلك الايقاعات الحزينة المكسورة وكأنها الايقاعات التى تكمن تحت سطح كل الألحان التى سمعها البشر على مر التاريخ ، أو خطرت على بالهم - إيقاعات مرتجفة ، حزينة ، وصامدة . كانت موسيقى كالموسيقى التى تسمعها وسط حشائش الخريف على جانب التل حين تداعبها النسمات الباردة . ثم استأنفت العمة سام عزفها وغناءها مرة أخرى ، وانتهت الأغنية لكن عذوبتها ظلت تتردد بعد أن سكنت الأوتار .

لفنا الصمت برهة طالت .

ثم جاءت اللحظة اللعينة . قال أبى : « لا بأس . لقد اخترتما هذه الأغنية أما أنا فأريد أن أسمع أغنية « أوراق الغار الخضراء » وسأطلب من جيس أن يغنيها لنا .. بها مقطع أحبه كثيرا » .

قاومت اقتراحه هذا بعنف مثل كلب هائج ، ولكن دون فائدة . لم يكن هناك مفر من الوقوف وسط الحجرة والغناء ، ففعلت . ثبت عينى على طرف حذائى البالى المتآكل ، ولم يفدنى هذا بشىء ، لكنه كان أفضل على أى حال من المنظر المحرج الذى كان سيواجهنى إذا رفعت عينى ، إذ كنت سأرى جدتى والعمة سام وقد تشابكت أيديهما مثل فتيات المدارس ، وأخذتا تنصتان إلىّ فى نشوة ملائكية .

حرصت على غناء المقطع الذى يريده أبى :

« تساءلت كثيرا لماذا تهوى النساء الرجال ..
لكننى تساءلت أكثر كيف يمكن لأى رجل أن يهوى امرأة ..
فالمرأة تدمر الرجل وتهوى به إلى الحضيض فى لحظة ..
وتدفع به إلى الأشغال الشاقة خلف الجدران الحجرية » .

كان وجهى ملتهبا مثل نجم مذنب يحترق ، وجعلت أغمغم الكلمات فى صوت متحشرج مختنق . لم أكن أجيد الغناء آنذاك وما زلت لا أجيده الآن . لو كنت أستطيع الغناء - وأعنى بالغناء أن يتحمل إنسان آخر سماع صوتى - لما جلست إلى مكتبى لأكتب هذه القصة التى حدثت منذ زمن بعيد .

هيلين

خيل إلىّ أننا كنا أربعة فى كوخ من أكواخ الصيد أعلى جبل على مقربة من حدود ولاية تنيسى : الخال لودن وجونسون جبيش وأبى وأنا . وخيل إلىّ أن الثلج بدأ يتساقط فى اليوم التالى لوصولنا . قبل الغروب رأيت ندفه الصغيرة الحادة كرقائق الورق تتساقط فى دوائر حلزونية مضطربة . لم نتوقع أن يستمر طويلا ، لكننا حين صحونا فى باكر صباح اليوم الثالث وجدناه يغطى الأرض بطبقة من الزغب الأبيض ، يزيد سمكها عن القدم شكلتها الرياح الجبلية فى صورة أمواج . قررنا أن نؤجل صيد الظباء حتى يتحسن الجو ، لكن الثلج لم ينقطع .

أمضينا الوقت نتسلى بلعب الورق والأكل ، واحتسى الآخرون بعض الويسكى ، أما أنا فلم أفعل لصغر سنى . لم نكن نشعر بالقلق ، ولكن حين حل مساء ذلك اليوم بدأنا نشعر بقيد المكان وكأننا قد أصبحنا سجناء الكوخ ، واكتسى سلوكنا مسحة من الرقة ، فوجود أربعتنا فى هذا الحيز الضيق يمكن أن يتحول إلى شىء مزعج إذا تخلينا عن الكياسة .

فى تلك الليلة سهرنا حتى وقت متأخر ، وقطعنا الوقت فى تبادل الأكاذيب والنكات حول الصيد والسيارات والألعاب الرياضية . كان الآخرون يحتسون الويسكى على فترات متقاربة ، واكتسى حديثهم إيقاعا متراخيا دافئا تقطعه فترات طويلة من الصمت .

بدأت أشعر بشىء من الغربة وسطهم ، كانوا يتحدثون عن أشياء لا أعرفها ، وبدا لى أنهم على استعداد لشرحها لى لو سألت ، لكننى لم أعرف ماذا أسأل . لو كانوا قد تحدثوا عن النساء لطرحت عددا من الأسئلة ، لكنهم

لم يتطرقوا إلى هذا الموضوع بتاتا .. ووجدت هذا غريبا . ربما تجنبوه مراعاة لصغر سنى . ولكن لا . لم يكن هذا الاعتبار هو السبب .

بعد منتصف الليل طالت مساحات الصمت وتعمق الإحساس بالخمول والنعاس اللذيذ . خفتت ألسنة النار وخمدت ، فغدت جمرات حمراء وبرتقالية . قرروا حينذاك أن وقت النوم قد حان ، ورغم أننى كنت فى شدة اليقظة لم أعترض . نزعت حذائى الطويل العنق الذى انحل رباطه ، وخلعت قميصى وسروالى الثقيل ، وتسلقت إلى فراشى أعلى صف من الأسرة المرصوصة على الجانبين . رقدت فيه وقد عقدت يدى خلف رأسى وأخذت أحملق فى سقف الكوخ الذى لم أستطع أن أميز من ملامحه فى الظلام سوى حواف ألواحه الخشبية ، والعقد الداكنة التى تزين خشب الصنوبر . سمعت الريح تذرو حبيبات الثلج الجافة ، وتطوحها عبر أغصان أشجار البلوط والغار .

استغرقهم النوم واحدا تلو الآخر ، وانتظم تنفسهم وهدأ وخفت صوته . كنت أسمع بين الحين والآخر أحدهم يتحرك فى فراشه وكأنه قطعة خشب مشتعلة تتحرك من مكانها فى نيران معسكر . رقدت أفكر فى أشياء كثيرة ، لكن الشتاء لم يخطر على بالى . كان رأسى يمتلىء بضوء الصيف الساطع ، وروائح عشبه وعرقه وغبار طرقاته . فكرت قليلا فى الهدف من رحلتنا . ترى كيف يشعر المرء حين يقتل ظبيا ؟

انقطع حبل أفكارى حين سمعت جونسون جيبس الذى كان يرقد فى الفراش الأسفل يتكلم فى نومه . لم أتبين الكلمة فى المرة الأولى . لكنه تكلم مرة أخرى . كان صوته مكتوما يثقله النوم ، ورغم ذلك كان واضح النبرات . فى ظلام الحجرة المشوب بالحمرة قال : « هيلين » . لم يزد شيئا عن ذلك ، لكن الكوخ ساده الآن صمت حقيقى . لم يتحرك أحد فى فراشه ، أو يصدر غطيطا ولو كان خفيفا ، وأدركت أننى كتمت أنفاسى منذ أن تكلم .. أخرجتها فى هدوء وحذر ، وما أن فعلت حتى سمعت الخال لودن الذى يشغل السرير العلوى على يمينى ينطق نفس الكلمة : « هيلين » .

أدركت من صوته أنه نائم ، وخطر لى فى البداية أن الاسم الذى ناداه جونسون من قبل قد تسرب إلى حلمه فردده . لكن ، ألم يكن من المفترض أن يتغير الاسم حين يمر فى مصفاة عقله الباطن ؟ أن يتحول وفقا لسياق حلمه كما يحدث عادة ؟ ربما كان اسم امرأة يعرفها الاثنان ، وشاءت الصدفة أن تزورهما فى الأحلام فى نفس اللحظة . كان تفسيرا بعيد الاحتمال ، لكنه استهوانى ووجدته مسليا ، فقضيت فترة أطور هذه الفكرة الخيالية وأفصل ملامحها .

ثم سمعت أبى يتقلب فى سريره أسفل سرير الخال لودن ، ويغمغم بكلمة . لم تلتقطها أذناى بوضوح . كان صوتا أنفيا خافتا ممطوطا يتكون من حرفى اللام والنون ، لكننى أيقنت لحظتها دون تردد انه يعنى ذلك الاسم المألوف هيلين ، وإن جاء فى صورة مختزلة .

هل توجد امرأة لعبت دورا هاما مؤثرا فى حياة ثلاثتهم ورغم ذلك لم أسمع بها من قبل ؟ كلا . ليس هذا ممكنا . لم يكن فى حياتهم أسرار مشتركة من هذا النوع ، بل لم يكن فى حياتهم أسرار مشتركة من أى نوع .

بدا وكأن الحجرة تنتظر فى صمت . لم أعد أسمع أنفاسهم الآن . كانت النار قد خبت تماما ولم يتبق منها سوى بريق وردى تغطيه طبقة من الرماد الرمادى كالفراء . وفجأة ، فى نفس اللحظة ، تحركوا جميعا كل فى فراشه .. لم أرهم ، لكننى أدركت من صوت الحركة أنهم انتفضوا من رقادهم وجلسوا فى أسرتهم وقد فردوا ظهورهم ، ووضعوا كفوفهم المفتوحة فوق الفراش . كانوا لا يزالون نياما ، ورغم ذلك كانوا يحدقون جميعا بعيون مفتوحة لا ترى فى الساحة أمام المدفأة . شهقوا فى نفس واحد مثل الغطاسين حين يخرجون من مياه المحيط . وظلوا هكذا جالسين ، ثلاثتهم ، يتنفسون بصوت عال متحشرج ، ويحدقون بعيون مفتوحة لا ترى .

لم أرهم . لم أر أى شىء ، لكننى كنت أعلم ماذا يفعلون . حملقت بدورى فى ظلام الحجرة أمامى ، أجاهد كى أرى ... أرى ماذا ؟ كنت أعلم أننى لا أستطيع اختراق أحلامهم ببصرى ، ولم أشعر برغبة فى ذلك . لكن

التوتر أدركنى ، لذا حاولت أن أنحت من الظلام شكلا أستطيع أن أميزه .

وشيئا فشيئا رأيته . تبينته فى لحظة خاطفة أو تصورت أننى رأيته . تبدى فى الظلام وجه يحيط به شعر أسود لامع ، غامت ملامحه تحت خمار ، ورغم ذلك بدت مألوفة لى وكأننى عرفتها فى لحظة ما ، فى زمن بعيد ومكان بعيد . لو أننى فقط تذكرت ! ثم غاب الوجه فجأة كما ظهر - لو كان حقا ظهر - إذ لم تدم الرؤية أكثر مما يدوم ظل الشيء على حدقة العين بعد اختفائه . ولكن ، لو كنت حقا قد رأيت شيئا ، فقد كانت هى من رأيت : هيلين .

تمدد الآخرون الآن مرة أخرى فى أسرتهم ، وهدأت أنفاسهم وانتظمت . الآن لن تعاودهم هيلين فى الحلم ، سيمضى كل منهم وحيدا فى أسفاره ليرتاد أماكن غريبة مجهولة وسط غابات الأحلام ، ولن تتماس دروبهم فى النوم .

كان أكثر ما أثار اضطرابى هو فشلى فى تذكر متى وأين رأيت هذا الوجه المألوف . من هذه المرأة ذات الشعر الأسود الغزير وهاتين العينين البنيتين الثاقبتين ؟ جعلت أفكر وأفكر ، وقدحت ذهنى دون فائدة ، فاغتظت من نفسى وضقت ذرعا بفشلى . بدأ الظلام يبهت . انعكست أضواء الفجر على الثلوج وتسللت إلى الحجرة فلفتها فى غلالة رمادية ، وغلبنى النوم وحلمت بالصيف وبحقل شوفان يتوهج ذهبيا فى الشمس .

* * *

استيقظت على صوت نقانق تقلى وماء يُصبّ . كان الجميع قد استيقظوا وبدأوا يستعدون لاستقبال يومهم ، فنزلت من سريرى مسرعا وارتديت ملابسى . وجدتهم فى المطبخ - الحجرة الأخرى الوحيدة فى الكوخ . كانوا منهمكين فى العمل ، وقد بدت عليهم آثار خمول ربما من أثر ما جرعوه من ويسكى فى الليلة الماضية . ألقوا إلىّ بتحية الصباح وأنا أتخذ طريقى إلى المائدة ، وهناك جلست وشرعت ألاحظهم عن كثب .

لم أر أثرا لأية أسرار بينهم . كانوا يتصرفون بصراحة وعفوية كعادتهم دائما . ورغم ذلك فقد شعرت بأن مسافة تفصل بينى وبينهم ، وبأننى وحيد منبوذ ، وراودنى أيضا إحساس خفيف غامض بالخجل منهم وكأننى قد فتشت جيوبهم وهم نيام . لكننى لم ألحظ فى حديثهم شيئا يشى بما حدث فى الليلة الماضية .

أثناء الإفطار أخبرنى أبى بأننا سنغادر المكان . فرغم أن الثلج كان قد توقف فقد قرروا أن الجو لا يصلح للصيد واعتزموا العودة . أومأت برأسى فى صمت .

حزموا أمتعتهم فأسرعت بحزم متاعى ، ثم عدت إلى حوض المطبخ المصنوع من حديد الزهر لأغسل الأطباق والأقداح المعدنية . رفعوا الأغطية والملاءات من على الأسرّة وكنسوا المكان . وحين انتهيت من غسل الأوعية وأطفأت نار موقد الطهى جلست إلى المائدة أنتظر حتى يفرغوا من حمل المتاع وعدة الصيد إلى السيارة . جلسوا فى السيارة ينتظرون قدومى لكننى بقيت فى مكانى أجيل البصر فى الكوخ حولى .

بعد بضع دقائق سمعت وقع حذاء على الأرضية الخشبية الخشنة للشرفة الأمامية . ثم فتح الباب ووقف جونسون جبيس قويا متينا فى فتحته . تألقت عيناه الزرقاوان بلمعة شديدة . كانت الشمس قد أشرقت وفرشت نورها كاملا على الأرض فسطع الجليد بوهج باهر . بدا جسد جونسون أمام هذا الضوء القاسى أسود ، أسود كالمخمل ، متوهجا فى سواده ورن صوته عميقا أجوف :
« ما الخبر يا جبيس ؟ هل أنت معنا أم لا ؟ »

رقم الإيداع

١٩٩٤ / ٨٣٩٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر